

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية
الدراسات العليا - قسم الأدب والنقد



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٨٣٤

24

الدكتور زكريا الحامدي

١٩٠٩ ~ ١٩٧٢

حياته و أدبه

رسالة التخصّص «الماجستير»

يقدّمها إلى الكلية

خير الدين في اللغة والنحو

١٠٠٢٨٢٢

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور / حسن جاد - عميد الكلية



٨٢٤

٢١٩٧٨

١٣٩٨ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

=====

تمهيد

أحمد الله عز وجل ، وأثنى على آلائه ، وأعلى وأسلم على
خاتم أنبيائه ، وعفوة رسله من خلقه .

سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

وبعد : فهذا هو بحثى عن " الدكتور زكى المحاسنى " حياته
وأدبه " الذى تشرفت بتسجيله فى كلية اللغة العربية
بجامعة الأزهر من قبل موضوعا لرسالتى للحصول على شهادة التخصّص
" الماجستير " فى الأدب والنقد .

باشرف الأستاذ الدكتور حسن جاد عيد الكلية ، والسدى
وجهنى فى البحث خير توجيه ، وشملى بالكثير من عطفه ورعايته
وفضله .

واليوم أتشرف بتقديم البحث إلى كلية اللغة مطبوعا ، تمهيدا
لمناقشته .

وانى لأحمد الله على توفيقه ، وأشكره على أن أعاننى على
السير فى هذا البحث بكل جد وعناية وتقدير لأمانة الكلمة ومسئولية
البحث .

* * *

والدكتور زكى المحاسنى (١٩٠٩ - ١٩٧٢) أحد أعلام
الأدب العربى المعاصر فى سوريا ، فهو من أشهر الأدباء والشعراء
والنقاد فى هذا الاقليم العربى ، بل فى الوطن العربى كافة فى
عصرنا الراهن .

وقد توفي الى رحمة الله في الثالث والعشرين من مارس عام ١٩٢٢ ، وكان من الممكن أن يطوى أدبه ، وأن تنسى صفحة حياته وجهاده وكفاحه الوطني والثقافي والأدبي ، لأن آثاره مفرقة ، ومقالاته موزعة ، وشعره منشور في بطون الصحف والمجلات المصرية ، لولا أن الهمني الله أن أكتب رسالتي هذه عنه ، وعن عصره وحياته وأثاره الأدبية ، وأدبه ، وبخاصة أنه كان ذا اتجاه اسلامي متميز ، وانتماء عربي واضح الأثر في ثقافته وأدبه .

* * *

وتقع هذه الرسالة في ثلاثة أبواب :

- ١ - الباب الأول عن - المحاسن في عصره - وقد ضم فصلين :
الأول : عن - عصر المحاسن في شتى مظاهره -
السياسية والقومية ، والفكرية والثقافية والأدبية .
والثاني : عن - حياة المحاسن وأطوارها المختلفة .
- ٢ - الباب الثاني عن : آثاره ومؤلفاته - ويضم ثلاثة فصول :
الأول : عن بحوثه الجامعية :
والثاني : عن دراساته الأدبية :
والثالث : عن فن التراجم في أدب المحاسن .
- ٣ - الباب الثالث : أدب المحاسن - ويضم فصلين :
الأول : عن شعره وكل مايتصل به .
والثاني : عن نثره وألوانه المختلفه .

* * *

ويعلم الله كم لاقيت من عنت وارهاق ، لا نعدم الكتابة عن
المحاسنى ، اللهم الا نتفا قليلة تضمنها الكتاب الصغير ، الذى
ظهر منه بعد وفاته ، مشتملا على كلمات الرثاء ، التى رثاه بها
أصدقاؤه ، وأغلبها لا ينطوى على دراسة ، ولا يحتوى على بحث .

ولذلك كان مفروضا على أن أنقب فى كل مصدر ، وأن أرجع
الى كل مرجع ، وأن أستوعب كثيرا من الكتب ، وأن أعود الى كثير
من المجلات والدوريات المختلفة ، لألتقى بنبذة هنا ، وكلمة صغيرة
هناك ، وبجملة مختصرة هنالك .

ولكنى نهضت بالمسعى ، وحملت الأمانة ، حتى استوى هذا
البحث على سوقه .

وأنا اليوم سعيد ، بأن أقدمه الى الكلية ، التى وعنى طالبا
فى الخمسينيات من هذا القرن ، وشرفتنى بالانتماء الى قسم
الدراسات العليا فيها بعد ذلك بنحو عشرين عاما .

وأوجه الشكر عميقا وخالصا الى أستاذى الكبير الدكتور
حسن جاد عبيد الكلية ، والمشرف على هذا البحث ، الذى شملنى
بتوجيهه ، وغفرنى بعطفه ورعايته .

- وأحمد الله على فضله وكرمه وتوفيقه .
- وأسأله السداد ، والعصمة من الزلل .
- انه أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .
- وما توفيقى الا بالله .

خير الدين كم الماز

الباب الأول

المحاسنى فى عصره

ويضم فصلين :

الفصل الأول عصر المحاسنى ومظاهره

أ - الحياة السياسية والقومية

ب - الحياة الفكرية والثقافية

ج - الحياة الأدبية

الفصل الثانى حياة المحاسنى وأطوارها

أولا - الحياة السياسية والقومية : عاش الدكتور زكى المحاسنى حياته الممتدة بين سنتى ١٩٠٩-٧٢ فى سورية ذات المريقة ^{الخصارة} ، والمجد القديم ، وعاش الأحداث الجسيمة ، التى تعرض لها الوطن العربى فى هذا القرن .

فلقد قدم الى الحياة ووطئه الغالى يصارع الاحتلال التركى الذى ظل يزرع تحت نيره زهاء أربعة قرون ، تعرض خلالها لشتى ألوان الجور والتمصب القومى البهيف ، كما عانى من التخلف الفكرى والثقافى ، - كسائر أجزاء الوطن العربى ، الذى اصطلى بشاره - وتعرض له اقليم الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) ، وهو اقليم واحد ، يشكل جزءا خطيرا من أجزاء الوطن العربى الكبير ، وليس أقاليم منفصلة عن بعضها بحواجز مصطنعة ، كما طاب للاستعمار الأوربى الحديث ، أن يجعله كذلك ، وفقا لسياسته الاستعمارية - المعروفة .

وهذا الاقليم بحكم موقعه الجغرافى ، يمد أول أجزاء الوطن العربى اتصالا بالحدود التركية ، كما أنه كان أكثرها تعرضا لبطش الاستعمار وسلطوته ، وليس عجا فى أن يكون كذلك أكثر هذه الاجزاء ، رغبة فى الخلاص من عبوديته ورقه ، ومن ثم فلقد جد فى حمل لواء الدعوة الى القومية العربية ، التى هى سبيل الخلاص من قهر الأتراك وبطشهم .^(١)

وربما كان من مكرور القول أن نقول أن : بلاد الشام قد ران عليها الكسل والخمول ، منذ أن تعرضت لوطأة الاحتلال العثمانى

(١) انظر - ثورة العرب لأسعد دافر ، والثورة السورية لمبد الرحمان - شهيندر ، وانظر كذلك تاريخ العرب الحديث والمعاصر فى أماكن متفرقة ، ومقدمة الأدب العربى فى المهجر للدكتور / حسن جاد حسن

فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وذاقت صنوفا من الكبت والقهر وألوانا من المزلة والجمود ، كما دهقتها عوامل الفساد السياسى والتعصب الدينى ، والتناحر المذهبى والطائفى ، وساد الفقر فنى البلاد ، وتضعف فيها الأمن وعت الفوضى ، واضطربت الأحوال الاقتصادية ، حتى كان - عبد الحميد - أحد سلاطين الأتراك العثمانيين - على سبيل المثال - بسوس رعاياه بقضيب من حديد ، ويثقلهم بالضرائب الباهظة ، ويكم أفواه الأحرار ، ويحطم أقلام المفكرين ، ولا يأنف من سفك دماء كل من يحاول النجاة من نيره الثقيل .

وسبب هذه السياسة التركية ، جرت فى بلاد الشام مذابح دموية كذبحتى سنة ١٨٤٠ سنة ١٨٦٠ وغيرهما (١) .

ولقد دفعت هذه السياسة التركية ، طائفة من الشاميين الى الفرار والهجرة ، حيث نزح كثير منهم الى الأمريكتين وأستراليا وغيرها من بلاد المهجر ، فرارا من عسف الأتراك وسوء إدارتهم للبلاد وكبتهم للحريات ، وتضييقهم على الأقليات ، وسيادة الاقطاع وانتشاره ، واستئثار الاقطاعيين بالأراضى الزراعية ، وحرمان الفلاح من خيرات الأرض ، وسوء الحالة الاقتصادية ، وانتشار الفقر والحرمان والعوز ، وغير ذلك مما هو طابع السياسة العثمانية فى ظل الامبراطورية التركية ، التى خيمت على الوطن العربى فى هذه المرحلة المعصية .

(١) انظر - ثورة العرب لأسعد داغر ، والثورة السورية لعبد الرحمن شهبندر وانظر كذلك تاريخ العرب الحديث والمعاصر فى أماكن متفرقة ، ومقدمة الأدب العربى فى المهجر للدكتور / حسن جاد حسن .

ولقد صور هذا الواقع المر واحد من الأدباء السوريين الذين
ذاقوا مرارة تلك السياسة التركية بقوله : " كأن ملائكة بيت لحم لما
ترنمت فوق روابى اليهودية يوم ميلاد المخلص ، بتلك الترنيمة الشجية :
المجد لله فى الأعلى وعلى الأرض السلام ، قد استثنت البلاد التركية
عموما ، وسوريا خصوصا من (وعلى الأرض السلام) ، فلم يحل
السلام فى ربوع وطننا المحبوب ، ولا استتب الأمن فيه ، وما سبب
تلك الشحنة بين أبناء الوطن الواحد ، سوى التعصب الذمى ، وعمال
الحكومة التركية الذين تمسحوا على سياسة " فرق تسد " ..

كما صور أديب سورى آخر بواعث هذه الهجرة بقوله : " ان
الذين غادروا سوريا ، انما نزعوا عنها هربا من الفقر والجور ، وقد
أما هذه البلاد وسواها ، لكى يجمعوا مايمكنهم بعضه من الميئس
بهنا ، ويشترى لهم البعض الآخر نصيبا من العدل والحرية " (١)
وهاتان الفقرتان توقفان . القارىء على مدى الاضطراب السياسى
الذى منيت به بلاد الشام فى ذلك العهد المنصرم ، كما تصور ان
فسى دقة سياسة المثمانين للبلاد ، التى وقعت فريسة بين برائن
عبوديتهم ، وأصفاد استغلالهم ، حتى برم منها الأدباء وضج المفكرون
وراح هؤلاء وأولئك ، يلتمسون النجاة فرارا بدينهم ، وبقاء على أرواحهم
وطلبا للحرية التى يتنفسون فى ظلها ، ويترجمون عن مشاعرهم المكبوتة
وعواطفهم المكلومة وأنفاسهم الجبيسة .

(١) أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ص ٨٨ وما بعدها لجورج صيدع .
وانظر : الأدب العربى فى المهجر د . حسن جاد ص ٦ - ٨ .
وانظر كذلك - محاضرات عن الحركة الأدبية فى حلب لسامى الكيالى .

وهذا ما كان من المهاجرين الأحرار ، ذوى النفوس التواقّة للحرية
ممن ضاقوا ذرعا بسياسة العثمانيين ، واتخذوا من الصحافة والأدب -
فى مهجرهم - منبرا حرا تنطلق منه ثورتهم على الظلم والظالمين .

ولقد تهيأ لاقليم الشام منذ أوائل القرن التاسع عشر ، عوامل
اليقظة والكفاح ، ونشطت حملات المقاومة ضد العثمانيين ، حتى غدا
أقوى البيئات العربية ، وأسبقها الى التحرر الفكرى والعربى والسياسى
وقد تمثل ذلك فى تجمع أبناءه حول اللغة العربية وأمجاد العرب
وتراثهم القومى - كرد فعل على مابدا من محاولات العثمانيين لسحق
القومية العربية .

ويرجع تاريخ هذه اليقظة ، الى وصول نابليون بونابرت الى
اقليم الشام ، وهزيمته عند أسوار عكا ، ثم كان الحكم المصرى لبلاد
الشام ، الذى استمر تسع سنوات (١٨٣١ - ١٨٤٠) ، ولكن
دسائس الاستعمار لم تلبث أن عطلت على فصل الشام عن مصر مرة
أخرى ، وتوالت المؤامرات الاستعمارية المدوانية ، التى أحاكها فرنسا
وانجلترا وتركيا ، ليليقاع بين طبقات الشعب المصرى الواحد ، مما أدى
الى وقوع مذابح لبنان فى سنة ١٨٦٠ (١)

وتحت تأثير جيوش تركيا وتحسفا ، قاومت بلاد الشام عن طريق
مفكرىها وكابها وأدبائها ، مظاهر البطش العثمانى - منذ آخريات
القرن الماضى وأوائل هذا القرن - ، حين اشتد نضال العرب من أجل
حريتهم واستقلالهم ، وتخلصهم من هذا الضيق والكبت ، الذى تعرضوا

(١) انظر الأدب العربى الحديث فى معركة المقاومة والتجمع ص ٣٢٠ وما بعد ذلك
أنور الجندى .

له فى ظل الحكم التركى ، الذى تردى فى محيط لاساحل له فمن
الاضطراب والفوضى ، ولقد بدأ ذلك واضحا ، فى جهود بعض قسادة
الفكر من الشاميين ، الذين هاجموا فى أسلوب جرىء طبيعة الاستبداد
العثمانى ، وحملوا عليه حملة سافرة ، وكشفوا القناع عن جوانبه الخفية
وآثاره الواضحة •

وذلك على النحو الذى كتبه السيد / عبدالرحمن الكواكى الحلبى
- فى كتابه - طبائع الاستبداد ، وقد كشف فيه عن طبائع الاستبداد
التركى ، وندد بسياسته النكراء ، التى حمل عليها الدول الواقعة
تحت قبضته ، وهناك من المؤرخين من يرى أن هذا الكتاب كان
المقصود منه مهاجمة السلطان عبدالحميد بالذات ، الذى عرف بغلظته
وكرهه للمرب ، كما اتسمت سياسته بالعنف والقمع (١) •

ولقد كان العرب قاطبة يرقبون تطور الاحداث ، ويمایشونها
عن كتب ، مشعين الخلاص من هذا الاحتلال الذى طال أمده •

فلما أعلن الدستور العثمانى فى يوليو / تموز سنة ١٩٠٨ ، قوبل
بحماسة بالغة عند العرب ، وأقيمت صلاة الشكر فى طرابلس الغرب
على سبيل المثال (٢) . لانه أعطى حرية واسعة ، وأحدث فى النفوس
فرحة كبرى ، وانطلقت المواطف المكبوتة والحماس القوى ، وتنافست
المشاعر فى الحديث عن الحرية والاستقلال ، الذى طال حنين العرب
اليه وتلهفهم نحوه •

(١) انظر - عبدالرحمن الكواكى للدكتور محمد عبدالرحمن برج القاهرة ١٩٧٢
وانظر كذلك - رواد القومية العربية ج ١ لأنور الجندى •

(٢) ساطع الحصرى ص ٢٨ د • محمد عبدالرحمن برج القاهرة ١٩٦٩ •

ولما عزل السلطان عبدالحميد في ابريل / نيسان ١٩٠٩ء أعطى عزله للفكر القومى حرية أبعد مدى ، حيث جدت الصحف فى مختلف أرجاء الوطن العربى ، تتحدث عن شهداء الطفيان الحميدى وتتمرد على الأتراك ، وتبرز مقومات الشخصية العربية .

ولما اشتد طغيان غلاة الاتحاديين بعد عبدالحميد ، واتجهوا الى دعوة - تحريك المناصر - ، أخذت اليقظة الفكرية والوعى القومى العربى ، يأخذان شكلا أكثر قوة وأشد فاعلية ، وقد كان للشاميين الفضل الأول فى ابراز فكرة " اللامركزية " عندما عقد مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ . حيث بدأ التفكير الدينى الاسلامى عند العرب ، ليتحول الى تفكير قومى ، وجاءت البحوث التى أُلقيت فى هذا المؤتمر ، تتناول تعريف الأمة العربية ، ومنها البحث الذى ألقاه السيد / عبدالغنى المريسى ، فى تعريف الأمة العربية وفيه قوله : " هل للعرب حقاً جماعة - أى أمة ؟

ان الجماعات فى نظر علماء السياسة لا تستمد هذا الحق الا اذا جمعت على رأى علماء اللسان ، وحدة اللغة ووحدة المنصر ، وعلى رأى العلماء الايطاليين وحدة التاريخ ووحدة المادات ووحدة الطمع السياسى ، فحق للعرب بعد هذا أن يكون لهم على رأى كل علماء السياسة ، دون استثناء حق جماعة ، وحق شعب ، وحق أمة (١)

وقد قوبل هذا الوعى السياسى والقومى من جانب الاتراك - كما كان يقابل دائما - بالقمع والمنف ، حيث تصدوا بعنف لكل انتفاضة

(١) الدولة العثمانية والشرق العربى د . محمد أنيس .

مهما كانت قوية أو خافتة ، فيها تعبير عن مشاعر الضيق وتصويـر
لمواقف الأسى ، التي كانت تفجر براكينها فى نفوس الشاميين تلك
الأحداث الدامية ، التي ارتكبها العثمانيون ، ومنها على سبيل المثال
ماقام به أحمد جمال باشا حاكم سوريا ، من تحليق الاحرار على
المشائق علنا فى ساحتى دمشق وبيروت فى ١٦ مايو ١٩١٦ (١) .

بيد أن هذه الاجراءات الانتقامية من جانب الأتراك ، لم
تفت فى عضد العرب ، ولم توهن من عزيمتهم ، بل انها قد ضاغت
من حماس العرب ، وتحفزهم للنضال ، فجدوا فى مقاومة الأتراك ،
والتصدى لمحاولاتهم المنيفة ، على لغة العرب وأمجادهم القديمة ،
ووقفوا فى وجه المحاولات الطائشة ، التي كان يحاولها غلاة الاتحاديين
لإلغاء العربية ، وإحلال التركية محلها ، أو تغليبها عليها على الأقل
وزاد من ضراوة العرب واستبسالهم فى المقاومة ، حماسهم الشديد
إزاء نزع العثمانيين ، لأسماء كبار العرب من الصحابة عن قباب المساجد
لوضع أسماء عظماء الأتراك بدلا منها .

وإزاء حملة الصحف التركية فى الطمن على العرب ولفتهم
وتلك نزعة شعوية بحتة كانت امتدادا للنزعة الشعبية التي ظهرت
منذ القرون الأولى للهجرة ، وتصدى لها منذ ظهورها بعض كتاب العرب
وأدباءه ومفكره ، كما فعل الجاحظ وغيره (٢) .

وما ينهض التنويه به هنا : أن كثيرا من مفكرى العرب —
منذ لاح فجر النهضة القومية على نحو ما ألمت اليه سابقا — قد
(١) انظر هذه الأحداث مفصلة فى كتابى — ثورة العرب لأسعد داغر ،
والثورة السورية لعبد الرحمن شهبندر .
(٢) انظر — عبد الوهاب عزام للدكتور زكى المحاسنى ص ١٩ وما بعدها .

قاوموا الحملات التركية العنيفة ، بما هو أكثر غفلا وأقوى ضراوة منها ،
وكان للشام بحكم مركزه الدقيق ، وقرينه من عاصمة الامبراطورية العثمانية
اثر بارز في التصدي لتحديات تركيا وحملاتها ، وذلك على النحو الذى
كان من عبدالرحمن الكواكبي الذى حفلت حياته بالكفاح العنيف والنضال
القوى من أجل حرية بلاده واستقلالها ، والدفاع عن مقومات عربيتها
كما ذكرت آنفا .

ومثل هذه الأحداث التى أوجزنا فيها القول ، توقفتنا على مدى
اضطراب الوضع السياسى فى الوطن العربى بصفة عامة ، وفى اقليم
الشام بصفة خاصة ، ابان خضوعه لنفوذ الامبراطورية العثمانية ، التى
آذنت شمسها بالمغيب آنذاك ، كما تدلنا كذلك ، على صدى جيشان
المشاعر القومية فى نفوس العرب ، حيث تمنوا بشق الأنفس ، لو أتيح
لهم الفكك والخلاص من قبضة الأتراك ، التى طال مداها ، كما
تغنوا بالحرية والاستقلال ، وثاقت أنفسهم الى الوحدة العربية الكبرى ،
التي هى سبيل الخلاص من الذل والاستعباد .

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، انحازت الدولة
العثمانية الى جانب ألمانيا ضد جيوش الحلفاء كما هو معروف ، واحتدمت
المعارك فى أوربا وآسيا ، وحى وطيس الصراع بين الاتحاديين العثمانيين
والعرب ، وكانت سياسة تركيا التى أشرت اليها سابقا ، وصراعها الدامى
بين العرب ، مما عجل باعلان الثورة العربية على الأتراك العثمانيين
بزعامة الشريف حسين بالحجاز ، ودخول العرب الحرب الى جانب الحلفاء ،
وقد ذاقوا البلاد العربية بعد ثورتها شيئا من حلاوة التحرير ، حيث
دخل فيصل على رأس الجيش العربى " دمشق " دخول الظافر المنتصر فى

٣ أكتوبر / تشرين الأول ١٩١٨ (١) ، ولكن حالة هذا النصر المؤقت لم تدم طويلا ، فلم تلبث جيوش الحلفاء أن نكثت بوعدها ، واحتلت دمشق والقدس ، بعد أن اتفقت انجلترا وفرنسا على اقتسام الأرض العربية فيما بينهما ، وتمهدتا للمرب بتسليمها لهم بعد انتهاء الحرب ، وتلك لعبة استعمارية خبيثة ، كانت لها أثرها الوخيمة في تاريخ العرب المعاصر ، حيث تجرعوا من جرائها كأس المرارة ، وفرغوا من استثمار إلى استثمار آخر جديد ، دفعوا المهج وبذلوا الدماء في سبيل الخلاص منه ، حتى تحققت لهم الحرية والاستقلال ، بفضل الكفاح المضني ، والنضال الشاق عبر عشرات السنين .

وطبقا لاتفاقية التقسيم بين الدولتين الكبيرين آنذاك ، أصبحت سوريا ولبنان خاضعتين لسلطان فرنسا ، وفلسطين والأردن خضعتا للنفوذ البريطاني ، وتم التمهيد لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين اثر التصريح بوعده " بلفور " المشؤم لهذا الغرض ، وتطورت الأحداث وفتحت أبواب الهجرة لليهود ، ووجدت هذه الفكرة الاستعمارية الخبيثة من يتبنائها ويدافع عنها ، بل ويؤازرها في تعصب شديد ، حتى كان من أمرها ما كان ، ولم يزل العرب يعانون من ويلاتهما حتى الآن .

وان كانت الجهود قد تضافرت أخيرا ، وتوفرت على حل هذه القضية الشائكة المويضة التي بددت قوى العروبة وأنهكتها ، وهددت الأمن الانساني والسلام العالمي على نحو سافر ومعروف .

(١) انظر هذه الأحداث مفصلة في كتاب - تاريخ العرب الحديث والمعاصر - وانظر اليها في تركيز في كتاب ساطع الحصري للدكتور / محمد عبدالرحمن
برج ص ٣٣ - ٣٨ .

ومعنى هذا - أن بلاد الشام تلك التي أقلت المحاسن ، قد واجهت مناورات استعمارية جديدة ، وفشت عينيها على استثمار جديد بعد أن أطبقته على الاستعمار التركي الذي اضمحلت امبراطوريته وتقلص نفوذه ، ولكن زعماء المروية وقادة الفكر فيها ، قد كرسوا جهودهم للدفاع عن قضية الوطن وحقه المشروع في الحرية والاستقلال فذهب فيصل الى مؤتمر الصلح في باريس للدفاع عن حقوق بلاده ، ووصلت بعثة " كراين " لتستفتى أهل الشام في رغباتهم الوطنية وقرر المؤتمر السوري عدم السماح للجيش الفرنسي بالتدخل في المناطق الداخلية ، والدفاع عن استقلال البلاد بقوة السلاح ، وعلان الخدمة الاجبارية ، ثم أعلن المؤتمر في ٨ آذار / مارس ١٩٢٠ استقلال البلاد السورية ، ونودي بالأمير فيصل بن الحسين ملكا دستوريا عليها (١) .

ولكن الجنود الفرنسية كانت قد احتلت الساحل السوري فشن تشرين الأول سنة ١٩١٨ ، ثم تقدمت كذلك بقيادة " غورو " نحو دمشق والمناطق الداخلية ، وتوالت انذارات فرنسا لسورية ، التي لم يكن من السهل عليها أن تستسلم لتلك الانذارات الفرنسية المتكررة ، بشأن التسليم والاذعان لمطالب قادة جيشها ، الذين أعدوا المسداة لاقتحام سوريا والاستيلاء على عاصمتها حتى يسهل عليهم السيطرة على كل أقاليمها .

ولقد أنطلقت الثورة السورية في وجه الاحتلال الفرنسي ، منذ اللحظة الأولى ، التي دهمها فيها شبحه الرهيب ، وسلطانه الجائر ،

(١) يتصرف عن كتاب تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٢١٦ - ٢٢١ .

وقدم يوسف المعظمة وزير الحرية السورية آنذاك ، وثمانمائة شهيد
أرواحهم الزكية ثمنا للمقاومة والبسالة ، حيث مرت القوات الفرنسية من
فوق أجسادهم الطاهرة ، وخرج الشيخ صالح العلي على رأس قواته
وعمدت القيادة الفرنسية في دمشق ، الى حشد قواتها الضخمة لتطويق
المجاهدين ، ولما قبضوا عليه وقدموه للمحاكمة قال لهم في شجاعة :
أنا محب لمرويتي ، لو بقى ممي عشرة من الرجال لقاومتكم حتى الرق
الآخر .

وهذا الموقف الباسل يوقفنا على العزم والتصميم ، الذي استقبل
به السوريون عدوان هذا الاحتلال الجديد .

ولم تلبث الثورة السورية الكبرى ^(١) أن اندلعت في ابريل سنة ١٩٢٥
وبدأت في جبل الدروز ثم شملت أنحاء سوريا ، وقد كلفت فرنسا
جنودا من خيرة جنودها ، وقاد هذه الثورة - سلطان باشا الأطرش -
شيخ الجبل ، وخاض بقواته معارك حامية انتصر فيها الدروز ، ثم
امتدت هذه المعارك الى حماة فدمشق ، وفقد فيها الفرنسيون ٠٠
أعصابهم ، فغضبوا العاصمة السورية بالدفاع من القلاع الحصينة ، التي
نصبوها ، وفتحت الآلات أفواهاها ، وصهف حصنها على قلب المدينة ،
فأحرقت ودمرت وأكلت ما يربو على ستمائة دار ، فضلا عما وقع من النهب
والسلب بصورة مروعة ، حيث حطموا أبواب الحوانيت ونهبوها وأشعلوا
النيران في البيوت التي سلبوا منها متاعها .

(١) راجع وصف هذه الثورة في " الثورة السورية الكبرى " ج ٣ ص ٣٠٥
وما بعدها لعبد الرحمن شهبندر ، الذي لجأ الى مصر بعد ذلك
وكان زعيما من زعماء هذه الثورة - وقد رفضت مصر تسليمه الى فرنسا .

وسجلت تلك الثورة بطولات فائقة في حماة والقوطة ودير الدروز
والسويداء ، وارتكبت القوات الفرنسية جرائم وحشية مخجلة ، تمسيسة
في تاريخ فرنسا ، التي كانت تدعى حمل رسالة الحرية والاخاء
والمساواة .

وما يجدر ذكره أن تلك المقاومة الباسلة ، التي أبداهها
السوريون في هذه الثورة وماوليتها من انتفاضات متلاحقة ، لم تكسب
تهدا حتى تنشب من جديد ، كان يوازرها ويؤجج نيرانها ويرصد
ظواهرها ، ويشيد بطولات زعمائها ، أدباء المروية في سورية وغيرها
من الاقطار العربية ، ولم تكن وقفا على قادة الثورات وحملات السلاح
وحدهم .

فهذا شوقي أمير الشعراء ينشد قصيدته العصاة في المجمع
العلمي العربي بدمشق في ١٠ أغسطس ١٩٢٥ ، بعد اندلاع الثورة
السورية الكبرى ، مصورا فيها عظمة الكفاح وقيمة النضال ، ومرجعا عن
المشاعر القومية النبيلة ^(١) بقوله :

قم ناد (جلق) وانشد رسم من بانوا	مشت على الرسم أحداث وازمان
هذا الأديم كتاب لا كفاء لـه	رث الصحائف باق منه عنوان
الدين والوحي والاخلاق طائفة	منه وسائره دنيا مهتـان
بنو أمية للأبناء ما فتحوا	ولالأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم	فهل سألت سرير الغرب ما كانوا ؟
ثم يختتمها بقوله :	

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام اخوان

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ١١٨ وما بعدها
د . محمد محمد حسين .

وقصيدته في نكبة دمشق ذائعة مشهورة ، وفيها تحريض على النضال
واشادة بزعما الثورة السورية وأبطالها ومظلما :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكف يد دمشق
ومنها قوله :
وقفتم بين موت أو حياة فان رمت نعيم الدهر فاشقوا
وللاوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمنايا اذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا ؟
ولا يبنى الممالك كالأحيايا ولا يذكر الحقوق ولا يحق
ففى القتل لأجبال حياة وفى الأسرى فدى لهم وحق
وللحرية الحمراء بساب بكل يد مخرجة يدق ٠٠ الخ (١)

وهذا شاعر عربى آخر من مصر (٢) - قلمة العروبة ونهضها - ينسدد
في قصيدة له طويلة ، بالعدوان الفرنسى الوحشى على سورية ، الذى
لم تراع فيه حرمة الطفل البرى ، أو الشيخ الضميف الأعزل بقوله :

سموا لدمشق فكم صاعق وطاروا عليها فكم ناسف
أبيحت فلا الطفل فى مهده بناج ولا الأشيب الدالسف
اذا خضب الدم ثدى الرضيع سقاء فروى دم ناسف
فناء هنا وفناء هناك حمام بازبها خاطف
بنفسى دمشق فلا المجتلى أنيق ولا ظلمها وارف
شجى يومها وبكى أسسها قرير بنكبتها آسف ٠٠٠ الخ

(١) الشوقيات .

(٢) السيد / حسن القاياتى جريدة كوكب الشرق ١٨/١/١٩٢٦ .

واذا كانت هذه الأحداث قد ألهمت الشاعر القومية النobile في
نفوس شعراء المروية وأدبائها على هذا النحو ، الذي بدأ — من
الشاعرين السابقين ، فان الشاعر القومية والوطنية في نفوس أبناء سوريا
وشعرائها ، كانت أقوى أثرا وأشد فاعلية ، يقول الدكتور محمد سامي
الدهان بعد أن عرض طائفة من النماذج الشعرية لشعراء سوريين
في مهاجمة الأتراك والفرنسيين ، ومقاومة الاحتلال في شتى صورته :
" وهذا الوعي العظيم في شعر القومية والضحايا لا يبلغ اليه وعي
مهما سما ، وذلك لان الشعراء كانوا في مستوى المعركة ، ثقفوها عن
التاريخ الماضي ، وجبلت نفوسهم على هديها ، فما هزهم المسوت
الا ليهبوا ، وما روعهم القتل الا ليستيقظوا ، فجملوا الشهداء منائر
للجبل ، ورسموها شملا في ظلمات الحكم الفرنسي ، حيث تجلست
سخرية المستعمر وقذارة الظالم وعدوان الانسان ابن الغابة على
الانسان " كما يقول : " وظل الشعراء يذكرون الحماسة ، ويوقدون
نار المروية والقومية ، حتى آتى النضال أكله ، واستقلت البلاد ، وطرد
عنها آخر جندي مستعمر ، فكان للشعراء فضل في المعركة كفضل
الجندي سواء بسواء " (١) .

ومن الشعراء السوريين الذين ثخنوا بحرية العرب في كل اقليم ،
وعملوا لواء الجهاد والنضال لتحرير اخوانهم في كل مكان — محمد
اليزم — ١٨٨٧ — ١٩٥٥ ، الذي يرسم في شعره القومى الوطن
المعرب ، ويصف حبه لكل بقعة من بقاعه بمثل قوله : —
خلق منبت جسمي وعلمي دجلة محتد قومى الفابريسن

(١) الشعر الحديث في الاقليم السورى ط ٠ القاهرة ١٩٦٠ .

والى بغداد مهوى النفس لى أنه تتابى حينا فحين
وحشا تهفو الى أم القرى مهبط الوحى ومهد الراشدين
وفؤاد سؤله فى يشرب كاهل المجد وأرض الفاتحين
وشجد لا تعداها الحيا منعة العرب ومشوى المقتبين
وعلى البطحاء مجد غابسر شاخص ألقه كر السنين
ويصنمها تخطاها الأذى عزة الليث اذا مل المرين
موئل من حل فى أرباعه فى الرزايا كان فى حرز مكيين (١)

ومضهم كذلك - خليل مردم - الذى يصور تحفزه للنضال دفاعا عن أمته
فى شعر قوى وطنى حار منه قوله :

أنا ما حييت فقد وقفت لامتى نفسى ومالى فى سبيل بلادى
فاذا قتلت وتلك أقصى غاية لى فالوصية عندها أولادى
بنت لتضيد الجراح وبافسع يعنى بتشقيف القنا المياد (٢)

ومن هؤلاء الشعراء : خير الدين الزركلى وشفيق جبرى وعمر أبوريشة
من جاشت عواطف القومية والحماسة فى وجدانهم فنفضوها سحريا قويا ،
وبيانا مدويا ، أفض مضاجع الاستعمار وقت فى عضده وطمنه فى أعماقه .
ولقد كرس كثير من قادة النضال فى سوريا حياتهم للدفاع عن
وطنهم ونصرة بلادهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر الى أن يترك الواحد
منهم وظيفته ، ويتفرغ لهذا الفرض الأسمى ، وذلك كما فعل المناضل
السورى - ابراهيم هنانو - الذى التف حوله الاحرار المناضلون ،

(١) الشعر الحديث فى الاقليم المبورى ط . القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٠ .

وتقاوموا المحتلين الفرنسيين ، مقاومة عنيفة أرهبتهم وأقضت مضاجعهم
وقد ظل هذا البطل فى نضال عنيف حتى وقع فريسة ، فى أيدي
أعدائه ، الذين اعتزموا اعدامه * ولم يصرفهم عنه سوى ثورة الوطن
المعربى كله من أجله ، واستنكاره بشدة لعدوان الفرنسيين عليه
وصنيعهم به - حتى أفلت هذا البطل العظيم من قبضتهم ، ولكنه
قبض الى رحاب ربه فى سنة ١٩٣٦ .

فلما كانت ذكراه المطرة فى سنة ١٩٣٧ - حياه الشاعر السورى
المعاصر - عمر أبوريشة - (١) وحى الكفاح والنضال الذى أبداه وطنه
المعربى فى ثورته على الاحتلال ، مثالا فى شخص هذا البطل الشجاع
بقصيدة حارة منها قوله :

وطن عليه من الزمان وقار النور ملء شعا به والنار
تفوقوا أساطير البطولة فوقه ويهزها من مهدها التذكار
والموت جرح الكبرياء بصدرة يعمى وتضحك حوله الأعمار
فاخفض جناح الكبر هذى تربة غمر الخلود أريجها الممطار
فى كل صقع من جماجم نشته حرم على شرف الجهاد يزار .. الخ

ولم تكن هذه الروح القومية وقفا على شعراء المروية وحدهم
وانما بذل الأدباء والمفكرون والكتاب جهودا مشكورة فى تذكية النضال
واشمال جذوته ، وشحن الهمم التى لم تصرف اللال أو اليأس نفسى
مقاومة جبهوت الفرنسيين الذين جثوا على صدر هذه البقعة من

(١) شاعر سورى معاصر ولد فى منبج ١٩١٠ ، وتعلم فى سوريا وميروت
وانجلترا ، وتمشى الأدب العربى والانجليزى والفرنسى ، وتولى عدة مناصب
سياسية وثقافية فى سوريا وغيرها من بلاد العالم .

الوطن ، كما كان اخوتهم فى النضال يقاومون الاحتلال بشتى صوره فى
بقية أجزاء الوطن العربى .

ولقد بدا ذلك واضحا فى جهود دعاة القومية العربية والوحدة
والجامعة الاسلامية ، وقد كانت سوريا بطبيعتها نزاعة الى تحقيق ذلك
كله ، ومحاربة كل فكرة استعمارية بدت فى تلك المرحلة ، وقد تمثل
ذلك قويا فى تصريحات زعمائها وفكرائها مثل - الأمير شكيب أرسلان ،
ومحمد رشيد رضا ، وعبدالرحمن شهبندر ، ومحمد حبيب المبيدى ومحمد
كرد على وساطح الحصرى وغيرهم ^(١) ، فعلى سبيل المثال كتب ساطح
الحصرى فى العدد السادس من مجلة العربى الصادر فى مارس -
آذار (١٩٥٩) - يقول - على كل واحد منا أن يؤمن أصـدق
الايـمان بأن الوطن العربى يمتد من المحيط الاطلسى الى الخليج
العربى وجبال زاغروس ، ويشمل جميع البلاد التى يتكلم أهلها اللغة
العربية ، وأما الدويلات القائمة بين هذه المناطق فانها وليست
المناورات والمساومات والمقاسمات التى قامت بين الدول المستعمرة
كما يقول : اننا ثرنا على الانجليز ، ثرنا على الفرنسيين ، ثرنا على
الذين استولوا على بلادنا وحاولوا استعبادنا ، كررنا الثورات الحمراء
عدة مرات ، وواصلنا الثورات البيضاء عدة عقود من السنين ، وقاسينا فى
هذا السبيل ألوانا من المذاب ، وتكبدنا أنواعا من الخسائر وضحايا
بكثير من الأرواح . ^(٢) .

وهذه الفقر توفقنا على نضوج الفكر القومى والثورى ، الذى تمتع
به زعماء النضال فى سوريا فى هذه الفترة من فترات كفاحها الطويل

(١) انظر ذلك مفصلا فى كتاب - الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ج ٢

للدكتور محمد محمد حسين .

(٢) ساطح الحصرى . محمد عبدالرحمن برج ص ١٠٤ - ١٠٥ .

ونضالها الشاق في سبيل الظفر بالحرية والتمتع بالاستقلال .
وكانت سوريا التي تعرضت لنير الجور التركي البغيض ومطش
الاستعمار الفرنسي الفاتك تدرك تماما - كما كان يدرك غيرها - من
البلدان العربية - ألا ضا لها في الخروج من تحت وطأة الاستعمار
الا بتوحيد الصف وجمع الشمل ، حتى يقوى العرب على مواجهة خصمهم
اللدود وعدوهم المشترك ، ومن ثم نشطت الدعوة الى القومية العربية ،
ونبذ القوميات المحلية ، التي جد الاستعمار في خلقها واثارتها ، عن
طريق احياء المصيبات القديمة ، واشعال نار الخلاف والانقسام ، بين
أبناء الوطن الواحد . (١)

ولقد جد دعاة القومية العربية في مقاومة هذه الدعوة الاستعمارية
ونادوا بالوحدة والتماسك حتى يفوتوا على المستعمر فرصته . وكان ممن
حمل راية الدعوة الى القومية العربية في مصر ، الدكتور عبدالوهاب
عزام ، وقد كان المحاسني يتابع في أعجاب دعوته هذه ، التي كان
يجار بها دائما في كتاباته ذوات الطابع القوي ، ولقد نقل المحاسني
عنه مقاله الرائع (مصر والبلاد العربية) ، ومنه هذه الفقر - بين
مصر والبلاد العربية كل ما يؤلف بين الاقوام ، من وشائج القرى
والتاريخ ، وكل ما يحكم القرابة من عقائد وعواطف وآلام وآمال ، وكل
ما يؤكد الاخوة من حقائق ومنافع " ، يذهب المصري الى احد الاقطار
العربية ، فكانا برح بقعة في مصر الى أخرى ، يرى وجوها يعرفها ولا تنكره

(١) انظر المراحل التي مرت بها هذه الدعوة في كتاب - القومية العربية
والوحدة الكبرى لانور الجندي - والاتجاهات الوطنية في الادب .
المعاصر ج ٢ .

ويسمع من أحاديث الماضي والحاضر ما يسمعه في بلاده ، ويحدث عن
الهموم والمطامح التي تنطوى عليها نفسه ، ويخفق بها قلبه ، حيثما
توجه وجد أهلا بأهل واخوانا باخوان ، وأبصر من ذكر التاريخ
ومشاهد الحاضر وخطط المستقبل ما يوحى اليه أنه في وطنه وبين
قومه ، وكأنه لا يذهب الى هذه البلاد الا ليرى بعينه ما حدثه
به التاريخ ، وأحكمته في نفسه النشأة والتعلم * .

* ذهبت مرة الى فلسطين والشام والمراق ، فكان يخيل الي
اينما سرت أنى لا أخطو الا على صفحات من التاريخ المجيد ، ولا أرفع
نظري الى عنوان من عناوينه في صورة مسجد أو مدرسة أو قبة ، حنت
على عظيم من أساقنا أبطال الاسلام والعربية ، وطوفت في المراق
مدنه وقراه وحضره وبانيته ، فكانت بغداد عندى القاهرة بل أجل
ذكرا * .

* وأما دمشق الجميلة الجليلة ، فما دخلتها الا ازدحت على
أحداث التاريخ ورفعتنى مواكبها ، فسارعت الى الجامع الأموى أنشد
قول شوقي :

هذا الأديم كتاب لا كفاء له رث الصحائف باق منه عنوان

ولست بدعائى هذا وحدى ، فما أحسب مصرا ذهب الى هذه
البلاد الا شمر بما أشعر به (١) . يمثل هذه الروح القومية الصادقة
صور واحد من أدباء العرب ومفكرهم مشاعره الصادقة وعرويته الاصيلية
حتى عدّه المحاسنى كنزا للقومية العربية والتراث على ضفاف النيل .

(١) عبدالوهاب عزام ص ٦ و ٧ .

استقلال سوريا ووحدتها :

في حين كانت هذه الدعوات تنشط في سبيل تقوية المروية وجمع شملها ، وتوحيد كلمتها حتى تقوى على مهاجمة الاحتلال القابع على أراضيها ، كانت مقاومة شعب سوريا البطل لا تهدأ ولا تستكين الى راحة أو تطمئن الى سبات ، وانما كانت ضرباتها الموجعة تضيق الفرنسيين وتؤرقهم ، وكانت مقاومتها الباسلة تكلف جنود فرنسا كثيرا من المشاق والصعاب .

ونذكر على سبيل المثال : أن جيوش فرنسا ظلت عاجزة طوال تسعة شهور عن اجتياز جسر صغير يقوم على أحد أنهر دمشق المعروف " بنهر تورا " ويبلغ عرضه أربعة أمتار فقط ، وقد كلف عبور هذا الجسر الجيوش الفرنسية أكثر من عشرة آلاف قتيل وجريح ، إذ كان رصاص المجاهدين يصرعهم كلما دنوا منه شبرا أو حاولوا اجتيازه ، ويقسى سمير الثورة السورية في تاجع مستمر عامين (١) " بضعة أشهر . وفي ليلة ٢٥ أيار (مايو) ١٩٤٥ واجهت سوريا عدوانا فرنسيا غادرا ضمن سلسلة عدوانها عليها ، الذي لم يكد يهدأ طوال فترة احتلال فرنسا لها ، فلقد أطلق الجنود الفرنسيون الرشاشات على الأهليين ، الذين كانوا في المحطة بعد وصول قطار حلب ، فتركزت قوات ... المجاهدين على الفور في مدخل المدينة على طريق حمص ، حيث أصلت قوات المحتلين نارا حامية ، مساء السابع والمشرين من الشهر نفسه ، واستمرت المعركة ساعتين وأسفرت عن تراجع الفرنسيين .

(١) تاريخ المرب الحديث والمعاصر في مبحث : نضال سوريا بين الحربين الساليتين .

وقد توالى الممارك فى حماة وحمص واللاذقية وطرسوس ، مطالبة بالاستقلال التام والجملاء عن البلاد ، وعلى الرغم من هذه المقاومة العنيفة والعنيدة من جانب السوريين ، لم تتخل فرنسا عن غايتها ، اذ كان يشق عليها أن تخرج من سورية ولبنان ، دون أن تكبلهما بماهدة تمنح فرنسا الحق فى قواعد تقيم بها قوات عسكرية ، على نحو ما فعلت انجلترا مع العراق ومصر قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن سوريا ولبنان رفضتا المطالب الفرنسية ، واضربت المدن السورية واللبنانية ، وسارت مظاهرات الاحتجاج واستبد الفيظ بالفرنسيين ، فأطلقوا نيران مدافعهم على دمشق وحمص وحماة ، وقتلوا بالمشات من الأبرياء ، وهدموا بعض الأسواق والأحياء ، ومنها دار المجلس النيابى بدمشق سنة ١٩٤٥ . دون أن يفت ذلك فى عضد السوريين حتى تم لهم الاستقلال ، وتم الجملاء عن سوريا فى ١٧ نيسان ابريل ١٩٤٦ ، كما تم الجملاء عن لبنان فى نفس الوقت ، وكانت سوريا بذلك أول جزء من الوطن العربى المحتل يتحرر (١) .

وليس معنى هذا الاستقلال أن سوريا نالت كل ما تمت ، وأنهما أدركت الفاية من نضال مجاهديها وفكريها وزعمائها على سواء ، فقد كان لم يزل كثير من المشكلات القومية والعربية تحتض طريقها ، وتسمى جامعة فى سبيل تحقيقه ، أو الوصول به الى غاية مبتغاة . فهناك مثلاً مشكلة فلسطين تلك التى شغلت أذهان العرب حيناً من الدهر ، وكانت عتبة كاداء ، فى سبيل الشمو بالحرية التامة والاستقلال الكامل .

(١) المرجع السابق ص ٢٨٩-٢٩٣ ، وانظر - الادب العربى الحديث ص ٣٢٧

يقول المحاسنى معبرا عن هذا الشموخ القوي : * ولمل
لنكبة فلسطين والبلاد العربية التي تثور على الطغيان ، وتأهب
لاسترداد الحرية والاستقلال ، كانت أشد النكبات التي ابتليت بها
الشموب ، فكيف تخلص من براثن الاستعمار ، وقد مهد للصهيونية
الحاقدة ، أن تنشب أظفارها في الأرض المقدس حولها ، وتكون في
مستقبل العرب أداة تنقيص وتفكيك * (١)

كما كانت هذه المشكلة مادة خصبة لادب قومي خارجي^(٢) فصل
أدب هذه المرحلة بكل ألوانه ، بالترجمة عن الخطوب التي يمانها
العرب من جراء هذه الفادحة .

وانطلق شعراء سوريا وغيرها يسيرون هذه المحنة القاسية ،
ويحثون على النضال من أجل تحرير هذه البقعة المباركة ، ويحذرون
من الخلف والانتقام أو الوني والفتور .

وذلك كما كان من الشاعر السوري - خير الدين الزركلي -
الذي صور هذه المشاعر في قصيدة له طويلة منها قوله :

فيم الوني وديار الشام تقسم أين اليهود التي لم ترع والحرم ؟
هل صح ما قيل من عهد ومن عدة وقد رأيت حقوق العرب تهتم ؟
ما بال بغداد لم تنهس بها شفة وما بيروت لم يخفق بها علم ؟
ويلمها نكبات كلها ظلم وقد تنير صراط السالك الظلم ؟
نسام خسفا ونقصى عن محجتنا ويوثق الفم حتى تخفت الكلم

(١) مقدمة كتابه - شاعر فلسطين - ابراهيم طوقان - ص ٥ .

(٢) انظر : القومية والأدب العربي الحديث . محمد زغلول سلام .

نسجوعلى الضيم والاطماع جائعة ونكظم الفيظ والأكباد تضطرم
يا وعد "ولسن كم أضللت من فتنة لانت أشام ماسيست بما لامم
خد عتنا فانخدعنا فاستخف بنا شمس عن الحق فى آذانهم صم
لئن تولوا رعيناحسن ودهم وصين منا ومنهم فى المروق دم
وان تأبوا فان السيف ينسفنا والسيف يبلغ مالا يبلغ القلم^(١) الخ

ومثل الزركلى كثير من شعراء سوريا المعاصرين ، الذين صوروا
فداحة هذه النكبة ، وقاوموا الاحتلال فى شعرهم الحماسى المتوقد منهم
- عبد الوهاب أدهم ، بدوى الجبل ، عمرا بوريشة ، عريحي ، محمد
الشريف ، أمجد الطرابلسى وغيرهم^(٢) .

وهناك أمل الوحدة العربية ، ذلك الأمل الحلو الذى ظمسل
يراود أفكار العرب عموما ، والشاميين على وجه الخصوص ، ومن وحى
هذا الهدف ، ظلت سوريا كجزء من الوطن العربى ، تعمل للوحدة
وتسعى لتحقيقها ، مجدة فى تمضيد الأجزاء العربية الأخرى فى معركة
حريتها واستقلالها . ولم يكن ذلك الأمل ضرا من الآمال الخادعة
أو نوعا من أحلام اليقظة الاثيرة التى تراود المرء لحظة من اللحظات
ينعم فيها بما يزينه له خياله ، أو ترسمه له خاطرته ، ثم لا يلبث
أن يخفت أو يزول ، وانما كان ذلك حقيقة مجسمة وعملا جادا . فما أن
جلا الفرنسيون عن البلاد ، حتى تقرر اجراء الانتخابات ، لاختيار

(١) ديوان الزركلى ص ١٥ نقلا عن الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين
للدكتور كامل السوافيرى ص ٢٥٢ وما بعدها ، وقد نظمت القصيدة فى
دمشق بتاريخ ١٩١٩/١٠/٢١ اثر ظهور اطماع الحلفاء فى تقسيم الشام .
(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٢ - ٢٥٩ .

أعضاء المجلس النيابي ، واختيار رئيس للجمهورية ، وقد وقع اختيار
مثلو الشعب آنذاك على السيد / شكري القوتلي — ليكون رئيسا
للجمهورية •

ولقد صور القوتلي مشاعره القومية وأمله في الوحدة العربية في
بيان طويل منه قوله : (ان بلاد الشام التي كانت مهدا للفكرة
العربية في عهدها الزاهر ، وحملت رسالة الحضارة بين أولى الدول
العربية الى الآفاق البعيدة ، ورفعت راية المروية على ضفاف اللوار
ورواي الأندلس وأسوار الصين ، تعلن اليوم أنها تؤمن بالمروية في
أوسع معانيها ، وتساهم بايمان ، بأداء رسالة المروية للحضارة
الإنسانية ، وهي رسالة سامية قائمة على الحق المطلق ، وأنها لن تقبل
(١)
أن يرفع فوق هذه البلاد سوى علم واحد ، هو علم الوحدة العربية •

وقد استمر الحكم الوطني في سوريا بعد الجلاء ، حتى وقع انقلاب
عسكري في آذار — مارس سنة ١٩٤٩ ، وتوالت بعده الانقلابات
المسكينة لمدة خمس سنوات ، عادت بعدها سورية مرة أخرى الى
حياتها السياسية الطبيعية ، حتى اذا تم جلاء الانجليز عن مصر
اثر ثورتها الرائدة المجيدة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت الانظار كلها
تترقب حدثا تاريخيا كبيرا هو الوحدة بين مصر وسوريا ، في ظل الدعوة
الى القومية العربية ، التي حملت سوريا لواءها طويلا ، والتي حملتها
مصر كذلك ، ودعا اليها زعيمها الراحل — جمال عبدالناصر — قائد
الثورة المصرية العربية ، وذلك لجمع شتات الامة العربية في وحدة

(١) نقلا عن الأدب العربي الحديث ص ٣٢٩ لأنور الجندی •

شاملة ، وقد تمت هذه الوحدة بين القطرين الشقيقين في فبراير ١٩٥٨
وسميت مصر وسوريا - الجمهورية العربية المتحدة - ونس في ميشاق
الوحدة على أن تنقسم الجمهورية الى اقليين هما : الاقليم الجنوبي
- مصر - والاقليم الشمالي - سوريا - كما هو معروف .

وبهنا هنا أن نبرز موقف المحاسنى من هذه الوحدة ، التى
كانت محط الآمال بالنسبة لكل عربى حريى على حرية بلاده واستقلال
وطنه .

لقد صور مشاعره القومية الحارة ، وعبر عن غبطته بالوحدة
فى رسالة بحث بها الى واحد من أصدقائه فى القاهرة ، الذى
نقل عنه قوله (١) : ولا يفوتنى أن أنه بأخر رسائل الدكتور
المحاسنى الى فى السادس والعشرين من فبراير (شباط) قال فيها
الدكتور - حفظه الله -

" أزجى اليك تهنئاتي بالوحدة العربية التى طالما كانت أمل
العرب ، سائلا الله أن يجعل عهدها على بلدينا الحبيبين عهداً
ذهبياً ، وقد كنا أنا وأنت من مؤسسى هذه الوحدة باتصالنا القديم
الادبى ، وكما كان الأدب أساساً للسياسة ، وهل عاشت المثل العربية
الا فى أدب العرب العظيم .. "

كما دمج قصيدة رائعة فى هذه المناسبة القومية ، التى فجرت
ينابيع شاعريته عنوانها - الفرحة الكبرى - (٢) وأهداها لزعمى المروسة

(١) فصول من الثقافة المعاصرة للدكتور خفاجى ص ٨٤ وما بعدها . ألف هذا
الكتاب فى حياة الدكتور زكى المحاسنى ، ونحتفظ هنا بحرفية ، ماورد فى

الرسالة .
(٢) المرجع السابق ص ٧٨ . وهذا المطلع على نعت قصيد تأين زيدون التى
مطلعمها : أضحى التناثى بديلا من تدانينا
انظر ابن زيدون للدكتور حسن جاد ، وهذا يدل على اعجاب المحاسنى بشعر
الاقدمين وتأثيره ومعارضته له .

آنذاك جمال عبدالناصر وشكرى القوتلى - منها قوله :

أضحى التدانى بديلا من تنائينا وأذن الله أن يحيا تلاقينا
خل المداة تشق الصدر لاطمة فما أذيق الهلا الا أعادينا
فى مصر والشام أصوات مدوية غنى بها الدهر تكبيرا وتأذينا
فأشرب على النيل كأس النيل فى بردى نهران للخلد فى دنيا أمانينا
رمزان للمجد والمرباء عاكسة عليهما بأغانينا تخفيننا
عزى لمصر قد ماجت كواكبها تظل من أفقها الوضاح تهنيننا
مر الزمان بويلات تضعفنا وضغ الدم بالنكبا أراضينا
فأذكر على الفرحة لكبرى مواجدا لما طحنا العدى والنار تشويننا
يوما بيوم كسبنا الحرب جاهدة وقد نسجنا الليالى من عوادينا
ذكرى يجوز بها التاريخ عالمنا وهى التى فوق هام الدهر تبقينا
كهف دموعك بالافراح راقصة ومطلع الفجر بالآمال يفرينا
لو القلوب من الاضلاع تطلقها طارت وراحت الى مصر تنادينا
يانابش التراب حثث أعظم الشهدا لملها انبعثت تهفو لناديننا
أحسن أرواحها رفت محومة لتشهد النصر فى المليا يواتينا
هذى دمشق مشى عزاء وبخيرة تجرا ذيلها تيهها وتزيننا
تهدى الى ناصر لله مهجتها من بعد أن ملأ الدنيا تحاسينا
شكرى أبا العرب يا مضمون خاطرها يفنى بك الشمر حين الشمر يفنينا
هذا جمال رئيس العرب قاطمة مقرر النصر نفديه ويفديننا

ثم ختمها بقوله :

تحيا الشام وتحيا مصر واحدة فى أمة تملأ الدنيا رياحيننا
هذا ما عبر به المحاسنى عن هذا الحادث العظيم فى تاريخ وطنه السياسى
والقومى ، الذى قصدت تصويره فى هذه المجالة ، ولم يكن المحاسنى

وحده بدعا في هذا الموقف التاريخي ، الذي سجد به أبناء القطر —
الشقيين أيها سمادة ، كما سجد به دعا القومية في شتى بقاع الوطن
الحبيب . وذلك كما كان من أكرم الحوراني الذي أرسل الى الكاتب
التومي السوري — ساطح الحصري — يوم اعلان الوحدة بين مصر وسوريا
برقية يقول فيها — " في فجر هذا اليوم الذي يتحقق فيه الأمل
بتحقيق وحدة القطرين المربيين ، تتطلع الى الاحرار الملهمين ،
الذين غدوا نفوس هذا الجيل بشعور القومية ، ليخبي فيهم روح الوطنية
التي حملت هذا المشعل دون وهن فلكم شكر الوطن " (١)

لكن هذه التجربة الحبيبة الى نفس كل عربي واجهت مقاومة
من أصحاب المصالح ، الذين ترتبط مصالحهم ومطامعهم ومنافعهم
بالنزعة الاقليمية ، كما واجهت حربا من الاستعمار ، الذي ترتبط
مصالحه هو الآخر في تقوية الاتجاه الاقليمي ، واستمرار التباعد والتنازع
بين الدول المربية ، وكان لهذا كله ولغيره من الاحداث ، أن انتكست
أول تجربة للوحدة وحدث ما وصفه بعض الكتاب ، بأنه خيانة في حق
القومية والوطنية والوحدة ، وذلك في ٢٨ أيلول / سبتمبر سنة ١٩٦١ ،
حيث انفصل القطر السوري من الوحدة ، التي ارتضاها ودعا اليها كل
أبنائه المخلصين البارين بوطنهم وبأمتهم المربية .

وقد أنبرى دعاة القومية يفتندون مزاعم دعاة الانفصال من الساسة
الرجعيين ، ونشرت جريدة الحوادث البيروتية غداة الانفصال رأياً بعض
دعاة الوحدة ، ممن هزهم هذا الانفصال الذي لا مسوغ له ، سوى

(١) ساطح الحصري ص ١١٨ .

ما ذكرناه سابقا ، من ارتباطه بمصالح ذوي المصالح الشخصية والاغراض
الحزبية البغيضة ، التي نهذت المصالح القومية من ورائها ظهرها ،
وتعن ساطعا الحصرى الذى كتب يقول - : " ايمانى بمستقبل الامة
العربية الزاهر ووحدتها المضمومة ، لم يتزلزل على الرغم من النكسة
الالهية التى منيت بها أخيرا ... وأنا منطلق البيان الذى أصدره
بعض دعاة الانفصالية تبريرا لموقفهم فيشبه كل الشبه منطق من يقول :
هذا الوليد لا يزال غير سليم من الميوب ، فلنقتله الآن ، لكى نحياه
بالشكل الذى نريده فى مستقبل الايام (١) "

كما يفند الاتهامات التى وجهت لتجربة الوحدة بمثل قوله مخاطبا
دعاة الانفصال " لقد كنتم تنتظرون من الوحدة أن تأتى بالمجزات
كأنها تملك عصا سحرية تستطيع أن تغير كل الأحوال وتصلح كل الامور
فى جملة واحدة ، فتحقق ما عجزت عن تحقيقه أرقى بلاد العالم ،
وكانها المدينة الفاضلة ، التى يسود فى أرجائها المدل المطلق
والخير المميم (٢) .

لكننا نرى - كما يؤكد منطق الاحداث - ، أن هذا الانفصال
الشكلى ، الذى هيج خواطر الكتاب القوميين على النحو الذى رأينا ،
لم يؤثر مطلقا على جوهر الوحدة وهدفها الاسمى ، إذ لم تلبث الآلام
والمحن ، التى تعرض لها الوطن العربى فى هذه الفترة الاخيرة
من فترات كفافنا القومى من أجل تحرير فلسطين والنهوض بالمروسة

(١) ساطع الحصرى ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) نفس المرجع ص ١٢١ .

أن وجدت بين القطرين الشقيين مرة أخرى في حروب التحرير مسن
ريقة الاستعمار ، وأطماع الصهيونية ، وقد تمثل ذلك بصورة جديدة
في حرب يونيو ١٩٦٧ ، التي نكب فيها الحظ العرب ، وألتم بهم
النكسة المشهورة القريبة التاريخ ، كما تمثل بصورة أروع وأعظم ، في
حرب الماشر من رمضان ١٣٩٣ هـ - السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م -
تلك الحرب المظفرة ، التي خاضتها مصر بالتعاون مع شقيقها سوريا ،
وآزرتها الأمة العربية بأسرها ، حيث جمعتها المحنة ، ووحدتها
الشدة ، وقد أسفرت هذه الحرب المظفرة عن نتائج قوية في مصلحة
القضية العربية كلها بوجه عام وفي حل قضية فلسطين بوجه خاص .

على أنه ينبغي أن نقرر هنا ، أن الوحدة بين مصر وسوريا ،
بل بين الشعوب العربية قاطبة ضرورة تلبيها الظروف السياسية العالمية
وميلها كذلك وجود إسرائيل في قلب العالم العربي ، وإذا كانت
أمريكا قد استعالت بفضل اتحاد ولاياتها إلى دولة عظمى ، وروسيا
كذلك صارت بفضل اتحاد جمهورياتها دولة كبرى ، وإذا كان مفكرو
أوروبا يدعون إلى ولايات أوربية ، فإن واجب العرب جميعا ، أن
يؤيدوا قيام دولة عربية كبرى تمتد من الخليج الفارسي إلى المحيط
الاطلسي ، لأن ذلك ما يدعو إليه الاسلام ، وما تدعو إليه مقاومة
الغزو الصهيوني لبلادنا ، وما يدعو إليه كذلك التفكير في مستقبل
الشعوب العربية ، والرغبة في تسلم العرب زمام الحضارة والثقافة الدولر
الجديد (١) .

(١) فصول من الثقافة المعاصرة ص ٦١ .

هذا تصوير وجيز للحالة السياسية والقومية ، التي عاشها الدكتور زكي المحاسنى فى ظلها يرقب أحداثها ويتأثر بها ، ويتفاعل معها . عطاء وأخذاً ، بيد أنه لم ينج بنفسه فى ممتدك السياسة الحزبية البغيضة المتعصبة التى تقلدت مناصب الزعامة فى سوريا ، لأنه يدرك تماماً أن مصلحة وطنه الكبرى فوق كل اعتبار من الاعتبارات التى تحرك مطامع الساسة ، أو تشكل فكرهم السياسى .

ثانياً الحياة الفكرية والثقافية *

منيت البلدان العربية فى مجموعها بسنوات طويلة وخمول مقيم ، رأنا عليها طوال فترة النفوذ التركى العثمانى ، الذى قضى على كل أثر لنمو الفكر ونشاط الثقافة فيها ، حيث فرضت تركيا نفوذها على هذه البلدان واحداً تلو الآخر ، منذ أن غزا السلطان سليم القاهرة بجحافل سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م - ، ودحر المماليك فى موقعة " منج دابق " ، وسط سيطرته على مصر ، ثم واصل فتوحاته فى سائر البلاد العربية ، حتى انتظم عقد دولته - مصر والشام والمراق والجزيرة العربية ودول شمال أفريقيا - ثلاثة قرون كاملة - وكانت سياسة تلك الامبراطورية العثمانية ، التى أشرت الى طابعها فى البحث السابق ، ذات أثر قوى فى اضماع الفكر والثقافة فى الوطن العربى كله .

وأية ذلك : أن الاتراك العثمانيين فرضوا الفهم التركى على البلاد ، واتخذوها اللسان الرسمى للحكومة فى المكاتبات والمراسلات وفى دور التعليم ، كما نهب السلطان سليم نقاش مصر ودخاثرها وسلب

كل ما كانت تتحلى به من علماء ومفكرين وأدباء وصناع ، ودفع بهم الى تركيا ، ومن ثم أقفرت دور العلم والتعليم وأصدت أبوابها ، ولم يبق سوى الأزهر مصدرا للاشعاع الثقافى ، حيث وقف حارسا على لغسة القرآن وتراث العرب . (١)

ولقد كان تترك الدواوين وجعل اللغة التركية لغة رسمية للحكومة والتعليم من المواصل القوية ، التى أدت الى انهيار اللغة العربية ، فدخلتها الالفاظ التركية والحامية ، وانحطت أساليب الكتابة ونصت بالسجع المتكلف والبديع الفث والصنعة المقوتة والمبارات . . . البتذلة ، والقوى أسلوب الشعر وسمح نسجه ، وركت عبارته وضمفت أحياته ، وشاهست صورته ، ومسخت رسومه ، وتفتت معانيه ، ومعدت عن الابتكار والترجمة عن قضايا العصر ومشكلاته وتجاريه ، وانحطت قيمة الشاعر ومكانته وغدا يطلق اسم (الشاعر) على من ينشد قصص أبى زيد الهلالي والزنادى خليفة والظاهر بيبرس على سامح الجماهير (٢)

ونستطيع أن نقول بوجه عام - وكما سجله التاريخ : ان مصر قد عثمت فى عهد العثمانيين ، ولم تستطع أن تخرج فى العلم والأدب والفكر والتصنيف ، أمثال من كانت تفاخر اخوتها به - على عهد الماليك كالبوصيرى وابن نباته المصرى ، والقلقشندي والنويرى ، وابن منظور وابن هشام النحوى وابن خلكان والمقريزى وغيرهم ، ممن تركوا آثارا خالدة وصنفت جامعة ، وموسوعات شاملة ، فى العلم والأدب وشتى صنوف الثقافة .

(٢٤١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب محاضرات عن الحركة الادبية فى حلب لسامى الكيالى ، وانظر الأدب العربى المعاصر فى مصر للدكتور شوقي ضيف وفى الأدب الحديث لعمر الدسوقي .

كما كان الأتراك أنفسهم على مثل هذه الحالة من العقم والجهل والتخلف ، ولا أدل على ذلك من أن - محمد جلي - سفير الدولة العثمانية بباريس ، حينما أراد إدخال المطبعة لأول مرة في تركيا في القرن الثامن عشر ، وجد من المسؤولين وجمهور الشعب معارضة وازورارا ، واضطر أن يستصدر فتوى شرعية ، بطبع الكتب غير الدينية ، وقد أفتى العلماء بعد ذلك حين تجلت فائدة الطباعة بطبع الكتب الدينية ، كما كان الاطلاع على الأفكار الغربية ومقابلة آثارهم الفكرية والثقافية معدوما لاتكاد تحسه ، أو تلمس له أثرا في حياتهم (١) .

وعلى أثر ذلك كان لابد للأمة العربية كلها أن تهيب وتستيقظ بعد رقادها الطويل ، وأن تنهض للصير قدما في طريق الحياة ومعالم الفكر ، وكان لغير واحد من المفكرين العرب صحبات مدوية انبعثت من الأعماق تهز المشاعر الخافية ، وتوقظ النفوس الوسنانة في كل بلد عربي ، وتهيب بأبناء الصوبة أن يشمروا عن سواعد الجد ، ليستعيدوا مجد ماضيهم المريق في العلم والمعرفة ، ويسيروا في موكب الحضارة الهية المتجددة .

وقد انبعثت هذه الصحبات في منتصف القرن التاسع عشر حيث بدأت طلائع النهضة ، ودبت في العرب روح الوعي واليقظة والنظر إلى الامام ، وهي روح جديدة تجاوزت بها السامع في مصر والبلدان العربية القريبة والبعيدة على سوا .

(١) انظر: الأدب المعاصر في العالم العربي د . سليمان الاغاني .

وقد ظهر ابان هذه اليقظة مفكرون ومصلحون المهم تخلف العرب
فى شعورهم ووطنهم ، بعد أن وقفوا على أسبابه ومظاهره ، فطالبوا
بالاصلاح الدينى والاجتماعى والفكرى ، وجهروا بمقت البدع التى
تسللت الى تعاليم الدين ، وسيطرت على مشاعر العامة الذين انتابوا
للخرافات والالوهام ، التى كان يجرها الرجعيون والمتزمتون ، ارساء
لنفوذ الولاة والحكام العثمانيين ، وظل ذلك مشغيا فيهم وذاعسا
بينهم ، حتى كانت غزوة •

نابليون الشهيرة لمصر ، ثم هزيمته وتراجع جنوده ، والتسبب
كانت سببا من أسباب الاتصال بالغرب والوقوف على وسائل حضارتهم
واسباب نهضته وتقدمه ، فهب اجرار العرب وعلمائهم المصلحون
والمفكرون ، الى الدعوة لبناء نهضة جديدة ، تحاكى نهضة الغرب ،
قوامها الاقتباس منها والنقل عنها ، واتباع ما يلائم حياتنا وعاداتنا ،
ولم يجدوا أفضل من نشر الوعى والتعليم وسيلة للبناء والاصلاح (١) .

وقد ترددت فى أرجاء البلاد الدعوة الى احياء التراث العربى
القديم ، والامجاد التاريخية والبطولية ، مع القيام بمهمة الترجمة
والنقل عن الثقافة الغربية ، على اختلاف ألوانها ، وأخذت بواكير
التأليف تظهر فى الحياة الفكرية والمؤسسات العلمية والفنية • وتوالى
ارسال البعثات العلمية الى أوروبا ، بعد أن كان الايثار فى مصر

(١) اختلف المؤرخون فى تقدير قيمة هذه الحملة وآثارها على مصر ونهضتها
الحديثة ، فمنهم من يرى أن اليقظة فى مصر من صنع هذه الحملة ،
من رأى خلاف ذلك ، ولكننا نرى أنها كانت ذات أثر قوى فى نهضة
المصريين وتنبيههم الى عوامل الرقى والنهضة •

البلاد المصرية مقصورا على الآستانة ، لكن وفود مصر العلمية الى بلاد الغرب كانت قد سبقت الى التزود من ثقافته ، والدراسة فسي معاهدة وجامعاته ، وكان للرغيل الأول من العائدين أثر بعيد في تطور الوعي القومي والاصلاح الفكري والاجتماعي .

وكان من أبرز السابقين العائدين الى مصر المتطلعة الى نهضة جديدة ، رفاعه رافع الطهطاوى ، الذى عمل بعد عودته في ميدان التعليم والتأليف واعداد المناهج للمدارس ، والمشاركة في الدعوة الى حرية البلاد واستقلالها والنهوض بالبيت والمجتمع ، كما دعا الى تعليم المرأة المصرية واعدادها لحياة نافعة مفيدة (١)

كما أتيح للبنان كذلك أن يتصل بالغرب في وقت مبكر ، فلتقد وفدت اليه الارسلات الثقافية والتبشيرية ، ساعية الى مدنه وقسراه ، لنشر فكرها وثقافتها ، ومشاركتها رواد الفكر والاصلاح ، فيما كانوا يسبيله من العمل في مجال - التعليم والصحافة وخدمة اللغة العربية وتحرير المرأة من الخمول والجهل (٢) .

وفدت البلاد المصرية كلها تشطع بأعجاب الى مثل هذه اليقظة الفكرية الجديدة ، التي خلل لواءها كثير من دعاة الاصلاح والتجديد في أخريات القرن التاسع عشر . كما ترددت آراء الأحرار المفكرين والمصلحين العظام في أنحاء الوطن العربي كله ، وذلك على النحو

(١) انظر آراءه في الترييق والاجتماع في كتاب رفاعه رافع الطهطاوى للدكتور جمال الدين الشيال .

(٢) انظر : الرمزية والأدب العربي الحديث لانتون غطاس كرم ، ص ١١٤ .

الذي كان من السيد / جمال الدين الافغانى ، الذي كان لثورته الفكرية
وآرائه الاصلاحية تأثير كبير ، فى المفكرين والناشرين على أسباب الفساد
والخدوان .

كما برز للمال العربى والاسلامى من حلقة الافغانى زميليه
وصديقه الاستاذ الامام / محمد عبده ، الذى ملأ دنيا مصر والعروسة
بحرية فكره وانطلاقه الواعى فى الدين والسياسة والفكر والثقافة ، وكانت
دعوته فى الاصلاح تتجاوب فى آفاق الشرق والغرب بما كانت تديمه
وتردده الصحافة ، وتتلقاه الحكومات بالمنية والاهتمام .

وقد عاشت مصر - على عهده - ثمرف لدوره فى الانبعاث القومى
وتقدر دعوته فى الاصلاح الدينى والفكرى والاجتماعى ، وتمعظم اجتهاده
الذى حارب ذوو الافكار المتزمتة والأفاق المظلمة (١) .

ولقد كان من تلاميذ الامام وصحبه من أبناء العروبة ، من
تسلموا زمام النهضة الحديثة ، وأقاموا بناءها على كاه طويل ، ومنهم
رواد الفكر الحديث الذين تفرقوا فى البلاد ، وتأهقوا على الجهاد للكمّة
المصرية وتحريرها من نفوذ الاستعمار ، وأسباب الاستبداد ومظاهر
التخلف الفكرى والثقافى والاجتماعى .

وفى عداد هؤلاء الرواد من كان له أثر فى الحياة الفكرية
والثقافية فى سوريا فى النصف الاول من هذا القرن - الشيخ " طاهر
الجزائرى " ، الذى رافق الامام محمد عبده ، وسأيره فى اكثر آرائه

(١) انظر - تاريخ الاستاذ الامام لمحمد رشيد رضا فى ثلاثة أجزاء
وانظر : محمد عبده للاستاذ عباس المقاد .

وخطواته ، فأنشأ في دمشق حلقة فكرية واصلاحية ، تبث الوعي وتحرر الافكار والنفوس ، ومن هذه الحلقة تخرج أكثر المكافحين في الوطنية والتعليم والصحافة بالشام ، في ذلك العهد ، الذي ارتفعت فيه مشاهل الفكر ، لتضيء آفاق الصبوة ، وتهدي المتخبطين في الظلام الى نور العلم والايمان (١) .

ومن أدركوا مجلس الامام - محمد عبده - وتأثروا بحركاته الاصلاحية والفكرية في بلاد الشام رائد الصبوة في لبنان الشيخ مصطفى الشلاييني ، وعلاقا الشام محمد كرد علي ، وعبد القادر المغربي اللذان اتصلا بمصر في أواخر القرن الماضي ، هربا من الضغط والضييق ، والتصا الحرية والثقافة بين أعلامها وبنات نهضتها المماصرة ، كما شاركا في التأليف والصحافة ، ثم عاد كل منهما الى دمشق والى حلقة الشيخ (طاهر الجزائري) مطالبها بالتجديد والاصلاح .

وفي مدرسة الاستاذ الامام كذلك تخرج عالمان وفكران أديبان هما السيد / محمد رشيد رضا ، الذي هاجر الى مصر في نهاية سنية ١٢٩٧ م . ، والتقى فيها بالاستاذ الامام محمد عبده ، الذي جمعت به صلة روحية قوية ، وتشرب منه مبادئ وآراءه ، وعنى بنشرها واداعتها عنه ، حتى عده بعضهم فاضلهم الامام على الناس ، وقد صور رشيد نفسه ، أثر الاستاذ الامام المصطفى وفضله الكبير عليه بقوله : " والفضل في هذا كله لنصير العلم والدين ، وحكيم الاسلام والسلمين ، الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده ، مفتي الديار المصرية ، الذي همس

(١) د . زكي المحاسني في كتابه عن - أحمد أمين ص ١٩ .

مرشدنا الاول الى هذا المشرب ، ولا تزال نستقى من ينبوعه ، ونقتبس
انوار القرآن من مجالس تفسيره . (١) .

وثانيهما / شكيب أرسلان ، وهو واحد من أحرار العرب ومفكرهم
الذين اقتبسوا من أفكار الامام وأفادوا من آرائه ، وشاركوا بأقلامهم
وكفاحهم في بناء النهضة العربية الحديثة .

وغير هؤلاء كثير ممن تخرج في هذه المدرسة الفكرية الاصلاحية
الرائدة (٢) ، التي أسسها الامام محمد عبده في مصر ، وشاركه
في بنائها وتاصيل عددها كثير من تلاميذه الاحرار النابهين في مصر
وفي غير مصر من بناء النهضة العربية الحديثة ، فيهم : المراقسي
والفلسطيني واللبناني والأردني والسوري والمصري .

واحقاقا للحق نقول : ان مصر كانت حفية بهؤلاء جميعا ، تلقتهم
بالباشة والموادة وفتحت لهم قلبها المريض الواسع ، وقد عاشوا فيها
وتلقوا أفكارها وثقفوا بثقافتها ثم انطلقوا منفردين في آفاق الوطن
المريض كله ، يهتفون بالحرية ، وينادون بنهضة الفكر وتحرير
الثقافة . يقول الاستاذ الكاتب أنور الجندی يصد هذه الحقيقة
التاريخية : " وقد استقبلت القاهرة جاليات كبيرة من الشاميين ،
كان في مقدمتها عدد كبير من أحوال الفكر الذين ترهدهم ظفيمان
عبد الحميد ، فوجدوا في القاهرة مجالا ومثقفا ، وكانت هذه الهجرة
بعمدة الاثر في عالم الفكر والرأي ، ان كان الشاميون مؤثرين في الصحافة

(١) رشيد رضا ص ١٨ وما بعدها للدكتور أحمد الشرباصي . الكتاب الثاني .
(٢) انظر : الاسلام والتجديد في مصر . تشارلز آرمس .
وزعم الاصلاح في مصر الحديث لاحد امين .

المصرية ، وكان لهذا أثره فى امتزاج الافكار والاراء ، وتلاقى
وجهات النظر حول فكرة المروية ، التى كانت مصر محجوبة عنها تحت
ضغط الاستعمار البريطانى ، الذى حاول الفصل بينها وبين المنطقة
المصرية وايجاد عزلة مصطنعة * (١) .

ولم يقف تأثير مصر فى بلاد الشام وغيرها من البلدان العربية
فى اواخر القرن الماضى واولئل هذا القرن ، على ما بدا فى مدرسة
الاستاذ الامام وحده على هذا النحو الذى اسلفت .

وانما كان تأثيرها قويا ومتعدد المنازع وذلك انه قد اتى
لمصر ان يتزود كثير من أبنائها من فكر الغرب وثقافته ، على أثر
دراسهم فى مفاهد أوربا وجامعاتها ، كما وقفوا على روائع الفكر
الغربى عن طريق الترجمة التى نشطت على أيدي كثير من المصريين ،
كذلك اتجهوا الى بعث التراث العربى القديم فى أزهى عصوره وأرقى
صوره ، وتكون عندهم من هذا وذاك ، فكر جديد ويقظة وثابة ووعى
خى ، وراحوا يوجهون الفكر والثقافة وجهة جديدة ومفيدة . وبرز من أعلام
النهضة وروادها كثير من المفكرين والكتاب الاحرار والمقاد وهيكل
وطه حسين والمازنى وشكرى وأحمد أمين والزيات وعزام وأمين الخولى
والمنفلوطى وعبدالمعز البشرى وعبدالمعز جاويش ومنصور فهمى وعبدالحمد
بدوى وتوفيق الحكيم وغيرهم ممن تقلدوا أئمة الفكر وملكوا زمام الثقافة
فى مصر (٢) .

(١) الادب العربى الحديث لانور الجندى .

(٢) انظر : فصول من الثقافة المعاصرة .

ولقد امتد هذا الاثر الثقافي الى بلاد الشام ، وتتلذذ على هذه النهضة الجديدة كثير من أبناءه وفكره وأدباءه ، وقد صور هذا الاثر كاتب سوري بقوله : (انتفع الشام وهو القطر الشقيق لمصر المحبوبة بالنهضة المصرية أكثر من عامة الاقطار العربية ، للجوار وأواصر القربى ، وكثرة التشابه بينهما ، ولأن أقدارهما في عهد السدول الاسلامية كانت واحدة ، وحياتهما الاجتماعية متجانسة ، وهكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الاموية فالباسية فالطولونية فالفاطمية فالايوبية ، فدولة الاتراك المماليك فدولة الجراكمة ، فدولة الترك المثمانية ، وكانت مصر مهبط حضارة في معظم أزمانها ، كما كانت في المقود الاخيرة من حياتها ملجأ ومعتصم للحرار ، ومبوءة ممتازة للعالم الاسلامي ، فأخذ عنها الاقطار والأصاار (١) .

ومن هذا المنطلق - كانت الثقافة المصرية في صدر هذا القرن تجوب ساحات الشام وتتردد في آفاقها لاسيما سوريا - مهد المحاسنى - الذى وصف هذا التهار الفكرى والثقافى الوافدين مصر فى هذه الحقبة بقوله : " لما كنا طلابا نتلقى دراستنا الجامعية فى دمشق تشوقنا الى علم جديد من اعلام الفكر الحديث ، يتردد اسمه وذكره فى مصر والبالاه المصرية بما كان ينشر ويندح من مقالات فكرية وتقنية هدفها التحرر والاصلاح " .

كما يقول : " وكان من دأب صحافتنا المصرية السورية ، أن تنقل للقراء والشباب المثقف والمتعلم صور هذه الحركات - حركات التطوير والتجديد فى مصر - وحدى ما تضمنت من أفكار وآراء ، فكان اسم

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ٦٣ .

الدكتور طه حسين ، يدوى فى السامع والمحافل ، لما أثارته بحوثه
الثورية فى الأدب وفى الحياة السياسية والقومية ، ولم تحض الاعــوام
طوالا حتى طلع اسم أحمد أمين على العالم العربى والاسلامى بجديد
مرتقب فى دراسة الحياة العقلية ... الخ (١)

ولا نزع أن التأثير الفكرى والثقافى الذى أحدثته مصر فى
سوريا وغيرها من إقليم الشام • قد وقف عند هذا الحد ، فهناك مصدر
شعاعى ثقافى قد انبثق فى مصر • وعم نوره سوريا وغيرها من البلدان
العربية والاسلامية على السواء • وذلك هو الازهر الشريف ،
الذى وفد عليه الكثير من طلاب العلم ينهلون من ثقافته ، ويتفدون
بعلومه ومعارفه • ثم يعودون الى بلادهم بعد الظفر باجازاتهم
العلمية ، التى تؤهلهم للاضطلاع بمهامهم العلمية والفكرية والثقافية
فى تلك البلاد • (٢)

كذلك الجامعة المصرية • التى أمها ويؤمها كثير من طلاب -
وطالبات العلم والثقافة من سوريا وغيرها • وقد تتلمذوا فيها على
كثير من اقطاب العلم • وحاملى مشعل الفكر والثقافة • ولقد نبه
المحاسنى نفسه على هذا الاثر القوى فى افتتاحيات بعض كتبه •
كما أنه وفد الى مصر دارسا فى جامعة القاهرة • حتى ظفر منها
بأرقى الاجازات الجامعية (٣) • ولقد كان لجامعات مصر ومباهدها
ومدارسها • أثر فعال فى تنشيط الفكر وتنمية الثقافة لدى كثير من أمها •

(١) أحمد أمين ص ٨ وما بعدها •

(٢) انظر: الازهر تاريخه وتطوره والازهر وأثره فى النهضة الادبية -
الحديث د • محمد كامل القسى •

(٣) انظر كتابه عن عبد الوهاب عزام وأحمد أمين وكانت تسمى الجامعة
المصرية - آنذاك •

وانذ كتبت قد أومات الى هذا الاثر الفكرى الذى أحدثته مصر فى جيرانها
وأبناء أمتها على هذا النحو ، فليس معنى ذلك أن سوريا مثلاً
قد وقفت عاجزة كلية ازاء هذا الوعى الثقافى ، الذى ظفرت به شقيقتها
مصر على هذا المستوى الذى صورته ، وانما كان للشام كذلك جهود
الرائدة فى تنشيط حركات الفكر والثقافة ، والدعوة الى التحرر الفكرى
والايمان باللغة العربية ، والدعوة الى احياء أجداد العرب القديمة
كما يمزى اليه كذلك حمله لواء القومية العربية ومقظته الفكرية ازاء
حركات المشائين وشمويتهم وتنصيبهم كما ذكرت سابقاً .

وقد كان للاحداث الدامية التى نجمت عن الاضطهاد التركى
المشائى فى بلاد الشام أثر قوى فى تفجير النهضة الفكرية والثقافية
والسياسية والاجتماعية ، حيث هاجر الى مصر والى غيرها كثير من
الشاميين وكان للسوريين منهم على وجه أخص منذ الربع الاخير من
القرن الماضى فضل السبق فى انشاء الصحف المصرية والاسهام فى
تأسيس الكثير منها .

وذلك كما كان من الكاتب الدمشقى الحر " أديب اسحاق "
الذى أسس فى القاهرة والاسكندرية وباريس كثيراً من الصحف التى صدرت
بالعربية والفرنسية . يعقوب صروف ، الذى أنشأ صحيفة " المقتطف "
فى بيروت ، بمعاونة زميله فارس نمر فى يونيو ١٨٢٦ ثم انتقل
بها الى مصر سنة ١٨٨٥ وكان المقتطف هو الميدان الاول ، الذى
التقى عنده الكتاب ، لنشر المعلومات والآراء والافكار الخريية ، كما كان
أحد المبادئ لنهضة الفكر العربى ، ومنهم فارس نمر ، الذى أصدر
المقطم - فى ابريل سنة ١٨٨٨ ، وجرى زيدان الذى أسس مجلة

الهلال في مصر سنة ١٨٩٢ ، وآل تقلا الذين أصدروا جريدة الاهرام التي كانت تصدر أسبوعية في الاسكندرية ، ثم نقلت الى القاهرة لتصدر يوميا ، ولاتزال كذلك حتى اليوم ، وابراهيم اليازجي ، وقد أصدر مجلة الصياد سنة ١٨٩٨ ، ورشيد رضا ، وقد أصدر المنار سنة ١٨٩٨ ، وغير هؤلاء كثير ، ممن هاجروا الى مصر من الظلم التركي ، وشاركوا بجهود حميدة في انشاء الصحافة وتطورها والنهوض بها في مصر (١)

===== النهضة الفكرية والثقافية في سوريا — مظاهرها وعوامل نموها : =====

وبعد هذا التمهيد الذي لم أر منه بدا ، يمكننا أن نصور النهضة الفكرية والثقافية في سوريا ، في العصر الذي عاش فيه المحاسني وأن نقف على عوامل وأسباب هذه النهضة فيما يأتي :

١- العناية باللغة العربية عناية فائقة ، وبعد أن غدت اللغة الرسمية في البلاد ، كما كانت من قبل وذلك بعد زوال النفوذ العركي الذي فرض لفته على البلاد كما قدمنا ، وقد تمثل ذلك في تصريب الكتب الثقافية ، ونقل كثير من الفكر والثقافة الغربية اليها ، ولقد بذل ساطع الحصري الذي كان وزيرا للمعارف السورية (٢) جهودا جبارة في النهوض باللغة العربية من كبوتها واقالتها من عثرتها ، فوضع برنامجا تربويا سديدا ، يصدر عن ورد الثقافة العربية ، كما بذل محمد كرد علي جهودا موفقة في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق ، فكان دعامة قويمة

(١) انظر الصحافتوالادب في مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة .

(٢) انظر ساطع الحصري د . محمد عبد الرحمن برج وقدولى ساطع الوزارة من ١٩٢٠/٣/٨ — ١٩٢٠/٧/٢٥ .

لنشر اللغة العربية والحفاظ عليها ، والاخذ بنواصرها واتخاذ كافسة
الوسائل والسبل التي تعين على تقويتها وتعمل على ثرائها وفتوتها .

وفى سبيل العناية باللغة العربية وتراثها ، اتجهت الانظار
الى بحث التراث العربى القديم واحيائه والتزود به ، وكان مما ساعد
على ذلك ، كثرة المطابع وتعدد دور النشر فى سوريا ولبنان وغيرها (١)
وقد كان للمجمع العلمى العربى بدمشق جهود بارزة فى هذا الميدان .

٢- قومية التعليم والعناية به :

ولقد كان من مظاهر النضج الفكرى والثقافى فى سوريا فى عصر
المحاسنى ، العناية بالتعليم فى شتى مراحله ، والاتجاه بسببه
وجهة قومية وذلك على خلاف ما كان عليه نظام التعليم فى سوريا فى
أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، والذى صوره محمد كرد على
بقوله : (فى الربع الاخير من القرن الماضى " كان هناك معسكران ، يقود
الاول دعاة الكتلة والبروتستانتية ، وهم حملة علوم المدنية الحديثة ، والثانى
دعاة تنريك المناصر أصحاب القومية التركية ، وكانت الجامعة الامريكية
تدرس بالانجليزية والجامعة اليسوعية تدرس بالفرنسية ، ومدارس التنريك
تدرس باللغة التركية ، وكانت مدارس التبشير والطوائف فى الساحل تدرس
دراسة جيدة ، ومدارس الحكومة والمدارس الدينية ضعيفة سقيمة الاسلوب
حتى قيل أن اللغة العربية كانت فى حالة نزاع فى البلاد الداخلية
وكانت علوم الدين واللسان تدرس فى مدارس حلب ودمشق على طريقة
الازهر ، وكانوا يحفظون القرآن ولا يقرأون تفسيره ، ويتعلمون الفقه

(١) انظر الاتجاهات الفكرية فى سوريا ولبنان ١٩٢٠/١٩٤٥ د . عبدالله حنا .

ولا يعرفون أصوله ، وكانوا يحرمون دراسة التاريخ بعد أن كانت تدرس في الجامع الأموي الحديث ، وكانوا يكرهون علوم الطبيعيات والفلك ويعدونها من الزندقة ، كما حرموا قراءة المنطق والفلسفة ، ثم قام في الشام في ذلك الوقت الشيخ " طاهر الجزائري " الذي سعى لإنشاء المدارس الابتدائية والإميرية للذكور والإناث ، وألف الكتب ولقن المعلمين أصول التدريس والتربية وعرف بالحركة والتجديد واليقظة " (١)

وإذا كان الشيخ طاهر الجزائري قد أسهم في النهوض بمستوى التعليم في سوريا ، وسعى إلى تطويره وتجديده ، حتى يرقى لمواكبة الحياة العلمية المتجددة آنذاك ، فإنه كان هنالك بعض الدعاة الصالحين ممن شاركوا في النهوض بهذا الهدف الاسمى ، منهم : محمد كرد علي صاحب البحث السابق ، والذي كانت أياديه لا تنكر في هذا الميدان ، ومنهم كذلك : الكاتب والمؤرخ القوصي ساطع الحصري ، الذي عهدت إليه الحكومة السورية مهمة دراسة نظم التعليم السورية بمد أن ظفره بالاستقلال الذي تحقق لها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كما سبق أن ذكرته في البحث السابق ، وقد عكف ساطع على وضع ما رآه من مقترحات كهيئة بإصلاح التعليم وتنظيمه ، فدرس أحوال المعارف في سورية ، وأعد ستة عشر تقريراً ، في شأن إصلاح التعليم السوري ، ورفعها إلى الجهات المسئولة بغية تنفيذها .

وقد تناولت بعض تقاريره : المناية بالتعليم منذ مرحلته الأولى وفي شتى مراحله ، كما تناولت نظام التعليم وتشكيل وزارة المعارف وتوثيق

(١) كتاب الهلال الذهبي محمد كرد علي القاهرة ١٩٤٢ . وانظر كذلك

محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب لسامي الكيالي .

العلاقات الثقافية بين سورية وسائر الاقطار العربية ، وكيفية السبيل الى تحقيق هذه العلاقات وتوثيقها .

كذلك اقترح ساطع الحصرى على وزارة المعارف السورية ، أن تلتفى اسم المدرسة التجهيزية وتسميها - بالثانوية - ملحقا بفعل مصر وباقي البلاد العربية وكذلك اسم المدرسة الاكاديمية ، الذى هو مقتبس من فرنسا لكنه مطبق فى سورية على غير المقصود منه عند الفرنسيين ومن ثم اقترح تسميتها بالمتوسطة شأن ما هو حادث فى العراق كما ألقى تعليم اللغة الاجنبية فى المدارس الابتدائية السورية ، وذلك لصعوبة تعلم الطفل لغتين فى وقت واحد جسما قرره خبراء التربية والدارسون لأمور الطفل . وقد وضع ساطع نصب عينيه فى اصلاحه للتعليم السورى ، خدمة الهدف القومى ونصت المادة الاولى من مشروع قانون المعارف الدائمة ، الذى وضعه فى سورية على مايلى : " بخصوص واجب وزارة المعارف : مهمة وزارة المعارف ، تربية الجيل الجديد ، تربية صالحة من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية ، ليصبح كل فرد من افراد قوى البدن حسن الخلق صحيح الفكر ، محبا لوطنه ، ممتازا بقوميته ، مدركا لواجباته ومزودا بالمعلومات التى يحتاج اليها (١) ويمكننا أن نلخص واجب وزارة المعارف السورية من وجهة نظر ساطع الحصرى . فيما يأتى :

أولا رفع الموانع والحواجز التى تعوق العلاقات الثقافية وتحول دون توثيقها .

ثانيا الممل على ضمان التقارب بين مناهج الدراسة فى البلاد العربية المختلفة ، وتوحيد الاتجاهات الاساسية المرسومة لها .

(١) انظر كتاب ساطع الحصرى ص ٦٩ - ٧٩ .

ثالثا التعاون مع وزارات المعارف في البلاد العربية الاخرى ، في جميع الاعمال الانشائية ، التي تساعد على تكوين ثقافة عربية موحدة (١) ومنهم كذلك الدكتور زكي المحاسنى - الذي عمل - مراقبا للبعثات العلمية وملحقاتها بالسفارة السورية في مصر من عام ١٩٥٠ - ١٩٥٦ ، ثم كان عضوا في لجنة التربية والتعليم بوزارة المعارف السورية من عام ١٩٥٦ - ١٩٥٨ ، ثم مديرا للثقافة في تخطيط التعليم العالي بالقاهرة في عهد الوحدة بالوزارة المركزية ، ثم مديرا للتراث في وزارة الثقافة بدمشق بعد الانفصال - هذا الى انه عمل أستاذا في الجامعة السورية في عام ١٩٤٧ - ١٩٥٠ ، ومن قبل كان يعمل أستاذا للغة العربية وآدابها بتجهيز انطاكية ١٩٣٣ ، وأستاذا للغة العربية وآدابها كذلك بتجهيز دمشق الاولى ١٩٣٤ - ١٩٤٤ .

وقد ساعدته هذه المناصب كلها في أن يتعرف على عيوب التعليم في سورية عن كثب ، وأن يشارك في تنظيمه والنهوض به ، حتى يلائم حاجة مصر ، ويلبي مطالبه (٢) .

هذا - ولم يقتصر السوريون في دراساتهم على تلك الثقافات والمعارف التي اضطلمت بها مدارسهم ومعاهدهم ، وانما اتساح عديد من ذوى الطموح والتطلع الى التزود من الثقافات الحية الناضجة في شتى المدارس والمعاهد والجامعات في الشرق والغرب ، وقد ولى كثير منهم وجهه شطر مصر ، التي ظفرت بالتقدم العلمي الملموس ، ويتطور نظم الدراسة ورفقيها ، في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها في هذا القرن بشكل ملحوظ .

(١) انظر كتاب ساطع الحصري ص ٧٦ .

(٢) نقلا عن كتاب المحاسنى الشاب الظريف ص ١٦٣ و ١٦٤ .

وقد كان من مظاهر التقدم العلمى والفكرى فى سوريا فى هذا
المصر ، انشاء الجامعة السورية سنة ١٩٢٣ ، الذى يمد ترجمة
عملية عن استقلال سوريا وحرثها الفكرية ، وقد بدأت هذه الجامعة
بانشاء كليتى الطب والحقوق ، ولم تكن سورية تحظى بالاستقلال السياسى
حتى ضمت جامعتها كليات كثيرة ، نهل من علمها وفكرها وثقافتها
كثير من أرباب العلم والفكر والفن فى سوريا المعاصرة ممن حملوا ويحملون
راية العلم ولواء الثقافة فيها حتى الان .

٣- نضوج الوعي القومي والفكرى والثقافى فى سورية وغيرها من البلدان
المصرية اثر تفجر براكين تلك الثورات الفكرية على ايدى كثير من
الرواد المفكرين والكتاب المصلحين والتى استهدفت التحرير الفكرى
والقومى على حد سواء ، وقد كانت مظاهر هذه الثورات متنوعة وبواعثها
عديدة ، فمن صحىحات لتنقية جوهر الدين من جمود الرجميين
المتزمتين ، ممن أنكروا ناموس التطور فى الحياة الاجتماعية الى صحىحات
لتحرير المرأة من عبودية الجهل والتخلف ، الى غيرها لتحرير الادب
من ميوعه التقصر اللفظى وسماجة المبالغات الى صحىحات مدوية نفسى
السياسة وفى القومية وقد كان لهذه الصحىحات اثرها فى النضوج
الفكرى والتطور الثقافى معا ، فرسالة محمد عبده فى سبيل تدمية
الدين واخراجه من قيود التعزمت والجمود ، ورسالة الكواكبي فى سبيل
انشاء وطن عربى موحد ، وتحطيم الطبائع التى عاشت عصورا طويلة
فى دياجير الاستعباد .

ورسالة قاسم أمين ، فى سبيل تعليم المرأة والنهوض بها ، لتسهم مع الرجل فى بناء الكيان الاجتماعى ، ورسالة الشميل فى اشاعة روح العلم والقضاء على المشمودين ، الذين لاهم لهم الا الرجوع بالامة القهقرى .

ورسالة الريحاني في سبيل بذور بذور الحرية والقضاء على
الطاغية . وكانت ثورة الزهاوى في سبيل الدفاع عن حيوية الفكر .

وهناك كثير من ثورات المعاصرين الذين ما فتئوا يعملون في جميع
الميادين السياسية والوطنية والقومية والاجتماعية والثقافية وغيرها .

وهذه الثورات كلها ، تمتد بمثابة البذرة الاولى ، التي زرعها
المفكرون الاحرار في الوطن العربي كله ، وقد أنبتت هذا النبات الطيب
الذي قامت عليه اليقظة المباركة والنهضة الحية ، التي نهضتها الامة
العربية تلك التي كانت هواجس في ضمير الكتاب فأصبحت اليوم حقيقة
ساطعة وكم لاقت هذه الهواجس من غت وارهاق وكم تحمل اصحابها
من ظلم واضطهاد ، ومع ذلك فقد تخطى الفكر الحر جميع هذه
الحواجز واخترق السدود وحطم القيود ، واستطاع أن يقود الامة
العربية الى طريق المجد وشاطئ الأمان ، وذلك اذا قورن بما كانت
عليه الامة في ذلك العهد السقيم الذي سبق فجر النهضة والذي
صوره بعضهم بقوله : " ... ونحن حين نرجع مائة سنة الى الوراء
نتلمس حالة الشرق في مجموعه ، وكان الشرق مقاطعات خاضعة للسلطة
انتحائية الصرامة الاطراف نجده لا يزال في غيبوبة يتسكع في دياجير
الجهل ، فلا مدارس ولا جرائد ولا أندية ولا مؤسسات كما هو الحال اليوم " .

" وحين نرجع مائة سنة الى الوراء ، نجد أن الحياة الفكرية
قد خمدت في بلاد الشام ، ووان على صدرها الجمود ، وانقطعت عن
العالم ، الا ما يتصل بعالم التجارة والصناعة ، وكانت هذه الحالة
الدمرية ، هي التي أهابت بعض المفكرين ، وهم من الندرة بمكان
أن يعملوا في الخفاء على بحث الحيوية في قلب المجتمع ، بما يبتونه من
آراء حرة ، وما يذيمونه من خواطر منطلقة ... الخ " (١)

(١) سامي الكيالي في كتابه محاضرات عن الحركة الادبية في حلب ، وانظر
الأدب العربي المعاصر في سورية له كذلك .

٤- عملت الهجرة التي سمي اليها كثير من الشاميين الى أمريكا والبرازيل وكندا والأرجنتين وغيرها هـ فرارا من الاضطهاد التركي الميثاني - عملت على نشاط الفكر وخصوصية الثقافة ، حيث وجد المهاجرون في مهاجرهم متنفسا عن كروبهم ، وحرية في التعبير عن آرائهم وخواطرهم وأفكارهم عن طريق الادب والصحافة ولقد ساعدتهم هذه البيئة الجديدة على الابتكار والتجديد والتفنى بالحرية وامتداح الوطن والترجمة عن كل ما تجيش به المواطن أو تنفعل به الاحاسيس . ولقد كان صدى ذلك كله قويا في وطنهم الاصيل ، الذي لم تنسلخ عنه ارواحهم وأفكارهم وأن فارقتهم جسامهم وأبدانهم حيث انتقلت اليه آراؤهم في الفكر والادب والثقافة والوطنية بوجه عام (١) . ولقد أثر هؤلاء المهجرون بأفكارهم وأدابهم الجديدة في الوطن العربي كله لاسيما في الشام - .

٥- التيار الثقافي الفرنسي ، الذي سرى في شريان النهضة الفكرية السورية ، على أثر الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان ، ورغبته في أن يطبع هذين البلدين بطابعه ، وأن يمازج بين ثقافتهما الاصلية وثقافته ، أو أن يذيب ثقافتها ويمحوها ، تمهيدا لترويج ثقافته وتميمها ، وذلك تمشيا مع السياسة الاستعمارية التقليدية . ولقد كان اللبنانيون أكثر تأثرا بهذا التيار الثقافي الفرنسي من السوريين ، وذلك نظرا لكثرة الارشالات وجاليات التبشير ، التي امتد نفوذها وأثرها في لبنان منذ فترة مبكرة على نحوها ما ذكرنا سابقا .

ومهما يكن من شيء فان التطلع الى الفكر الغربي في الاستزادة منه ، والافادة من روائعه ، كان أحد دعائم النهضة الفكرية ، التي

(١) انظر ذلك مفصلا في كتاب الادب العربي في المهجر د . حسن جاد .

وأدبنا وأدبنا في المهاجر الأمريكية جورج صيدح .

نهضتها بلاد الشام ، فى هذا القرن ، كما كان ينبوع الثقافى
الفرنسى أحد ينباع الثلاثة التى رفدت محيط الفكر والثقافة فى
سوريا ولبنان فى هذا العصر (١) .

ومما لاشك فيه أن هذا الفكر الجديد كان له أثر عميق فى
توجيه الفكر وتنميته والنهوض بالثقافة وتجديدها ، وقد بدا ذلك جليا
فى كتابات المعاصرين وطرائق تفكيرهم ، وانفادتهم من المنهجية الحديثة
فى البحوث ، التى تقدمت فيها أوروبا بوجه عام ، كما تأثروا ببعض
آراء المشتشرقين ودراساتهم الحية ، التى درسوا فيها كثيرا —
قضايا الفكر العربى وظواهره ، وراثته ، حيث حاكاهم كثير من الكتاب
والدارسين العرب منهم المحاسنى فى بحوثه ودراساته ، التى سنقصف
عليها بالتحليل والدراسة فيما بعد .

ثالثا الحياة الادبية

ذكرت فيما سبق أن البلاد العربية بما فيها اقليم الشام كانت
ترزح تحت نير الاحتلال المثمانى حتى بداية هذا القرن ، وكان
المثمانيون قد أخذوا جذوة الفكر عند العرب وأماتوا فيهم روح الابتكار
والخلق ، وزرعوا فى نفوسهم الجهل والجمود الفكرى ، الذى أدى بهم الى
التخلف عن موكب الرقى الحضارى والثقافى طوال ثلاثة قرون ، أشاعوا
فيها المصيبة والجهل والظلم والاقسطاع ، حتى فقر الاحساس وتبلدت
القرائع وماتت المواهب ، وضعفت الازواق الفنية والملكات المبدعة .

(١) انظر الاتجاهات الفكرية فى سوريا ولبنان د . عبدالله حنا .

ولقد تمخض هذا المصير مع طول سنواته عن طائفة من الآداب
المبهرجة الفارغة ، التي لا تحمل مضمونا ولا تحتوى معنى ، ولم تنهض
للتعبير عن مطالب الأمة وقضاياها ومشكلاتها وتصوير آلامها والترجمة
عن آمالها ، وذلك فى الاعم للاغلب فن نأذجها •

هذا الى جانب افراطها فى الحلى والصنعة والزخرفة والتميق
والسجع والبديع وسائر المحسنات وقد صور سامى الكيالى حالة الادب
فى سوريا قبل الحرب الكبرى الا مما بقوله :

" كان الادب فى سورية قبل الحرب العالمية ١٤-١٨ أدب
مبسطات وتورية وخباس ومطابقة وأدب قصيدة وخطاب ، كان أدبا ضعيفا
كل مادته هذه البهرجات ، وهذه الشعونات التى تقوم على الصنعة
والبديع ، لاعلى التصوير والتوسيع مما لا يتصل أبدا بأدب الحياة " (١)
كما يقول مصورا حالة الشعر وما آل اليه من ضعف : " أعيب الشعر
فى المسهد الركى بوباء التنيق اللفظى ، الذى ذهب بمائه ورونقه وتركه
مرارا كثيرة على حالة المريض المدنف ، بمد أن ألح عليه السقم والسذل
فاذا ما أزحت ستار الالفاظ البهراقة لا تقع غالبا الا على ممان مكرورة
مسروقة غثة •

وافتن الشعراء فى أنواع البديع والتصنع والتشطير والتخييس
والاقتباس والتضمين حتى قال بعضهم :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيسرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشمرى نصفه من شعر غيسرى (٢)

(١) من الأدب المعاصر لسامى الكيالى •

(٢) الحركة الأدبية فى حلب ع ١٢ وما بعدها له أيضا •

كما أولع الشعراء في هذا العصر بالتورية والألغاز والاحاجى في شعرهم ، واستكثروا لظهار براعتهم وحذقهم من الألفاظ المصفـرة والممجة والمهملـة ، والتزموا بما لا يلزم وبالفوا في التأريخ الشعرى وافتنوا في استعمال كل ما يذهب بماء الشعر ورونق الفن (١) .

هذا ما آل اليه حال الأدب في الشام وفي العراق وفي مصر وشمال أفريقيا ، وربما كان الأدب في مصر في عصر العثمانيين أقل محاكاة وتقليدا ، وأقرب الى روح الابتكار ، وذلك لوجود الأزهر الشريف الذى حفظ اللغة من الاندثار أو الضياع في ظل هذه التركية الطاغية ومن خلال المحاولات التى بذلها العثمانيون بشأن تنقية اللغة العربية ، وفرض لغتهم على البلاد ، وجعلها اللغة الرسمية في المكاتبات والرسائل ودور التعليم على نحو ما قدمت .

ولقد بدأت طلائع اليقظة القومية والوعى الفكرى يسد لانشعاعهما القوى على أرجاء الوطن منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر كما ذكرت سابقا ، حيث كان بعض المفكرين والادباء ، قد قرأوا أدب الامم الحية ، ودرسوا تاريخ تطور الشعوب ، وقارنوا بين نهضة الغرب وانحطاط الشرق ، وكان الأدب وسيلتهم في التعبير عن آلامهم ، وتصوير ما تشعرون به أنفسهم من ضعف .

ومن هؤلاء الذين آمنوا بثقافة الغرب ولم ينكروا قيمة الخصائص العربية البستانيون واليازجيون ، ورفاعة الطهطاوى وجمال الدين الافغانى

(١) تاريخ الأدب العربى لحنا الفاخورى ص ٨٦٥ .

وأحمد فارس الشدياق ، وغيرهم من الاحرار المفكرين ، الذين تركسوا
آثارا أدبية قيمة ، كما أخذت المطابع تقذف الصحف والرسائل والنشرات
وتخفض المالم العربي عن جيل جديد من الادباء والفكرين ، كان في
طليعتهم محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي وأديب اسحاق ، وأحمد لطفى
السيد وشبلى شميل وسليمان البستاني - الذى عرب الياذة هوميروس
وقد كان لهؤلاء نزعات سياسية وقومية ، واتجاهات اجتماعية تحررية ،
ترى الى بحث الشرق وتحريره من الاصفاد التى أغلته •

ولما نشطت المنصرية التركية كان الأدباء اكثر يقظة فى ترعدها
والرد عليها ، ومن ثم كان اعتزازهم بالماضى وأمجاده واستلهاهم
فى مقاومة هذه المنصرية والرد عليها ، وقد بدأ الادب يقوى فى
اغراضه ومضامينه ، حيث التزم الادباء العرب بالترجمة عن هذه المعانى
وتصوير تلك التيارات ذوات النزعات والبواعث القومية والتحررية • ومن
الادباء الذين صوروا هذه الاغراض والمعانى الجديدة - محمد كرد على
شكيب أرسلان - رشيد رضا - يعقوب صروف - جورجى زيدان - فريد
وجدى - الزهاوى ، الرصافى - شوقى - حافظ - محرم - مطران - وغيرهم ،
وتبدأ هذه المرحلة فى نظر مؤرخى الادب باعلان الدستور الميثاقى
(١)
سنة ١٩٠٨ •

حيث بدأ أدباء العربية يتحررون من قيود الماضى ، ويترجمون
فى أدبيهم عن مشكلات مجتمعاتهم وقضايا أمهم ، وقد ساعدت الصحافة
على نشر آرائهم وإذاعة افكارهم •
(١) بتصرف عن كتاب محاضرات عن الحركة الادبية فى حلب ع ٢١ وما بعدها
لسامى الكيالى •
وانظر الشعر الحديث فى الاقليم السورى ع ٢ وما بعدها لسامى الدهان •

لكل الدراسات الادبية في تاريخ الحركة الثقافية مع اضافة الرصافي والزهاوي
والكاظمي في العراق .

كما يقول - أما في سورية فقد كان الشعر مفقودا على وجه التقريب ،
الا من بعض الارهاصات أو المحاولات التي سرعان ما كانت تنطفئ ، بمد
أن تومض ايماضة خفيفة كابية ، كما كان أدباء لبنان منصرفين الى اللغة
ووضع المعاجم ، مما كان له أثر كبير في حفظ التراث العربي ، ولكن فن
الشعر لم يكن ظاهرة مؤثرة في الوسط اللبناني ، الا بعد أن ظهر
شعراؤه الأفذاذ الجدد من مثل بشارة الخوري وشبلى الملاط وتامر
الملاط ووديح عقل ... الخ (١) .

وعلى أثر انتهاء الحرب العالمية الاولى ، التي كانت عاملا قويا من
العوامل التي فجرت ثورة اليقظة والوعي في نفوس الشاميين ، التواقين الى
الحرية والاستقلال ، لا سيما سوريا - التي فكر صفوة من أدبائها أن ..
ييمثوا الحركة الأدبية تماما ، مثل ما فعل اخوانهم في مصر .

دعا خليل مردم في ٤ آذار سنة ١٩٢١ رهطا من الأدباء
والشعراء الى تأسيس جمعية " الرابطة الادبية " (٢) ، وكان الباعث على
هذا العمل كما جاء في بيان الجمعية حاجة الأدب العربي الى نهضة
توقظه من سباته وتبعث فيه روح النشاط ، وأن كل مجهود يبذله أفرادهم
متفرقين ، لا يأتي بالثمرة المطلوبة ، فأزمعوا على انشاء جامعة أدبية

(١) شعراء سورية لأحمد الجندى .

(٢) انظر : من الأدب المعاصر لسامي الكيالي وانظر كذلك الشعر الحديث

في الاقليم السوري ص ١٠٢ لسامي الدنان والأدب العربي الحديث

ص ٣٣٦ وما بعدها لأنور الجندى .

تلم شملهم ، وتوحد قواهم ، ورواوا أن يسدروا مجلة باسم الجمعية ،
تعبير عن أهدافها ، وقد أشترك في تحرير هذه المجلة أدباء الشام
وصفوة من أدباء بيروت والعراق .

وقد أوضح الاستاذ خليل مردم رئيس الجمعية ورئيس تحرير
مجلتها حالة الأدب في ذلك العهد بقوله : " أدبنا اليوم أشبه
بمرضى الحت عليه الملل والأمراض حتى أمضته ، أما علاجه فهو لا يمدو
أحد قسمين : لا يجوز التفريق بينهما وإن اختلفا ، .. تعهد جسمه
الناحل بالتقوية ، والثاني نفى الأوجاع التي عقلت ببدنه " .

وعلى الرغم من شعار الهدم والبناء - ذاك الشعار الحاسم ،
الذي اتخذته المجلة هدفا لها ، فإنها كانت تعمد إلى الترميم والرجوع
إلى الماضي أكثر من مساندة النزعات المصرية وإذا صحت كلمة الحكيم
الافغانى - " ما دخلت السياسة شيئا إلا أسدته " وهى صحيحة
إلى حد كبير - فيما نرى .

فإن السلطة الفرنسية قد تخوفت من انبثاقات الأدب النوى ، إذ
لم يمر على ظهور المجلة تسعة شهور ، حتى أصدرت أمرا بإغلاقها ،
وبذلك انفرط عقد الجمعية ، ولم تستطع أن تعمل على بعث الحركة
الأدبية في الشام كما كان يرجوه أدباؤها .

وقد صدرت بعد ذلك صحيفة "الميزان" في دمشق وهى جريدة
أسبوعية كان يديرها المرحوم أحمد شاكر الكرمى - الأديب الناقد - الذى
بدأ حياته الأدبية بتحطيم أعلام الأدب ، ونقد كل أديب أو شاعر ، يقوم
أدبه على الصنعة والبهرجة والزيف ، وقد استمرت هذه المجلة سنوات ،
ولكن الأقدار القاسية لم ترحم هذا الأديب الحر ، إذ دهمه مرض السل

وهو في ريمان شبابه ، فخرت نهضتنا الادبية بوفاته اديبا ناقدا
كان يرجى له شأن خطير في تحويل مجرى الحركة الادبية في سوريا
وتوجيهها وجهة نافعة . (١)

وهذا الأدب المريض الذي ألحت عليه الملل كما قال - خليل
مردم - كان يتطلع الى طبيب حاذق ، وكان المجمع العلمي المصري
الذي أنشئ في سورية ١٩٢١ يضم الكثير من الأطباء ، ولكنهم كانوا
يحاولون انقاذ علقه بطب ابن سينا لا بطب باستور مثلا . . حيث كان
أدب اكثرهم ضرا من المحاكاة والتقليد ، ولم تبد فيه النزعة المثالية
فوقف حيث هو يشكو آلامه المبرحة .

وحينئذ لم يجد الشباب بدا من التطلع الى مصر وأدبائها والتي
المهجر وشعرائه ، ولقد أقام الدكتور زكي المحاسني ، في تصوير
هذه الحقيقة في دراسته الوافية ، التي كتبها عن الأدبيين المصريين:
أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ، وفي بعض فصوله التي تحدث فيها
عن حالة الأدب في سوريا في فترة ما بين الحربين العالميتين (٢) وفي
كتابه - نظرات في أدبنا المعاصر .

-
- (١) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي .
(٢) انظر فصول من الثقافة المعاصرة د . محمد عبد المنعم خفاجي ص ٧٩
وما بعدها - انظر هذه المذاهب الادبية في كتاب " التيارات
المعاصرة في النقد الادبي د . بدوي طبانة .

ولقد تصرف عشاق الأدب وأرباب الملكات في هذين النعنين
الثمين على ألوان حية وأصداء ضابئة ، تجمع بين النزعات القديمة
والنزعات الحديثة ، وبين الأدب الكلاسيكي والرومانسى ، فإذا جبران
الشاعر المبتكر والأديب الفنان ، يطل بأرائه الخيالية ونزعاته الجديدة ،
وطه حسين ، بدراساته الأدبية النقدية ، التى وجهت الأدب العربى
توجيها جديدا ، ومحمد حسين هيكل بروحه المنطلقة الوثابة ، والرافعى
بخصوماته المنيفة وثورته على كل جديد ، والبشرى بأسلوبه العباسى
الانيق ، الذى يطل من كوة ضيقة على تطورات هذا العصر ، وسلامة
موسى بآرائه الجريئة ، ودعوته الى التفرغ ، والى احياء الادب ..
الفرعونى بدلا من الادب العربى القديم .

وإذا نحن ازاء تلخيصات شاملة لبعض المذاهب الفكرية فى
العرب ، وازاء مشكلة جديدة أطلق عليها مشكلة - الأدب القديم -
والأدب الحديث - أثارها الادباء المصريون بقوة وعنف (١) .

هذه المشكلة التى استمرت عشر سنوات كاملة منذ ١٩٢١ حينما
أصدر الأديب الكبير عباس محمود العقاد كتاب الديوان مع صديقه
المازنى - والذى احتوى على قيم أدبية ونقدية جديدة حيث تعرض
الكتاب لنقد شمر شوقى بمزيد من القسوة والصرامة ، كما انتقد أدب
المنفلوطى ونعته بالتخلف والنموة (٢) .

ولقد حى وطهى الخصومة بين اتباع القديم وأنصار الجديد فى
مصر ، وانتقلت هذه الآراء الى سورية ، ولكنها لم تحرك الأدباء

(١) انظر هذه المذاهب الادبية فى كتاب التيارات المعاصرة فى النقد الادبى
د سيدوى طبانة .

(٢) انظر : الديوان فى الادب والنقد للعقاد والمازنى ط ٢ دار الشعب ١٩٧٤ .

السوريين لدخول المعركة • ووقف أدباء سوريا ولبنان من أتباع المدرسة الكلاسيكية يرقبون هذه الممارك بهدوء وحذر (١).

كما ظل الطابع القديم مسيطرا على ما أنتجه أدباؤهم وشعراؤهم في هذه المرحلة من مراحل التاريخ الأدبي السوري، فهو أدب عرسي صميم في مادته وروحه واتصاله بالماضي وتأثره بالأدب العربي القديم في أسلوبه وشكله وسمته وروحه •

ولا عجب فلقد كان زعماء الفكر والسياسة والوطنية في سورية في هذه الفترة • ينظرون الى الثقافة العربية الاسلامية • نظرة تمجيد وتمظيم • حيث كانت القومية العربية في نظرهم أقوى وسيلة لتحريرهم واستقلالهم من رقة الاحتلال • وذلك على النحو الذي بدا من الزعيم السوري عبدالرحمن شهبندر • الذي يقول في إحدى مقالاته القومية "• وفي الشرق أم أخرى غير من ذكرنا • إلا أنها ليست لها مجد غابر فتستمده • أو كان لها مجد ولكنه ليس من وضعها ولا مطبوعا بخاتنها فلم يبق والحالة هذه سوى مجد الثقافة العربية وهو مجد تلك الثورة التي انبعثت في القرن السابع للميلاد • وانتشرت الويتها في أقبل من قرن من المحيط الى المحيط • فهذه الثقافة ثقافة حية • نعيش في أجوائها ونسبح في أهوائها • ونهتدى بأنوارها • وكلما حاول أناس من المبشرين أو المستعمرين • أو المتعصبين الهدامين • أن يطفئوا هذه الانوار بالدعوة الى العربية العارية • وأروا من حرس المتسكين - بالفصحى • على الجامعة العربية • ما يقف سدا منيعا في وجوههم ويرد كيدهم في نحورهم (٢) •

(١) انظر من الأدب المعاصر لسامي الكيال ص ١٤٥ - ١٦١ •

(٢) نقلا عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ١٠٤ • محمد محمد حسين

كما بدت هذه الروح في شعر شعراء سوريا ومنهم الشاعر
محمد البزم - الذي يزهى في شعره بالانتساب الى قبائل العرب من
عبد شمس وهاشم وغسان ، ويفخر بأجداده ، تذكرة لقومه بمجدهم
الزائل ، ودفعاً لهم الى العمل والكفاح لآحياء هذا المجد من جديد ،
وذلك في اطار عربي قديم وتشوير شمري كلاسيكي على هذا النحو :
يكفكف من طفو الطفأة فان حوا نزا فاستقلت بالطفأة مقابله
يميز نفس العرب في كل موطن ابا ويعروري المهالك حاسره
وكانت له في دولة الشعر دولة حتى سرحها في الشرق والغرب شاعره
تلاقت على عرائها فهي نزع الى عزها أهارة وعشائره
وهب به من عبد شمس وهاشم وغسان ارتك واقدات مشاعره (١)

ومعنى هذا أن أدباء الشام كانوا في هذه المرحلة ذوى نزعة
خاصة لبحث القديم وأحيائه وبحث الأدب القومي وتذكية الحماسة
وتوقد نار المروية والقومية ، وسبيلهم في ذلك احياء القديم وبعث
أمجاده والسير على غراره (٢) ولعل حجتهم في ذلك أن الوطن كان لم
يزل يعاني من الوضع السياسي المضطرب ، وأن الاستعمار كان يسيطر
على مقدراته السياسية . ومثل هذا الوضع خلق بئان يدفع
الادباء الى التعلق بالماضي وتراثه وأدبه ، وقد أشار الى هذه الناحية
أديب دمشق وشاعرها الاستاذ شفيق جبري (٣) بقوله : اننا معاشراهل

(١) نقلا عن الشعر الحديث في الاقليم السوري ص ٢٤ محمد سامي الدهان .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٤ وانظر كذلك الادب العربي الحديث لانور
الجندی ص ٣٣٢ .

(٣) انظر دراسة عنه وافية في كتاب سامي الدهان سابق الذكر .

الشام بفضل الشعر الذى نرى عليه آثار القومية وآثار الوطنية ، لاننا
فى غلاب ونضال ، اننا نستخدم هذا الشعر حتى يقوى فينا هذا
الغلاب والنضال ، وما على الشعر أن تظهر عليه آثار البيئة وآثار
العصر ، ما عليه أن يقبع فى أفق ضيق حيننا من الاحيان ، فاذا ظمأت
النفوس الى حرية تفكيرها وحرية شعورها اذا استطاعت أن تدفع
عنها هؤلاء الذين بسطوا عليها ظلمهم على أساليب شتى وأسماء مختلفة
تارة فى أسلوب الارشاد وتارة على أسلوب التهذيب ، وحيننا باسم
التقليد - اذا أطمأنت النفوس الى حرية حياتها فليخرج الشعر يومئذ
من أفقه الضيق - أفق القومية وأفق الوطنية ، ليخلق فى السماء التى
يريدها .

أما نحن الا نرى دمشق فلا يرضينا الا النعمة الوطنية فى الشعر
قد نكون على حق وقد نكون على باطل . هذا هو الامر الواقع (١) .

ولقد سجل الأستاذ جبرى هذه الكلمة الحاسمة ، عقب الجدل
الذى ثار بين الادباء ونحوه : هل نوجه أدبنا اتجاه قومنا أم
انسانيا ؟

ومعنى هذا أن أدباء دمشق لم تبهرهم هذه الالوان الجديدة
فى الادب ولا أصداؤها المتنافرة ، وانما سلكوا هذه الطريق التمسى
تربطهم بالادب العربى القديم أوثق رباط ، وهكذا افترق الادباء
الكلاسيكيون ، وعلى رأسهم - أسرة المجمع العلمى العربى - تحت هذه
البواعث عن اتجاهات أنصار الأدب الجديد وجماعة التجديد فى مصر ،

(١) نقلا عن كتاب أنور الجندى السابق .

وظل الشباب في سورية مأخوذين بالسيحات الجديدة ، دون أن تصرفهم هذه السحات عن الاصفاء الى الايقاع القديم ، الذي يتخطى المصور حاملا أعراف بني أمية ومطارف بني العباسي (١) .

ومن الأدباء السوريين ، الذين ساروا في هذا الاتجاه : محمد كرد علي ، وعبد القادر المجرى وسليم الجندى ، وعلى الطنطاوى وقسطنطين زريق ، ومحمد الهزم وشفيق جبرى ، وسيد الافغانى وأحمد الطرابلسى و خليل مردم وصالح المنجد وسامى الكيالى ، و خليل هنداوى وشكرى فيصل وزكى المحاسنى ،

وسوف نرى في دراستنا لادب هذا الاخير - لا سيما شمسه - كيف ظل محافظا على الديباجة المربية القديمة في أدبه - على الرغم من تعدد مصادره ثقافته .

أما في لبنان فقد كان الادب في هذه المرحلة - مرحلة ما بين الحربين العالميتين - يتجه غير هذا الاتجاه ، حيث خضع الى عاملين قويين لهما أثرهما البعيد في تطوره وتجديده هما :

- (أ) طبعة الجيل من جهة ^{الذي}
 - (ب) الأدب الرومانطيقى ^{قرأوه} في مدارس الاساليات من جهة أخرى .
- وقد كان لهذين العاملين أثرهما في أدب اللبنانيين . حيث بدا الاتجاه الى التجديد واضحا في ذلك الأدب ، كما بدا بصورة أكثر وضوحا في شعر الذين أدركوا حضارة القرن العشرين ، واتصلوا بأداب الغربيين ،

(١) انظر الأدب المعاصر في سوريا لسامى الكيالى . وانظر : من

وعرفوا بنزعاتهم التجديدية وفتنوا بحركة التفریب (١).

ولقد صورت الادیبة الباحثة - وداد سكاكنی - طبیعة أدب الشامیین فی هذه المرحلة فی بحث لها نشرته مجلة الثقافة المصرية منه قولها : (أدب الشام أدب عریس الوجه والروح ، وقد صقله الفن والتطور وظهرت علیه مفارس الوطن ، ولم یولد هذا الأدب ولادة ارتجال وانما فتحت الشام عیونها بعد الحرب العالمية علی حركة أدبیة جديدة ویقفظة ثقافیة ، یلفها شذاها من ضفاف النيل ، فودت لـ أتاح لها المصر منها مثیلا ، فكانت مثل سجون لم یجد أرفق - لنفسه وأقرب الی قلبه من أدب المصریین ، فتأثرت الشام بنهضتهم وضت علی غرارهم فی نشأتها الحدیثة ، وكم راجت فیها سـوق الأدب كصیدة قالها شوقی أو حافظ ولكتاب ألفه الرافضی أو المنفلوطی

وتضی قائلة : * كان فی تلك الاونة نفر من الشامیین متوربین لكل نهضة ، بعضهم عرف الغرب ، وورد مصر ورود النحل علی الازاهیر ، ثم صدر عنها فماد الی الشام ینشی* المجلات ینشر الصحف ویحاضر فی الجامعات والندوات داعیا الی نشر الثقافة والأدب ، وأسس المجمع السلسی المصری فی دمشق علی الفصحی وحفظ أمجادها وذخائرها ، فجمع بین لغوی مدقق وعالم فیلسوف ومؤرخ وشاعر أديب * (٢) .

* * *
- ٢ -

وهذا الذی ذكرت تلخیص وجیز للاتجاهات الأدبیة فی سوريا منذ الحرب الکبری الاولى وهو كما رأینا ، سیر وثید فی آفاق حائرة ، والتفات

(١) انظر - الرمزية والأدب المصری الحدیث أنطون غطاس کرم ص ١١٤ وما بعد ها

(٢) عن مجلة الثقافة المصرية عدد فبرایر ١٩٤٠ .

الى الماضى ، ووقف حذرة بين الحاضر والمستقبل ، أقرب الى التقليد منها الى الابداع ، يعيش الأدباء على تراث القدامى فى شفاف بما أبدعوه ، وفى محاولة الى تقليدهم ومحاكاتهم . ومحاكاة النماذج القوية التى كان ينتجها أدباء مصر المعنيون باحياء التراث ويمث القديم وقد ظلوا على هذا الاتجاه حتى شمرنا فى السنوات التى تلت سنة ١٩٣٠ وما بعدنا اننا ازاء اتجاهات فى الأدب تختلف عن الاتجاهات السابقة حيث طلع علينا جيل جديد من الشباب اليقظ المثقف ، الذى فهم الأدب بماقييسه الصحيحة وأنتج فى الشعر ، كما أنتج فى المقالة والقصة والدراسات الأدبية الحية . على النحو الذى بدا من الدكتور زكى المحاسنى الذى سنقف على أعماله الادبية بالتحليل والدراسة ، حتى تكون بمثابة التدليل على صحة هذا الذى قصدت ، وان كان هذا النوع من الابداع الادبى والنتاج الفنى لا يرقى الى مستوى الاداب العالمية الحية ، ما يمكننا أن نأهله ونفخر به ، كما ذهب الى ذلك الدكتور زكى المحاسنى الذى يرى أن أدبنا المعاصر غير جدير بالارتقاء الى المستوى العالمى ، أو الى درجة القياس به ، لافتقاره الى مياسم العالمية فى الاصاله والعمق والجدة والتأثير (١) .

ومع هذا نستطيع أن نجزم ، بأن هذا اللون من الادب قد تحرر من المبالغات والشموزات ، وثار على البيان والبديع ، وتخطى مرحلة الولوع بالقديم والافتنان به والتمسك بحرفيته ، وأخذ يقترب من الحياة ، ولم يعد هم الشاعر محاكاة المتنبي أو البحتري أو ابن الفارض أو البهاء زهير ، بل أصبح كل هم أن يصور خلجات نفسه ، ونزعات

(١) نظرات فى أدبنا المعاصر .

حسب ، وأصبح الشعر بعد أن كان ضيق الآفاق ، لا يعنى بغير
الشاحب من الأغراض أو الهزيل من المعانى - أصبح ينزع منزعا ساميا
ويقرب شمراؤه فيه من الآداب الحية .

وامتاز شعرهم بصفاء الديباجة وموسيقية اللفظ ووحدة القصيدة ،
وروعة الخيال وجمال الصورة وعمق الفكرة ، يصور عواطفهم ويترجم عن
تجاربهم ، ويعبر عن مثلهم العليا ، ويرسم صورة الاحداث التى انتابت
الوطن فى موضوعية وصدق ، مع بعد شديد عن الحماس الاجوف أو الشموخ
الحار المصطنع .

وقد تأثرت هذه الفئة وهى وليدة هذا التطور الى حد كبيره
بالاداب الغربية وبالحياة الاوربية ، وبالمقاييس التى وضعها زعماء التجديد
فى صروف المهجر .

ومن هؤلاء الشعراء نزار قباني وعمر أبو ريشة ، ويدوى الجبل وأمجد
الطرابلسى وزكى المحاسنى .

يقول الدكتور زكى المحاسنى مصورا هذه المحاولات التجديدية
التي بدت عند شعراء تلك المرحلة الادبية من مراحل تاريخ الادب العربى
المعاصر : (١) " لقد حاول شعراء مصريون ظهورا فى عهد شوقسى ،
أن يدخلوا التطور على الشعر العربى ، وكانت مجلة (أبولو) التى صدرت
عام ١٩٣٢ مسرحا لقرائحهم ، ففك الكثير منهم من قيود القوافى ، وحلوا
وحدة القصيدة فى الروى ، وضوا على غرار طلق فى أبيات سمحة متزاوجة

(١) فصول من الثقافة المعاصرة ص ٨١ وما بعدها .

القوافي ، ثم كانوا ينطلقون الى قواف ثابتة في القصيدة الواحدة * (١)

ومما لا مراء فيه أن صدى هذه المحاولات قد لاح في أفق بعض الشباب السوريين من الشعراء الذين وصفهم المحاسنى بقوله :
* ان لبعض الشعراء وخاصة الذين ظهوروا في السنين الاخيرة معانى صافية تسمو الى آفاق رفيعة وتثزل هذه المعانى في قوالب قديمة أو حديثة فتكسب زينة وجمالا * (٢) .

كما تأثر الشعراء في سورية بتلك الحركة الجديدة ، التي روج لها عديد من النقاد والشعراء في مصر والعراق ولبنان وغيرها ، وسميت باسم (الشعر الحر) ولقيت رواجاً واثبالاً من الشباب الذي لم يستطع أن يهضم الثقافة العربية القديمة ولم تسعف قريحته على أن يعبر عن ذات نفسه ، وخلجات حسه وقضايا وطنه في هذا القالب الفني الرتيب ، أو أن يودع نبضات حسه في أشكال فنية ترضى أذواق النقاد المعتدلين (٣) .

ولقد عبر المحاسنى عن ذلك في قوله : * لقد حاول شعراء فسي مصر وسورية ولبنان أن يقولوا ضرباً من الشعر سموها حسب مرادهم ونظموها كما بدا لهم ففهم ، ففي الشطر الاول كلمة وفي الثاني كلمتان ، وفي الثالث أربع ، ويؤلف كل ذلك وزن بهت واحد من الشعر وجروا فسي القصيدة كلها على هذا الطراز ، فلم يبدلوا سوى طريقة الكتابة لينقلوا القارئ من شطر الى آخر ورا* معنى البيت الذي يريدون .

(١) * (٢) المرجع السابق ص ٨١ و ٨٣ .

(٣) انظر البناء الفني للقصيدة العربية د . خفاجي وانظر اتجاهات الشعر

الحر لحسن توفيق والادب العربي المعاصر في مصر د . شوقي ضيف .

وصنع آخرون ثرا لا وزن فيه ولا قافية وأطلقوا عليه كلمة الشعر
لأنه شمرى المعانى عندهم ، وقد يحق لهم أن يصفوا ما يشعرون
حين تخلو الساحة من نقاد وفنيين ومن دارسين للادب ووضع لقواعده
الحديثة ... الخ * (١)

وهناك بادرة ثانية تستحق أن نشير اليها باعجاب وهى " فن
القصة " التى حاولها عدد من الادباء الشبان بجرأة ولباقة ، وحذروا
فيها حذو كهراء أدباء القصة أو الاقصصة فى الادب الغربية ، وان كانوا
لم يصلوا فيها الى المستوى الفنى الناضج الذى يضمهم فى صف اخوانهم
أرباب هذا الفن فى مصر ، بيد أنهم صوروا فيها بيئاتهم ورسوموا أخلاق
الناس وطباعهم الى حد ما ، وصدرت طائفة من الاقصيص تمتاز ببمدها عن
المبالغات والتحويل .

يقول المحاسنى : " .. غير أن النصف اذا بحث فى القصة
وضوب التأليف الادبى فى سورية وجد القصة أفضل الانواع الجديدة
التى يدركها التوفيق ويسند لها الفن الى حدود قد تقرب من التمكين
وطبيعة الفن القصصى تحتوى حياته فالفن القصصى منذ ولد وهب
على الدوام الحياة ، لان الحياة نفسها قصة كبيرة ، وهى تؤثر أن
ترى نفسها مكتوبة ومروية بأقلام الموهوبين وأسلتهم .

وتاريخ الفن القصصى بسورية ليس ذا عهد بعيد ، فانه قبس
شمسته تهب من نحو مصر ، ثم استعان لاذكاء هذه الشملة بالآداب

(١) نقال عن : فصول من الثقافة المعاصرة ص ٨٢ وللحاسنى رأى شبيه بهذا

الغربية ، وأغلبها الفرنسي ثم الانكليزي فالروسي ، وكان لشيوع الروايات السينمائية أثر بعيد في القصة المعاصرة ، وقد نالت القصة السورية المعاصرة رافدا من تلك الروايات ، وخاصة ما كان منها يخالطه التحليل النفسي ، ومهاجمات الحوادث المارمة في الحب والكراهية وفي معاطاة الجمال . وقد أولع الشباب المتأدبون بفنون القصة ، فكانت لهم محاولات لاضير عليها ، أما أساتيد الفن القصصي والمتمرسون فيهم بسورية فقلائل ومنتجوه أقل . . (١) .

كذلك نشط فن المقال الأدبي بين الكتاب السوريين ، وكان لظهور بعض المجلات اتى غيت بشئون الادب وقضاياها في سورية ولبنان - كمجلة الاديب البيروتية ومجلة المرفان ومجلة الرسالة وغيرها أثر في رواج مثل هذا اللون من الأدب .

كما كثرت المقالات التي غيت بالمشكلات القومية والوطنية والسياسية والاجتماعية ، واتيح لكثير من الكتاب والادباء السوريين أن ينشروا ثمار أفكارهم ونتاج قرائحهم في كثير من المجلات ذوات الطابع الاسلامي أو الوطني في مصر وغيرها من المجلات العربية ، كالرسالة والثقافة المصريتين ومجلة الازهر والاسلام ومنبر الاسلام والمصار في مصر ، ومجلة قافلة الزيت في السعودية ، ومجلة العربي في الكويت ومجلة الحديث في سورية ، وغيرها من المجلات الاسلامية والوطنية والثقافية والعلمية ، التي ذاعت في الوطن العربي كله ، نتيجة لتطور الصحافة في هذه المرحلة ، وكثرة الكتاب والادباء من اعلام هذا الفن (٢) .

(١) فصول من الثقافة لمعاصري ٨٣ وانظر : الادب العربي المعاصر في سورية ومن الادب المعاصر لسامي الكيالي .

(٢) انظر : الفنون الادبية وأعلامها لانيس المقدسي .

كما كثرت البحوث والدراسات التي غنت بالآداب العربية القديمة والحديثة ، واتجه عديد من الدارسين الى بحث أدبنا القديم وبحثه بحثا ، يقوم على التركيز وموضوعية المرض والدقة في الاستنباط والتأمل والاستنتاج . وذلك كما فعل المحاسني في سلسلة دراساته وبحوثه الادبية ، وكما فعل سامي الكيالي وسامي الدهان وأنيس المقدسي وغيرهم من أعلام الدراسة والتصنيف ، والبحث الأدبي .

ولقد كان للمجمع العلمي العربي في دمشق فضل كبير في المشاركة في نشر المخطوطات العربية وتحقيقها ، وكان من أقدر المحققين بسورية على احياء التراث بالطريقة العلمية والتعليق الدقيق ، الاستاذ سعيد الافغاني ، الذي عني بكثير من آثارنا الفكرية القديمة ، وعكف عليها بالتحقيق والدراسة (١) .

ومهما يكن من شيء فان هذا التطور الذي ظفرت به — الآداب العربية في سورية على عهد المحاسني — كان نتيجة اتصالها الوثيق بالغرب وآدابه من جهة ، وبمصر وأدب المهجر من جهة ثانية ، وبالتأثر بالقديم الذي توجهت الانظار الى احيائه وبمعه من جهة ثالثة ، وتلك سنة تطور الآداب ورقعها منذ القدم ، فالآداب العربية في كل عصوره تأثر بالحضارات المختلفة ، وجرى في شرايينه الدم الفارسي والهندي واليوناني والروماني كما أنه أثر في كثير من الآداب المالمية الحية (٢)

وهذا بالضبط ما التفت اليه الشباب الذين علوا على نهضة الآداب

والسير بها في الطريق الذي اختطه الامم الحية (٣) .

(١) د . زكي المحاسني في كتابه أحمد أمين ص ١٤٠ .

(٢) انظر الآداب المقارن للدكتور محمد غنيمي هلال والآداب المقارن للدكتور حسن جاد في مواطن متفرقة .

(٣) انظر من الآداب المعاصرة لسامي الكيالي ص ١٦٥ بتصرف .

وسوف نرى في دراستنا لآثار المحاسنى وأعماله الادبيية ،
الى اى مدى سار فى هذا الطريق ، وكيف أمكن لمان يوائم بين
ثقافته المربية القديمة ، وبين ثقافته الحديثة - التى تعددت روافدها
فى أعماله الادبية - شعرا ومقالة وبحوثا أدبية - فلقد أفاد من
الفكر الأدبى العربى ، كما انتفع بالفكر الغربى لاسيما - الفرنسى
منه - حيث سلك سبيل بعض المستشرقين المنصفين فى كثير من
دراساته ، واستأنس ببعض آرائهم الممتدلة ، ونقل عنهم كثيرا من
الأخبار المحققة ، والنصوص القيمة . وكان نموذجا فريدا للعقلية
المربية التى أمكنها أن تستوعب كثيرا من تيارات الثقافة والفكر ،
دون أن تحى شخصيتها أو تذوب أعاليها ، فى خضم الوائد أو فى
تيار الدخيل .

الفصل الثاني

حياة المحاسني

أسرة المحاسني ومكانتها العلمية والأدبية :

أسرة المحاسني ذات أصل عريق من بيت المقدس تنتمي إلى بنى تميم ، ولها نسبة علوية نبوية ، رحل جدها إلى دمشق عند فتحها كما ورد في مقالة العلامة المجمع عيسى اسكندر المعلوف (١) واشتهر من أبنائه - محاسن الشرايشي التميمي الحنفي ، وذلك في أثناء القرن السادس الهجري ، فنسبت الأسرة إليه ، وعرفت باسم " بنى محاسن " و " المحاسني " .

وقد أنبتت دمشق من بني المحاسني كثيرا من العلماء والأدباء فيهم القضاة والفقهاء والخطباء . كتب عنهم المؤرخون والباحثون في التراجم والأنساب والتاريخ والقضاء .

منهم المرادي في سلك الدرر " والبيطار في " حلية البشر في تاريخ القرن الثاني عشر والثالث عشر " و " الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام " للدكتور صلاح المنجد و " حوادث دمشق اليومية " للبيدي ، و " صفوة البشر " للشطبي و " تاريخ الأسر الشرقية " للمعلوف وغيرهم من أعلام المؤرخين والباحثين .

فمن آل المحاسني المتقدمين كان اسماعيل بن تاج الدين سبط . . الحسن البوريني المؤرخ الكبير . وكان اسماعيل أدبيا خطيبا ، علم في معاهد دمشق وفي الجامع الأموي طوال خمسين عاما ، وبرز في الشؤون (١) عام ١٩٢٤م وقد نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١٢ المجلد الرابع .

العامة أواخر القرن الحادى عشر ، وأوائل القرن الثانى عشر سجل خلالها حوادث تاريخية وأمورا اقتصادية واجتماعية فى مخطوطة محفوظة فى الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية • وقف عليها المحقق الاديب الدكتور صلاح المنجد ، ونشر صفحات منها لتضاف الى المصادر المتعلقة بتاريخ دمشق فى المهد الثمانى وذلك فى مجلة معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية عام ١٩٦٠ (١) .

ومن المحاسنيين المشهورين — سليمان بن أحمد ١١٨٧هـ — ١٢٢٤م مشى على خطا جده اسماعيل وكان شاعرا أدبيا ، وأما ما بمسجده بنى أمية ، استهواه التراث بمخطوطاته الدمشقية ، فكان يشتريها ليحصى فيها ويحقق بخطه ، ولم يفقل عما كان يجرى فى مدينته وعصره ، فشارك فى مناوأة المنحرفين وعرف متاعب السياسة ، لصد التمسف ، وقد سجل فى أوراقه حوادث الرعب والحصار ، بعد سقوط الماليك وجلათهم عن بلاده ، كما تولى النيابة والقضا ، وترك مخطوطات مبشرة فى خزائن الكتب • منها رسالتان تتعلقان بحوادث فى دمشق عرف خفاياها وقد اكشف احداها الدكتور صانح الدين المنجد ، مكتوبة بخط المحاسنى سليمان ، وذلك فى مكتبة جامعة " برنستن " وظهرت مطبوعة فى منشورات " دار الكتب الجديدة فى بيروت " .

أما الرسالة الثانية : فقد حيازة دمشقى كبير ، وقد لا تكون — النسخة الاصلية ، ولهذا الشاعر الاديب ، ديوان مخطوط يعرف بمنوان " كاش المحاسنى " وقد كتب عنه المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف مقالا فى

(١) المرجع السابق

مجلة المجمع العلمي المصري في دمشق ، ذكر فيه أن جامع القضاة فيه
هو ابن حفيد الشاعر سليمان ، الذي توفي سنة ١١٨٢ هـ - سنة ١٧٧٣ م

وفي صدر هذا الديوان المخطوط قال الشيخ محمد الفزى
المامرى الدمشقى :

إذا افتخر الانام بأرض شام وعدوا دورها ثم المساكن—
أقول مفاخرًا قولاً بديعاً محاسن شامنا " بيت المحاسن "

ويقول المملوك في مقالة له عن هذا الديوان ، الذى يضم ثمانيا
وسبعين صفحة من القطع الثمين الصغير ، بخط صاحبه الفارسى الجميلة
" تصفحت هذا الديوان فرأيت فيه أشعار بليغة ، وتواريخ شمسية ،
للكثير من الوزراء مثل أسعد باشا ومحمد باشا وعثمان باشا من آل العظمه
وعبدالله باشا الشبلى ، وهم من ولاية دمشق ، وأحمد بك العظم
من أعيان المدينة أما العلماء الذين مدحهم أو راسلهم ، فهم من
آل الكيلانى والمرادى والبكرى والعمادى وحزة والمالكى والمجلانسى
والسفرجلانى والحصنى والفتال ومكى وقواس ومنهنى وسمان .

وكذلك قضاة الشام مثل برادر عبد الله أفندى ومكوبى زاده محمد
سمعد الدين ، ودرزاده مصطفى أفندى ، وميرزا زاده السيد محمد أفندى
نقيب الاشراف بمدينة القسطنطينية إذ ذاك وقاضى عسكر السـروم
إلى سابقا وغيرهم .

وفيه تواريخ أضرحة وقاعات ودور وقلاع ومواليد وختانات ووظائف
وحوادث ، وكلها من الشعر الرقيق ، مع بعض تخاميس وتشايطير وموشحات
ولم نجد من هذه المنظومات فى ترجمته بسلك الدرر للمرادى الا قليلا .

ومما لم يرد في ترجمته تعريبه لمعنى فارسى اقترحه عليه قريبه
مصطفى السفرجلانى في أبيات رشيقة ، منها قوله يؤرخ صلح المدينة
في زمن أسعد باشا العظم سنة ١١٢٠ هـ .

عام المسرة قد بسدا في حسن مشرقه ومشرق
نصر المدينة أسعد قد أرخوه حميت يثرب

ومن نماذجه قوله يؤرخ نسخة (لفردات الراغب) سنة ١١٦٦ هـ :

نخر الكتاب على يدي طوبى لمحسن كلامه
وبين عام قد أتى أرخته مسك ختامه (١)

على أن هذه المدينة العربية المريقة بقيت تعد من آل المحاسنى
أوبنى محاسن ، على ترادف الاجيال وتماقب السنين ، قضاة فسى
الشريعة والقوانين وأئمة في الحديث والتدريس والخطابة ، حتى جاء عصرنا
وكشفت المخطوطات التي نشرت فيه عن هذه المشاركة القديمة في حياة
دمشق وتاريخها ، فلا بدع اذا اتصل الابناء في زماننا بما قام به الجدود
ليسيروا على عداهم .

ففي الربع الاول من هذا القرن ومات له ، لمع من هذه الاسرة المحاسنية
الاصيلة ، الملامة محمد المحاسنى شيخ القضاة في دمشق ، ثم تبع ولده
القاضي الكبير الاستاذ فؤاد المحاسنى المحامى اليوم — والذي عرفته
المحاكم العليا والقضايا الوطنية ، ولا يزال في مسامع الجيل المثقف من
الحقوقيين اسم سميد المحاسنى ، الاستاذ الجامعى في القوانين والمحاماة .

(١) نفع المرجع السابق ص ٥٥٦ وما بعده وانظر كتاب حية وذكرى بقلم
لفيف من الادباء والكتاب ص ١٢١ — ١٢٣ .

برز في زماننا الشيخ التقى الصالح محمد صالح المحاسنى عليمًا
بدقائق الأحكام الشرعية ، والآثية والفتوى ، حافظًا للقرآن الكريم راويًا
للشعر والتاريخ المعاصر .

ولكم سمى الدكتور زكى المحاسنى - صاحب هذه الدراسة - السى
المخطوطات المحاسنية لعله يصل الى الجدير منها بالنشر ، لكن مشاغل
الحياة والدراسة وتأمين المميشة كانت تصرفه الى حين عن تحقيق رغبته ،
فعهد الى اولاده أن يقدموا عنه بما فاته القيام به .

وكريمتا الدكتور زكى المحاسنى " ذكا " و " سماء " مختصتان بفن
الوثائق والمكتبات من جامعة القاهرة وقائمتان بتبجمات فى الكتاب ...
والاختصاص بمكتبة الجامعة ، وفى دار الكتب الظاهرية بدمشق - لا بد
أن تنهضا بهذا الفن ، أو تتفرغا احدهما للتحقيق فيما يروقاها من
المخطوطات المحاسنية ، بعد البحث عن القيم النافع منها ، أو التراث
والصادر التاريخية ، التى تمرست بها ، وفاء منها ومن أهلها لذكرى
أبيها وتحيات لروحه الزكية (١) .

- ٢ -

نشأته وثقافته :

ترجم المحاسنى لنفسه فذكر تاريخ مولده مكفيا بالمام الذمولى فيه
دون ذكر اليوم والشهر ، كما هو المتبع فى التاريخ الدقيق فقال : " نسلنى
والدى " شكرى المحاسنى " سنة ١٩٠٩ ، وكان من كتاب المحكمة الشرعية فى
دمشق ، وقد توفى وعمرى سنتان ، ولم يترك لى صورة أراه فيها ، فألمنى

(١) نفس المرجع السابق ٥٥٦ وما بعدها وانظر كتاب تحية وذكرى بقلم
لفيف من الادباء والكتاب ص ١٧١ - ١٧٣ .

فقد خياله وان كان باهتا من وجهه الحبيب ، فعمشت يتيما ترعانسى
أمي الحنون ، ويحدث على عمي أخو والدي ، فكان يرد في رعايته ، ما كان
صنمه له وهو صغير * (١) .

ومن يتلى بحنة اليتيم منذ حداثة يصاب غالبا بنكسة ، ربما
غيرت مجرى حياته وعرضته للانحراف أو الضياع ، إلا إذا أتيحت له
يد حانية تسد خطاه وتأخذ بثأره من كافليه وأوليا أمره ، فينشأ
إذا كان موهوبا مثزنا ، نابها نابها ، بحسب الفكر والانتاج ، ويبقى
له مكانة رفيعة بالمجتمع ، ويشق لنفسه الطريق المفضل لديه في
الحياة ، ولكنه يظل يشعر بمرارة اليتيم وتجيش في نفسه مشاعر
الحزن من آن لآن ، وان كان هذا الشعور يدفعه في كثير من الأحيان
إلى الاعتماد على النفس والتطلع إلى النبوغ .

وهذا ما كان من شأن الصغير زكي المحاسني ، الذي فاجأه اليتيم
طفلا ، وكان حافزا له في أن يعتمد على نفسه في تحقيق آماله ، بل كان
وهو صغير يتيم ، يمتزم أن يسير على خطا أهله وجدوده ، الذين
كان منهم الملما والقضاة في دمشق على نحو ما ذكرت ،

التحق المحاسني بمدرسة " تطبيقات عنبر " منذ عام ١٩٢١ ،
وكان يسمى (مكتب عنبر) وهو المعهد الحكومي الكبير ، الذي خن رواد
الفكرة العربية وطلّاع النبوغ في العلم والأدب (٢) .

(١) الشاب الظريف ص ٩ ١٥ وما بعدها للدكتور زكي المحاسني .

(٢) انظر مقالة جيدة عن هذا المكتب في مجلة الملمى العربي للمؤرخ
المجمع
عيسى اسكندر المعلوف .

وعرف بين أقرانه ولداته منذ التحق بهذه المدرسة ، بالذكاء
والالمية في الدرس والتحصيل ، كما عرف بينهم بنبل الخلق وعون اللسان
عن الأذى ، ولهذا أحبه أساتذته وأصدقائه وزملاؤه . وكان ———
أساتذته كالشيخ — محمد الداوودي وسليم الجندی ، وعبدالقادر المبارك
يسددون خطاه ، وينيرون له سبيل الوصول الى غاياته المثلى .

فولدت هذه الحوافز في نفسه الهمة والامح ، ولذا كان
مشارا على المطالعة والكتابة ومتابعة التحصيل .

يقول الاستاذ حسنى كتمان : كنت أسمع منه دائما ، وهو
صغير جملة يردد ها " سأنبغ يوما " . . . ، وقد ساق هذه الكلمة
على لسانه ثقته بنفسه ورجاؤه بمستقبله " (١)

وفي هذه الاثناء كان قد دفعه طموحه ، وميله الأسمى المبكر
وتوجيه أساتذته له ، الى الاطلاع على الروائع الادبية ، فصرف طريق المكتبات
ويم وجهه شطر المكتبة الظاهرية ليفور في لآلئها وكوزها الدفينة ،
ولا يبرح مكانه فيها ، الا بعد أن يتمم في المطالعة ، ناسخا في دفتره
ما يفيد منها وكثيرا ما كان مشارا الحسد الرفاق والاقران ، وقد ولدت
فيه القريحة حب الاطلاع ، والتعبير وانشاء المقالات ونظم الشعر ،
والقاء في المدارس والندوات .

وفي جولة تفتيشية اجراها الاستاذ محمد كرد علي — وزير المعارف
السورية ، ورئيس المجمع العلمي العربي في دمشق على المدارس ، قدم له

(١) من بحث قيم عن المحاسنى الشاعر بقلم حسنى كتمان نقلا عن كتاب تحية

وذكرى ص ١١٥ وما بعدها .

الاستاذ سليم الجندى نماذج من عمل الطلاب ، الذين توسم فيهم خيرا
فتلس الوزير العالم بشائر النبوغ ب تلك البراعم المتفتحة ، وبعد حين
أقام الوزير الرئيس محمد كرد على ، حفلا تكريميا لهذه البراعم —
الشعراء الناشئين ، الذين كان من الممهم — زكى المحاسنى — وأنسور
المطار ، وجميل سلطان ، وعبد الكريم الكرمى — ، وقدم الوزير نفسه ،
كلا من هؤلاء الناشئين باسمه وعنوان قصيدته ، وعرف بأسرته وتاريخها
فى مجال الفكر والادب — وأسرة المحاسنى معروفة بمن أنجبت —
الشعراء ، الذين ذكرهم مؤرخون دمشق ، والخطباء ، والأئمة فى المسجد
الأموى وغيره كما قدمنا —

وكان لهذه اللقطة الكريمة من الوزير ورئيس المجمع ، أثر كبير فى
نفوس الشعراء الناشئين وأصحاب الفكر والعمل .

وعن هذا النبوغ الذى عرف به مبكرا يقول الاستاذ طاهر القاسمى
" فى أواخر العشرينات كان يلتقى أربعة من الشباب ، نذروا أنفسهم
للعلم والأدب ، وعشقوا الفصحى حتى كادت تكون لغتهم الوحيدة فى
الخطاب ، ونظروا الى الحضارة العربية نظرة التقديس ، وأخذوا من
أسباب الثقافة الحديثة ، بنصيب تفوقوا معه على الاقران هم : سليم
القاسمى ، وزكى المحاسنى وعبد الحليم الملمى وحسن المشا ، كان لقاءهم
يقع فى بيت أحدهم أو أحد المتنزهات وربما آثروا سفح قاسيون على
غيره فى ليالى الصيف ، ينعمون بهوائه الطلق ، وبهذا المنظر الخلاب ،
الذى يرون فيه عاصمة الأمويين ، تمتد تحت أقدامهم وهم يتذاكرون
ويتناقشون ويتمارحون " (١) .

(١) من بحث له عن المحاسنى بمنوان — المحاسنى فى نبوغه ورفقته نقاد عن تحية
وذكرى ص ١١ وما بعدها .

وفي هذه الأثناء كان قد عرف طريقه الى الصحافة ، حيث تمسقى
كتابة المقالة ، وتديج الشعر توازره ملكته الطيبة وموهبته المتمرسـة
يقول الاستاذ سامى الكيالـى عن المحاسنى : " .. وقد عرفته منذ اصدار
مجلة " الحديث " سنة ١٩٢٧ ، فما هى الا سنوات ، حتى أخذ يوافيها
بشعره ومقالاته ، واذا هو صورة حية من الاديب النابغ ، السذى
جمل الادب أجمل هواياته ، بل جملة شغله الشاغل فلا تمر دقيقة
دون الافادة من كتب الادب وما يكتبه . أعلم الفكر ، يتابع الحركة
الادبية المتطورة باهتمام " (١)

كما تحدث المحاسنى نفسه عن ولوعه بمشاهدة ما تحمله المجالات
الأدبية المتقدمة من مقالات وفصول وبحوث ، فى مقدمة بعض كتبه كقولـه :
" .. كنا على الحداثة ومستهل الشباب نتصل بأدباء بلادنا وشعرائها
الفابرين والمعاصرين ، ثم نلتفت الى حركات التجديد والتطور ، التى
كانت تتوالى على صُفـاف النـيل عـنيفة صاخبة ، أو هادئة متزنة ، وكان
من دأب صحافتنا العربية السورية أن تنقل للقراء والشباب المثقف
والمتملم صور هذه الحركات ، وصدى ما تضمنت من أفكار وآراء ، فكان
اسم الدكتور طه حسين يدوى فى السامع والمحافل ، لما أثارته بحوثه
الثورية فى الادب وفى الحياة السياسية والقومية .

ولم تفض الاعوام طويلا حتى طلع اسم أحمد أمين العالم العربى
والاسلامى بجديد مرتقب فى دراسة الحياة العقلية خلال العصور الاولى ،
فشاقنى تبمس لهذين العلمين الخفاقيـن أن أقف على نتاج كل منهم ،

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ١٢٣ من بحث عن المحاسنى للاستاذ حسان
الكاتب ص ١٢١ - ١٢٢ .

وأنا في بلدي وجامعتي أتناول مع أترابي مقالات كانت تنشر لطفه حسين
وأحمد أمين ، فلتبين فيها ملامح وشخصية كل منهما بمقدار ما أوتينا
من نوع وثقافة * (١) .

وقد أشار كذلك في أسهاب إلى مجلتي الرسالة والثقافة المصريتين
وأثرهما في تنمية ثقافته وصقل مواهبه * عن طريق ما كان ينشر فيهما من
بحوث ومقالات أدبية ونقدية وإسلامية وقوية (٢) .

ولقد هاجر المحاسني ، وهو نائب بالمدرسة التجهيزية بدمشق
عام ١٩٢٦ ، أثناء الثورة السورية على الاستعمار الفرنسي إلى فلسطين فمضى
صحبة والدته ، حيث كان يقيم فيها أهلها ومنهم الزعيم والمحامي الكبير
خليل جبري ، فأقام في ضيافتهم مدة ، عمل فيها كاتباً صحافياً بمجلة
- الصراط المستقيم - لصاحبها الشيخ عبد الله القلقلي ، مفتي الأردن
سابقاً ، ولما عاد إلى مدرسته في دمشق ، كان من المجلدين اللامعين
في الدرس والشعر والكتابة في الصحف .

ولكن حبه للأدب والشعر والصحافة ، ينعزم ذلك كله من الاطّاع
الحر ، الذي لا يعرف القيود أو الحدود ، لم يصرفه عن المضى قدما في
سبيل تحصيل علومه ومعارفه المحدودة بحدود المناهج الدراسية المقررة
آنذاك ، حتى حصل على شهادة - البكالوريا - من تجهيزية دمشق ، وكان
من أوائل الناجحين فيها ، وفي أول دوراتها بسورية سنة ١٩٢٧ .
(٣)

-
- (١) مقدمة كتاب - أحمد أمين - للمحاسني ص ٧ .
(٢) انظر ص ٨ ، ٩ من المرجع السابق وانظر مقدمة كتابه عن - عبد الوهاب عزام .
(٣) الشاب الظريف ص ١٦٠ .

ولا أدري لماذا آثر المحاسنى الاتجاه الى دراسة القانون والانتظام
فى سلكه بعد حصوله على شهادة البكالوريا ؟

أهو 'حب القانون ومحاولة التخصص فيه خدمة لميزان العدالة
والدفاع عن الحق ، ونصرة المظلوم وتبني قضية الدفاع عن وطنه
المحتل آنذاك ؟

أم السير فى نفس الاتجاه الذى نبغ فيه كثير من نابهي أفسراد
أسرة المحاسنى ، ممن درسوا القوانين وبرزوا فيها ، وكان منهم القضاة
والمحامون ؟

أم أن ذلك لا يتنافى وموهبته الادبية الشابه ، التى تمرست فى
قرض الشعر وانشاء المقالة وتصنيف البحوث كما سنرى ، واعتزاه الانفاة
بعلوم القانون على تنظيم فكره وتنسيقه وترتيبه ، وهو ما يقتضيه المممل
الادبى الجيد ؟

وان كان الأديب الشاب - فيما نرى - ينبغى ألا يخضع لحرفية
القانون وحمية النظم واللوائح ، بل هو حر طليق ، كالطائر الفرد ،
يفنى بما شاء لمن أراد ومتى أراد ، شريطة أن تنبثق تجاربه من
أعماقه هو ، لا أن تملأ عليه من خارج تلك الاعماق ، حتى لا ينسأى
عن صدق الفن ، ويكون بمنجاة عن التقليد الزائف ، أو مجارة الآخرين
فى مشاهيرهم وهو ما تلفظه طبيعة الادب الحى الخليق بالخلود والاعجاب .

ولقد درس القانون وتخصص فيه كثير من رواد الفكر والادب ، فى
عصر النهضة الادبية الحديثة فى وطننا العربى ، وحصل بعضهم على
أرقى الاجازات العلمية فيه ، ومع هذا لم ينصرفوا عن انشاء الادب وابداه

أو تذوقه ونقده وتوجيهه • ومن هؤلاء في مصر الدكتور محمد حسين
هيكل صاحب الآراء الثورية في الأدب • ومن اشتهر بكتاباته
عن كبار الادباء والنقاد والمفكرين في الغرب وفي الشرق • كما أنه
واحد من الكتاب الاسلاميين الرواد في أدبنا العربي المعاصر •

ومنهم كذلك الكاتب الكبير توفيق الحكيم • الذي أثرى المكتبة
العربية بقصصه ورواياته ومسرحياته ومنهم أمير الشعراء في هذا
المصر - أحمد شوقي - وغيرهم • من قادة الفكر والادب • قد يكون
هذا كله صحيحا • وقد لا يكون •

وعلى أية حال فلقد التحق المحاسنى بكلية الحقوق بدمشق
أثر تخرجه في المدرسة التجهيزية • مع استمراره في الإبداع والانتاج
في مجال الشعر والكتابة • حتى حصل على الاجازة الجامعية
وعمره اثنتان وعشرون سنة (١) •

ولقد ألم بالمحاسنى بعد تخرجه حادث روعه • وضاعف
من تباريح الحزن في نفسه • هو موت والدته • التي كانت وراء نبوغه
وتفوقه • تكلأ بمطعمها وتشمله بعنانها • وتهدى له أسباب التبريز
والفوق • يقول المحاسنى : * توفيت أمي قبل أن تذوق من كسبي
ما ينسبها مرارة الليالي التي سهرتها من أجلتي • فعمشت بعدها
باكيا عليها في شمرى • وكانت حنوننا رؤما • ولن أستطيع أن أنساها
حتى أموت • واني لاحيا كل يوم ناظرا الى محياها الباسم من وراء
الغيوب (٢) *

(١) تحية وذكرى ص ١٤ •

(٢) مجلة الأديب •

ولقد كان المحاسنى باراً بأمه ، وفيها لها ، لا يفتأ يذكرها
فى شعره ، معترفاً بفضلها عليه ، وقد ألهمته فجيمته فيها صدق
المعاني وحرارة المشاعر .

ولنستمع اليه يصور هذه الفجيمة بقوله من قصيدة طويلة
بمعنوان - خيال أمى (١) -

أيا أم مايمسى لديك المودع ففى كل يوم من لقاءك مرجع
مضى الدهر كالأمس الذى كان عندنا وعيناي ما فاتتهما فيك أدمع
وللحزن زهر والمدامع ماءؤه وهذى أزاهيرى بروضك تطلع
أنا جرتى فى الحلم قد كنت قانعا بلمحك خلف الجفن أهفو وأسمع
أنام لألقى وجهك الحلوى الكرى فأحسب شملى بعد نايك يجمع
فما بال أعوام تمر ولا أرى خيالك مهما رقت حين أهجع
على مضجعى صورة لك علقت وفى القلب لمحات لها منك تطبع
أطيف بها بالعين والنفس مثلما تعبد مشبوب العبادة مولع
نموت يتيماً واحتسبت مرارثى وأنشأتنى بالحزن والدار يلقع
وحين اتيح الحظ فى ظل نعمة عليها شبابى الطلق والميش معر
تفسيبت فى الدهر الطويل ولوعتى على العمر لو أنى لديك أسرع . . .
ولعل هذه الأبيات الأخيرة توثقنا على سر ما انطوى عليه المحاسنى
من شعور جزين ووجدان دافى ونفس حساسة شفاقة . فى مواجهتها
الحياة وشموها بالمسئولية (٢) .

(١) مجلة الاديب .

(٢) للاستاذ أنور الجندى استنباط قريب من هذا انظر ص ٧٨ من كتاب
تحيتوكرى .

ومن شعره فيها كذلك قصيدة عنوانها — سارة المشجدة (١) —

وسارة هي أم الدكتور زكي المحاسني ، منها قوله :

كم سألت النشور كيف يحين	واستدارت على السؤل الظنون
أنا أوصيت أن أبيت على قصر	بك في ضجعة تراها حنون
سفع قيسون يحتويك ومن لي	ببقاء الجبال حيث تكسون
يوم تغدو مثل الهباء نثيرا	حينما جن في الوجود الجنون
لو يصح الحلول خاطبت نفسي	فأجابت عنها وراحت تبيحون
كلما ثوب المزدن في الفجـ	ر تمادي بين الأذان السكون
فكان الأرواح تصفي اليه	فوق أبراجها عليها الشجون
أين يا أم روحك الليل تسري	أين في الجو برجها اليمون
أطبق النجم جفنه وسهادي	مستبد ودمع روي هتون

المحاسني في الحمامة

عمل المحاسني بالحمامة اثر ظفره باجازة الحقوق من جامعة دمشق ولكن هذه المهنة لم تصرفه عن قرض الشعر والاشتغال بالادب ، يقول ظافر القاسمي في بحثه الذي نشره عن المحاسني (٢) : " وتضمن شهور لا أدرى عددها فالتقى بزكي المحاسني في أروقة محاكم الصلح — كنت يومئذ مازلت طالبا في مكتب غير — وكان هو معاميا ناشئا ، فبالمسنى على عدد من مجلة (الهديث) التي كان يصدرها سامي الكيال

(١) مجلة الاديب * وقد توفيت بدمشق ١٩٣٣ .

في حلب ، وفي هذا المدد قصيدة له حفظت منها على الفور منها :
أما الحدود فانها تفاح والريق في هذي العباسم راح
وعلى الطريق أوانس فتانسة خطواتهن على القلوب جراح

وإذا كان حظ الأدباء في شرقنا العربي قديما وحديثا قد قضى
كما يقول المحاسني - أن يكون رزقهم موصولا اما باعتراف التلميذ
أو الصحافة (١) . فانه لم يدم طويلا في مهنة المحاماة ، التي لم
تتفق مع هيامه بالأدب ومتابعة حركات تطوره وما يلزم ذلك من قراءات
وإطلاعات طليقة غير مقيدة .

ولقد تحدث هو عن هذا التحول في حياته بقوله : " ولم أكن
أعلم وأنا أمارس المحاماة في دمشق أن قدرا سيغير مجرى حياتي وعلى
وأنا في مقتبل الشباب فتركت المحاماة والتمس بالقانون ، بعد أن قضيت
في عالمها سنتين ، ناحيا منحي الأدب الذي كان يجتذبني على مقاعد
الدرس والمحاضرة في جامعة دمشق (٢) .

المحاسني المعلم :

ظهر المحاسني بأجازة الآداب عام ١٩٣٦ من الجامعة السورية ،
وعين أستاذا للغة العربية وآدابها في انطاكية ، ثم في مدرسة التجهيز
الأولى بدمشق حتى عام ١٩٤٣ . وأتيح له منذ ذلك الحين ، أن يمارس
هذه المهنة التي تمشقها ، والتي لم تباعد بينه وبين ما شغف به منذ حداثة
وهو قرض الشعر والاتصال بالصحافة .

(١) في المبعث الذي عقد من إبراهيم طوقان المعلم في كتابه عنه عن ٣٢ وما بعد .

(٢) عبد الوهاب عزام عن .

وقد كان محمود السيرة وديع الخلق بين تلاميذه الذين ألفوه وأحبوه فيه دماثة الطبع وطيب النفس ، وحسن المعاملة والاخلاص في العمل ، وتسديد خطى أبنائه من الطلاب وتوجيههم لما هيئوا له واكتشاف المواهب الشابية وحسن تعهدها .

ولعل ما يصور ذلك كله ما سجله واحد من تلاميذه الأوفياء هو القصصى الأديب الدكتور بديع حقي ، في فصل له نشره (١) عن المحاسنى بعد وفاته ، ونقتطف منه قوله : " كنت قد استشرفت السادسة عشرة من العمر ، حين عرفته لأول مرة معلما لي في الصف الثامن من مكتب تجهيز غنبر ، وامتدت نظرتي - شعاعا مستطلما بين حزمة الأشعة المتشوفة الشاحصة من عيون رفاقي .

وكان رعدة إلى الدلول ، يمشى في حيوية الشباب وغفوانه ، إلى كرسى قابض خلف المنضدة .

وكنا وقفا فأشار بيده إشارة تحملنا على الجنوس ، وتبادلنا همسات متضخبة يسميره : ان حملم اللفظة العربية هذا ، هو فيما يبدو معلم رقيق العاشية ، لذيذ ، بذلك تشي قسما وجهه الطيب السمح .

وأجال معلما نظرة في تلاميذه ، واقترحتني نظرتي العابسة ثم ارتدت إلى ، كأننا انست شيها بمشخص يعرفه ، فسألني عن اسمي ؟ قلت : بديع حقي .

- وما قرابتك بالدكتور وحيد حقي ؟

- انه أخى .

(١) نقلا عن كتاب تحقيق ذكرى س ٥٣ وما بعدها .

- وأين هو الآن ؟

- انه مفق بالعراق • مضى اليه اثر الثورة السورية • لانه كان
يمالج الثوار الجرحى •

قال : كان أخوك رد الله غريمه • ومد في عمره • أستاذنا في صف
الفلسفة • وله فضل كبير على • أرجو أن تبلغه حين تكب اليه • تحيات
تلميذه زكي المحاسني • وأتمنى أن تصحى مثله في العلم والخلق
والوطنية •

كما يقول : " وكان فمه وعيناه • تتجاذب ابتسامة طلية • مرحة
لا تألو معانيها تتوالت من الشفتين الى الجفنين • فيبدو اما حذر
نظرة ناعمة • مستظرفة الى طلابه • كأنما يمس لهم بانسان عيني •
وتظل هذه الابتسامة لصيقة بشفتيه • ليتراءى وجهه في أغلب
الاحيان • مستبشرا • حتى اذا الت به أحيانا • سحابة مكسدة
ليقطب ويرى ما بين حاجبيه • لم تستطع أن تتهيف من البشمر
الممهود المشرق في محياه • ان سرطان مايفى • الاهتمام السي
فه • وتنجاب السحابة الجهمة • ويتهلل وجهه سعادة ورضا •

ويصف درسه في الأدب بقوله : " وكان درسه في الادب ثمرة
خالصة لاتنفذ لطلابيه • وكان يمنح ما قرأ وطالع وحفظ أجوده
وأحلاه • يتنخله لنا ليسطه بين الحين والحين معلقا شارحا •

وأذكر أن المتنبي كان أكثر الشعراء حظا بما ادخرتهم
حافضة معلمنا ووجهه من شعر أبي الطيب • فكان دائم التمثل بمختارات
من أبياته الذائعة المائدة المشهورة • يملئها علينا ويحملنا على
حفظها والاستهاد بها •

" أذكر الآن صوته الندي ، وهو ينشد الشعر ، كيف كان يبدأ خفيضا ، ثم يملو مترنا ، هازجا وعيناه الحالمتان تواكبان الصوت المرنان ، كأننا نهبان له ألقا واشراقا ، حتى اذا استوفت القصيدة نصيبها من التالوة ، تخافت الصوت الصافي شيئا ، فشيئا واستقرت في الاسماع نشوة مستحمة ، مسحورة تتمنى المزيد " .

" وكان رحمه الله أول من شجعني ، وأخذ ييدى الى ضاهل الأدب الصحيح ، ودلني على ينباع الشهية السخية من أدبنا القديم والحديث .

وكان يردد لي كلمة لا تنى تفازل سمى :
ستضحى يا بديع ذات يوم كاتباً " . الخ

وهذه الفقر التي اقتطفناها من مقالة بديع حقي - تلميذ المحاسنى توقفنا على مدى تهيب المحاسنى للضطلاع بتلك المهمة الجليلة ، التى ارتضاها مهنة له ، كما تبين كيف أدى رسالته كاملة ازاء الاجيال التى تماقبت عليه ، معلما لهم بمحضهم وده ، وبصطفيتهم برعايتهم ، ومعلمهم بحسن توجيههم وجميل قصصه ، ويزودهم بثقافته التى وعاهها نتيجة تحصيله الدائب وعلمه المتصل وسميه المستمر .

وما لاشك فيما أن المحاسنى قد صنع جيلا من المشققين الذين تتلمذوا عليه ووعوا دروسه وتقبلوا خطاه ، وربما حبب كثيرا منهم فى الادب وصناعته وايداعه وتذوقه ، كيف لا وهو الشفوف بقراحه ، والاولون بانشائه ؟

ولقد كانت كلمته التى وجهها لتلميذه بمثابة اشارة له واتسراج عليه ، أن يهب حياته للادب والكتابة والتعمس به يقول بديع حقى -

" كانت هذه الكلمة تفهم نفسى اعتزازا وهناءة ، ولم أكن أقتصر على وظائف الانشاء التى كان يطلب الى تلاميذه كتابتها ، فقد كنت أعرض عليه ، ما أقرض من شعر ، أو ما أكتب من قصص ، فلا يرضن على بالنصح ويتيح لى من فضله وإرشاده ماأنا له ذاكر طول العمر " .

روافد ثقافته :

وبعد هذا كله يمكننا أن نتمثل ثقافة المحاسنى وروافدها فيما يأتى :

- ١- ثقافة عربية قديمة مصدرها تلك العلوم والمعارف الادبية واللغوية والفكرية التى وعها منذ طلعت عينه على معاهد العلم ، ينهل من معارفها ويستمرى ثقافتها تلميذا فمعلما . ولقد كان صدى هذه الثقافة قويا فى أدبه وبحوثه ودراساته الادبية .
 - ٢- ثقافة عربية حديثة مصدرها هذا الشراع المنبثق ، الذى طلسم عليه من مصر وغيرها ، ممثلا فى تلك المقالات الرائعة والبحوث الرائدة ، والفصول المصنبة ، التى حملتها الصحف والمجلات الادبية كمجلة الرسالة والثقافة المصريتين ومجلة الحديث الحلبية وغيرها ، وكان المحاسنى نموذجا للعقلية العربية التى وامت بين الثقافتين فى اعتدال .
 - ٣- ثقافة فرنسية مصدرها تلك الدروس التى تلقاها بالفرنسية على أيدى أساتذة متخصصين فى دراسته المتوسطة والعالية ، والتى ظهر صداها فى بحوثه ودراساته وفى كثير من أعماله الادبية .
- فلقد أخذ عن كثير من الدارسين والادباء الفرنسيين والمستشرقين ونقل عنهم بعض آرائهم ، وناقشهم فى كثير منها ، كما اعتمد على العديد من المصادر والمراجع الفرنسية فى بحوثه ودراساته .

وذلك كما فعل في كتابه عن - أبي نواس - الذي ذكر فيسه
مجموعة من الشعراء الفرنسيين مثل بول فاليري ورامبو وهوجو وغيرهم
وبعد تفسيره بعض الظواهر الادبية في شعر أبي نواس وسيرته ، كما
وازن بينه وبين " بودلير " الذي اشتهر بوصف الخمر والحديث عنها
في شعره كما فعل أبو نواس .

هذا الى أنه استعان ببعض آراء علماء النفس من الفرنسيين
في تحليل وتفسير الشذوذ الذي بدا من أبي نواس .

وليس هذا فحسب ، ولكنه تصدى لترجمة الروائع من الادب ..
الفرنسي ، ونشرها في بعض المجلات الادبية كمجلة الرسالة المصرية ،
ومجلة الاديب اللبنانية .

ومن آثاره في ذلك : ترجمته لديوان " هدى البير أديب " وعنوانه
" بارانتير " ويضم قصائد بالفرنسية في ثمانين صفحة ، وقد عرّفه
المحاسني في ترجمة دقيقة . وكتب عنه دراسة واقية نشرها في مجلة
الاديب (١) البيروتية .

٤- اتصاله بالصحافة والمجلات ، منذ فترة مبكرة من حياته ، مكّنه
من أن ينشر على القراء قرائح فكره ، وأن يطلع عليهم بعصارة
وجدانه ، وجل هؤلاء من المثقفين الواعين والادباء الموهوبين ،
أو النقاد الذواقين ، وقد دفع به ذلك الى أن يوجد ما يكتب ،
ويتنخل ما ينشر ، ويصطفى ما يذيع ، وذلك كله ، يتطلب بذل الجهد
في الاعداد والتحرير والتنسيق ، بالإضافة الى وفرة الاطلاع وكثرة القراءة .

(١) انظر مجلة الاديب عدد ابريل ١٩٦٩ .

م - حرصه المبكر على أن يؤم مجال الأدب وندوات الفكر والثقافة
وأن يعاود غشيان النوادي الأدبية التي كان يمشدها الأدباء
والصحفيون والمثقفون في سوريا ولبنان ومصر وغيرها من بلاد
العروبة - كما سنرى - قد ساعده على مجاراة التطور الفكري
والأدبي ، الذي راج رواجاً ملحوظاً في هذه المرحلة التي عاش
فيها المحاسني .

٦ - تنقل المحاسني - بحكم عمله - بين عواصم الاقطار العربية
والأوروبية وغيرها من المدن ، أتاح له مشاهدة كثير من الأماكن والتواوير
ومخالطة عديد من قادة الفكر ورواد الأدب من العرب والمستشرقين
وهذا فيه ما فيه من عقل الحصيف تهذيب الفكر والشعور ، وتوسعة
الآفاق وتنوع المشاهد (١) .

(١) انظر كتاب (تحية وذكرى * في مقالات وبحوث عديدة أشادت بثقافته
الواسعة ، ونهبت على مصادرها .

٣- تأثيره وتأثيره :

أ - في لبنان :

وصف سميد عقل أحد الشعراء اللبنانيين : طبيمة لبنان الساحرة وجوها الفاتن بقوله " اذا اتفق لشمس أن يوجد في بلاد ذات طبيمة جميلة ومختلفة ، بلاد تنص بالجيال المختلفة بالألوان " هنا الاخضر ، وهناك البنفسجي ، فالأدكن فالأحمر فالأبيض ، بلاد تهدر فيها الانهار ، وتموت على أقدامها الخلجان ، يحمرمر شفقتها كالخدود ، وتزورق سماؤها كالعيون ويصخب شتاؤها بالفضب ويموج ربيعها كطلى المروس ... الخ (١) .

وكانت هذه الطبيمة المواتية ذات أثر في الأدباء اللبنانيين الذين كانوا أكثر انقيادا لموجات التحرر ونزعات التجديد ، وقد تركوا آثارا أدبية وثقافية ذات قيمة في هذا الميدان ، حيث تضافرت طبيمة بلادهم الساحرة ، وطبيمتهم الذاتية التواقة الى الهجرة ورغد الميش ، في ابداع هذه الانتشاقات الشمورية الجديدة المثلثة في أدب - جبران وميخائيل نعيمة والرحاني وأبي ماضي ، وغيرهم من الأدباء والشعراء والكتاب (٢) .

ولقد كان المحاسني مشدودا الى لبنان كما كان شديد الإعجاب بطبيمته الساحرة ، وربما ساعد على معاودته الاتصال به ، والاقامة فيه أحيانا أن سوريا ولبنان أقليم واحد ، بعد الاستعمار الى تفشيسه

(١) نقلا عن سامي الكيال في كتابه من الأدب المعاصر .

(٢) انظر - الرمزية والأدب العربي الحديث - انطون غطاس كرم .

والأدب العربي في المهجر د . حسن جاد .

وتقسيمه ، لفرض خبيث ومناورة دنيئة ، وقد أسفر هذا الاتصـال
عن حدث خطير فى حياة المحاسنى ، كان له أبلغ الأثر فى ثقافته
وأعماله . وهو اقترانه بالأديبة الدمشقية الأولى ، التى تقف السى
جانب أدبيات مصر الجامعيات - يعنى الدكتورتين : سهير القلماوى
وعائشة عبدالرحمن ، بنت الشاطىء - ، ولو واتتها الظروف للدراسة
الجامعية ، لما قلت ههـن .

والحق أن هذه الادبية الفضلى ، تمتد من الرائدات المعدودات
فى أدب المرأة العربية الحديثة ، ولها كثير من المقالات الادبية
والنقدية التى كانت تنشرها فى مجلتى الاديب والعرفان اللبـنانيـتين
وفى بعض المجلات الثقافية فى مصر وغيرها ، ولها كذلك ، كثير من
النـتـاج الادبى فى مجال القصة والبحث والدراسة والتصنيف - وقد شاركت
بذلك كله فى تطور وتجديد أدب المرأة العربية فى هذا المصر .

وكان اقترانه بها ، من الوسائل المشجعة له فى حياته
الادبية ، كما كانت باعثا له كذلك على اعتزازه بالحياة الفكرية والفنية ،
حيث أمدته بما تمتد به الزوجة المخلصة المضحية الامينة ، ومنحـته
الحنان والرعاية وهيات له مناخ البحث والدراسة والتأليف ، وقد عد
المحاسنى هذا الاقتران ، رمزا للوحدة الكاملة والامتزاج التام بين
سوريا ولبنان ، ذلك البلد المربى الواحد ، الذى عمل الاستعمار
على تمزيق شمله وتجزئته . وقد أنجبت له ولدا وبتين هم : ذكـوان
وذكاء وسماء المحاسنى (١) ويهدو أن المحاسنى ، قد عرف الحسب

(١) الشاب الظريف ص ١٦٠ .

وعانى من آلامه وتبارحه ، قبل أن يقترب بؤداد - ولكنه الحبيب
الروحى الطاهر المعيف - وآية ذلك : قصيدة له عنوانها - المريضة -
نشرها فى مجلة الاديب البيروتية (١) ، وقدم لها بقوله : " عرفت من
قلت فيها هذه الابيات ، منذ أرمى عينى ، وكنت أحبها حباً روحياً
ولما استأثر بها الغياب عن دنيانا ، كتبت من أجلها أبياتاً فى
الوفاء ، أرسلتها الى زوجها - وهو صديقى - وكان يومئذ وزيراً ، وكنت
منذ أيام أجوس بأصابعى خلال أوراق لى قديمة ، ولست أدري ما ساقنى
اليها ، وإذا بى أجد تلك القصيدة ، فأثرت تجديدها ، لتهدى
ندية جديدة عبقة بالاحزان على طيف الذكرى الى روحها ، وكانت
تشاهد وجدى بها ، ونحن طالبان فى كلية الآداب بدمشق .

كانت هى فتنة الوجود ، وكنت شاباً غرائفاً ، منكسر الروح لينتم
أصابعى وأنا صغير ، ظل أثره فى نفسى وفى شمرى .

ومن أبيات هذه القصيدة قوله :

أفدى المريضة من دمى بمسكوب وألفتى مل مصدر جد مشبوس
لو استطعت مزاراً زرتها ولكم مررت بالباب لأحظى بمطلوب
يا منية العمر ما أحلى بهاك لنا كأننا كنت يوم الحب مرغوب
جاء الطبيب فجنس النبض ملتصبا فى الصدر دقات قلب ذات تطريب
فقلت يا ليتنى كنت البديل له أشفى ضناها بلا سر وتمذيب
أنا المطيب للخفاق أعرفه أحنو على وجدته تحنان تطبيب
وهذا الشعر يحمل من لوعة الهوى وتباريح الوجد والجوى ما يترجم عن ولوع

(١) الاديب العدد الصادر فى ١٩٧١/١٢/١ .

المحاسنى بهذه الفتاة الزميلة الفاتنة ، التى لم يمدد عنها سوى ظروفه القاسية
فى هذا الوقت ، ولعلها لو أعانتها ، لكان له منها موقف آخر ، ولكن ما قدر كان •
وما لاشك فيه ، أن زواجه من السيدة وداد سكاكىنى ، جعله

يحنو على لبنان ويحن اليه ، ويخصه بكثير من نبض احساسه وذوب
وجدانه ، وعصارة فكرة ، ولقد صور ذلك بقوله : " من حق لبنان
على منذ أن اقتربت بالكاتبة وداد سكاكىنى أن أكتب عنه ، وأصنع من
أجله شمرا ونثرا ، ودراسات أدبية واجتماعية ، وأن أمارس فنونه فى
التاريخ والحياة المعاصرة ، فهو حبيب الى نفسى ، أثير عندى ، طالما
حننت الى أفيائه الفصح ، مستظلا بمظلاته الالهية التى صنعت من
أفواف الصنوبر ، وقامت على سوق أدبية دقاق ، تطالع هبات النسيم
الليليل فى الاصباح والامساء ، على السفوح المنبسطة فى لبنان
الحبيب ، اننى لاجئ اليوم ، قووما بذلك الحافز ، الذى تفيض به
نفسى لاحدث قرائى فى مجلتى الميززة (الاديب) ، التى كبرت
فيها منذ نشأتها حتى اليوم ، وأكاد اذا مر شهر ولم أرى فيها ،
أعد نفسى فى مضيمة الفكر وحيدا مفلق القواد (١) " .

واذا كانت لبنان قد جذبت اليها المحاسنى على هذا النحو ،
الذى صوره فى مقالته السابقة ، وكانت ملهمة له على الابداع وباحسا
على الدراسات الادبية والاجتماعية ، فانها كذلك قد أثرت فيه ، وتأثرت
به من طريق آخر ، هو تعرفه على كثير من أدبائها وشعرائها وكتابها
وقادة الفكر والرأى فيها •

ولقد تحدث عن ذلك واحد من الأدباء اللبنانيين ، الذى جمعته
بأدينا صداقة حميمة ومودة بالغة هو الاستاذ الناقد " جان كميل " فى
فصل ضاف منه قوله :

" تلك الحجرة من حجرات دارنا ، وقد انعقدت بفخر علواسمه
فأنسها وأ ... به سنوات ، ثم أوحشها في الهزيع الأخير من حياته"
ثم يضى قائلا : " في بيتنا كان له ركن وسرير ، ولم يكن على
زياراته القصيرة المتقطعة يحل بيننا حلول الضيف ، بل حلول فرد من
أفراد الأسرة ، تقذف به المشاغل الى الانحاء البعيدة ، ثم يهرب
الى منطلقه حينما ليمأود منه السفر والترحال " .

ثم صور صداقته به قائلا : " تعود صداقتي للمحاسنى الى
العام ١٩٥٦ ، يوم كت رئيسا لتحرير مجلة " الرسالة " ، وكانت هذه
المجلة تعترم اصدار عدد خاص عن أحد الاعلام من أدبائنا الراحلين
فوجهت رسائل الى نخبة من الكتاب والنقاد في العالم العربي
للمساعدة في هذا المدد ، فأنتنى الاجوبة قليلة ، وكانت المجلة
حديثه العهد وغير معروفة في النطاق العربي الواسع ، وبينها جواب
تطفع لهجته نبلا وكرما من الدكتور زكى المحاسنى .

كانت هذه الالتفاتة من العالمة والاديب الكبير مشجعه لى كثيرا
فكبت اليه ثانية ، شاكرا موقفه ، ثم تواصلت بينى وبينه الرسائل وبدأ
يكتب لمجلتى بانتظام ، ويشارك في كل عدد من الاعداد الخاصة التى
أصدرتها بمدد " .

وعن طريق هذه الصجة التى كانت من جان كيد - تعرف ..
المحاسنى على كثير من أدباء لبنان ، يقول صاحب الفقر السابقة :
" ومع المحاسنى كان لى سياحات أدبية فى جميع منتديات الثقافة ،
والفكر فى لبنان : الندوة اللبنانية ، مجلس المتن الثقافى ، نادى الشراع
فى انطlias وغيرها ، وأنى لأفخر بأننى كت واسطة التعارف بينه

وبين عدد من ألع أدباء لبنان وشعرائه وصحفييه : الدكتور ميشال سليمان ، الدكتور فوزى عطوى ، الدكتور كمال الحاج ، شكر الله الجبر ، فوزى سابا ، المحامى جورج كساب ، نقولا قربان ، المحامى أنطون قازان ، المحامى صلاح مطر ، الدكتور شكيب خورى ونجله الشاعر جان ، مصين سكاف ، ابراهيم عبده الخورى ، يوسف صقر ، خليل قرداحى ، الدكتور أنطوان خويرى ، موسى المعلوف ، هدى صليبا ، توفيق ابراهيم ، جوزيف صادق * (١) .

ولقد عرف عنه هؤلاء جميعا القدرة على البحث والابداع ، فأنفادوا منه وأثروا فيه ، وتفاعل هو معهم عطاء وأخذاً ، ووعوا له تميزه ونبوغه وحسن شمائله ، فاعتزوا بصداقته وزمائلته الادبية والفكرية ، ولما رحل عن الدنيا سكبوا عليه دموع الألم ، وسطروا مشاعر الحزن العميق ، بمداد من الاسى • ينطق به قول الفجيعة وفداحة الكارثة ، يقول الدكتور فوزى عطوى : " • • • الدكتور زكى المحاسنى ، الذى عرفناه أديبا باحثا وشاعرا مبدعا ، وقانونيا مدرها وأستاذا جامعا متفوقا ، واعتزنا به صديقا وفيا ، وأخا كبيرا عفيا ، كان له من اسمه المبقرى نصيب •

كان الرجل زكى القلب واللسان ، زكى الأدب والوجدان ، وكان ينتسب الى المحاسن المفعمة بألوان المروءة والفضيلة والاباء ، لكنه كان حريا بحق أن تنتسب اليه المحاسن نظرا لدماثة خلقه وغفة قلمه وشمول انسانيته ، التى جعلته رائدا فريدا من رواد الادب والمجسمة والصداقة النادرة • • •

(١) نقلا عن تحية وذكرى ص ٩٧ - ١٠٠ •

كما يقول : " وفى قناعتى أن زكى المحاسنى ، كان رجلا خيرا محبا ، وأنه بالغ فى تعصبه للخير والحب حتى أصم الاذن وصرف البصر ونزه القلم عن سماع السوء أو النظر اليه أو الخوض فيه .

فما قرأت للرجل فى بحوثه المتعمقة ، ولا طالعت فى قصائده المتينة ، ولا سمعت منه شخصا الا ذلك الحديث الرضى العاطس يلتصق للاساءة المذرة ، ويبحث للفظا عن وجه صواب ، ويضفى على الموهبة مهما تدنى مستواها ألوان الثناء المشجع المحب (١) .

ولقد أفاض المحاسنى نفسه فى الاعتزاز بتصوير هذه الصالات الوثيقة ، التى ربطته بمنشديات لبنان وندواتها الأدبية ، وتحديث عن واحدة منها جمعت بين أقطاب الفكر والسياسة والأدب فى لبنان وتلك التى انعقدت فى كلية الحقوق بالجامعة اللبنانية فى ذكرى اغتصاب فلسطين ، فى ١٩ نوار من عام ١٩٦٧ ، حيث أقامت الكلية مهرجانا ضخما ، كان من خطبائه الاستاذ - كمال جنبلاط ، الوزير والنائب ورئيس الحزب التقدمى الاشتراكى ، والدكتور أدمون نعيم رئيس الجامعة اللبنانية ، وعميد كلية الحقوق آنذاك ، والاستاذ شقيق الحوت مدير منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان ، والدكتور فوزى عطوى ، الشاعر الأديب اللبناني ، ودعى الى هذا الحفل الدكتور زكى المحاسنى الذى يقول فى تصوير مشاهدته " حين دعانى الصديق عميد كلية الحقوق بالجامعة اللبنانية ، الاستاذ الحقوى ، الدكتور أدمون نعيم ، لحضور مهرجان خطابى ، فى مدرج كليته ، أخذ حين تلقانى بالترحاب ، يبرز هذه الصلة الفكرية بيننا .

(١) نقلا عن المصدر السابق من بحث قيم عن المحاسنى للدكتور فوزى عطوى ص ١٠١ - ١٠٤

وفى تلك الامسية من أماسى بيروت الجميلة ، جلست الى جانب
المعيد ، وأخذ الخطباء يملون المنبر ، وكان الصديق الأوفى الاستاذ
الكبير - جان كعيد - حاضرا وأنا أتلوه ، والردهة حاشدة بالرجال
والنساء والطلاب والطالبات ، وبمض أساتذة الجامعة ، وخطب المعيد
ليلتشد بكلمة أودع القلوب جميعا الاعجاب به ، والثناء عليه والاكبار ،
كل ذلك كان عندي ضروريا من القول ، قد أسمعتها وليست أشبارك
فى صنع مثلها •

لكن الذى كان من علمى ودأبى ومن عادتى وغنائى ، وما ربطت
به حياتى وفكرى هو الشمر وحده • وإذا بشاعر موهوب فى ريق
الشمر سمعت الثناء عليه طويلا من أخى الكاتب جان كعيد ، ونشقت
من ربا أحاسيسه شمرا فواحا ، لا تجود بمثله الهساتين الا فى هبة
الرييح ، هذا الشاعر الكبير هو فوزى عطوى الذى سكن قلبه ألسم لا
يزول ، لكنه كان تفجيرا للشموخ ، وانهمائا لرهافة الوصف عنده ونضرة
قصاصه فى الفكر والبسيرة * (١)

وهذا يوقفنا على مدى شغف المحاسنى بتلك الندوات الثقافية
والامسيات الادبية ، التى كان يتسابق الى حضورها عديد من السرواد
والادباء والفكرين والصحفيين فى لبنان ، وما كان أكثرها •

فهذه ندوة فى مناسبة وطنية ، وثانية فى مناسبة قومية ، وأخرى
فى ذكرى عزيز راحل أو تكريم علم من الاعلام النابهين ، وهلم جرا ،

(١) مجلة الرحمة الممدد (١١) تشرين الثانى ١٩٦٩ فى السنة الخامسة •

وكان المحاسنى وقرينته غالبا - فى قائمة المدعوين للمشاركة فى هذه المناسبات ، بمحاضراتهما العميقة ، أوبحوثهما الخصبية ، وكثيرا ما كان الدكتور زكى المحاسنى يديج القصائد المصممة ويلقيها فى هذه الندوة أو تلك ، حسبما تقتضيه طبيعة المناسبة ونوعية المحفل .

يقول الدكتور فوزى عطوى فى هذا الصدد عن المحاسنى : " كان هو والسيدة قرينته أديبة السرب الكبيرة - وداد سكاكينى - فى عداد خطباء المهرجان ، الذى اقمناه فى بيروت تكريما للشاعر الكبير الاستاذ " البير أديب " صاحب مجلة - الأديب - تقدير خدماته وخدمات مجلته للادب ، والأدباء العرب ، وللدور الذى لعبته - الأديب - فى التعريف بالأدب العربى ، لدى عالم الاستشراق والمحافل الجامعية الدولية ، ومازلت أذكر بتأثير شديد ، كيف أن المحاسنى الوافد من دمشق ، كان أول رجل الى مكان المهرجان ، فيسبق حتى المنتقلين الى ذلك المكان من بيروت الى بيروت " (١) .

هذا - ولم يقتصر أثر المحاسنى فى لبنان وتأثره بها عند حدود مشاركة أدبائها ومفكرها فى أمحاء مثل هذه الندوات ، ولكنه كان يديج القصيدة تلو القصيدة ، وينشئ المقالة بعد المقالة ويغذى بهما كثيرا من المجلات اللبنانية ، التى كانت تعنى بشؤون الادب وقضايا الفن ، ومن أبرز هذه المجلات ، التى غذاها المحاسنى بمصارة فكره ونهض أحاسيسهم ، مجلة " الأديب " لصاحبها - البير أديب - تلك المجلة التى عرفها قلم المحاسنى ، منذ صدور أول عدد منها فى مطلع المقدم

(١) فى بحثه السابق عن المحاسنى - نقلا عن كتاب تحية وذكرى ص ١٠٤ .

الخاص من هذا القرن ، حتى ودع الحياة ، وفارق دنيا الأدب والفن
في ١٩٧٢/٣/٢٣ •

ولقد منح المجلة وده ، وخصها بتحنانه ، ووجه الى صاحبها كثيرا
من الرسائل الثرية والشعرية ، صور فيها مشاعره وعواطفه الجياشة
بالحب والتقدير ، ومن هذه التحايا الادبية قوله : (أخي الحبيب
الاستاذ البير أديب أعزك الرحمن •

لقد وجدتني ، في ثبث الكتاب ، في مجلتك الزاهية لعامها التاسع
والعشرين ، الفائز الاول في عديد ماكتب فيها • فقد جاء الى جانب
اسمى اثنان وعشرون موضوعا ، ولم يبلغ هذا المبلغ مثله أحد من اخواننا
الاعلام من كتاب " الأديب " في عامه هذا •

ولو كان للأديب العزيز جائزة سنوية لفزت بها ، لا بالتمديد ،
وانما بالتجويد ، وأستغفر ربى - فما كنت مكاثرا بشئ ولا تياها ، فربما
كان موضوع واحد من أجواد الاديب يمدن عديدي ويفوق جديدي •

وجاشت النفس بهذه الابيات لمجلتنا ، التي عشنا على أديبها ولم
نتحول ، فلها الهناءة في عامها الجديد ١٩٧١ •

ثم أعقب ذلك بقوله :

قل للأديب وعين للفرعاء أقمته أدبا يملو به الجساء
فأنت " جامعة " تسمى روائعها من كل قدار له في العرب مفساء
ان قيل " مدرسة للفكر " كتبت بها مردها ، وبها لفظ ومفساء
لها التهانى في عمر تكون به كعبها عالما فاقت مزاياء
كتابغ مزونى ذبيان قلت لهما وعد لبنان قد زادت عالميائا

البيرات كشمس غير حاجبة لدى السطوع كجسم شمس سـ
لمشت في دولنا أفكار مشرقها تزداد عمرا بمجد طالب سـ (١)

ولم يوقف المحاسنى مقالاته وشعره على مجلة الاديب ، وان كان
لها النصيب الاوفى منهما ، وانما أسهم بكثير من فصوله وبحوثه ومقالاته
وقصائده فى غيرها من المجلات اللبنانية - كمجلة الرسالة - لصاحبها
ورئيس تحريرها - جان كميذ .

ومجلة الرحمة ، التى صدرت فيما بعد باسم " أصداء " وكان
يشرف عليها - الشيخ شفيق ضاهر ، ورأس تحريرها - جان كميذ -
كذلك (٢) .

كما أنه تأثر بصفوة الادباء والنقاد اللبنانيين ، من جمعوا بين
الثقافتين العربية والغربية ، وهاجروا الى كثير من البلدان ، ذوات الفكر
والثقافة ، وتأثروا بأدبها ومعارفها ، ثم ترنموا بأهازيج الحرية ، وعزفوا
على قيثارة القومية والوطنية ، أعذب الانغام وأرق الالحان ، وأشجى
الترانيم ، وملأوا بلادهم بعد أن عادوا اليها سحرا وفنا وأدبا . عليه
ملاح الاصاله ، وروائع الابتكار والجدة .

ولعل من أبرزهم - ميخائيل نعيمة - صاحب - الفريال - وهو
كتاب قيم ، احتوى على كثير من القيم الادبية والنقدية الجديدة ، وتتلخص

(١) نقلا عن البحث القيم الذى كتبه الشاعر الباحث محمد عبد الفتى حسن -
اخوانيات - الدكتور زكى المحاسنى ص ٢٨ - ٣٦ من كتاب تحية وذكرى .

(٢) انظر مقالة جان كميذ عنه ص ٩٨ من المرجع السابق .

عليه كثير من أدباء العرب في لبنان وسوريا ومصر ، و - جبران خليل جبران - الاديب الفنان والمصور الماهر ، الذي أدخل على الأدب العربي الحديث ، كثيرا من الصور المبتكرة والمعاني الجديدة ، في شعره ونثره (١) .

ولقد عرف المحاسنى لامثال هذين العلمين اللبنانيين ، فضلهم وأشاد في شعره بمكانتهم الادبية الفذة .

فمن قصيده له - الى ميخائيل نعيمة - نقتطف هذه الابيات ، الصورة لما ذكرناه ، والتي يقول فيها :

يا خالدا الذكر في صدق وانصاف آثارك الفرز زهر ملء أفـواف
(نعيمة) يانباط الفكر في أدب كأنه درر من غير أصـواف
للأسمية في الشام بت بهـا تشمشمع النور في ديجور اسـواف
لبنان يحويك لكن القلوب غدت في الغرب مسكنك الثاني بأطـواف
ما عشت سبعين من عمر يزيد هدى وانما عشت من عمر بـآلاف

أذاكر أنت لقيانا بمؤمـر
قد كنت كالطود لا ربح تزعمه
ما بت تحتاج دفعي غير أن على
خاطبت شخصك في اجلال عارفه
عاشت (بلودان) فيه ذاء أعراف
ولا قمون وعول رهن ايجاف
مقامك الفذ ناناني لاسماف
"أيا معلم" لا تمها باخلاف

وكم كسحت أشاليلنا وشرذمة
قالوا وشرحت "جبراننا" بحتة
وماد روا أن مين الفن مثلبة
لا يقرها كريم صنوا شسراف
من الهفاة لقد عاشوا بارجساف
بمضعفت في رأس وأطسراف

(١) انظر الادب العربي في المهجر د . حسن جواد .

حرية الفكر أعلى من مجاملة لا يمتريها سوى آداب أضياف
يزورك الشعر في "بسكية" وله تحنان قلب على الاحباب ههنا
ولى رفيف على لبنان أجمله بالروح والجسم في أسفار رفاة (١)
ومهما يكن من شيء ، فان لبنان كانت ذات أثر قوى فى حياة
المحاسنى الادبية والفكرية ، حيث تأثر بها وأثر فيها على هذا النحو الذى
أسفرت عنه تلك الدراسة .

ب- فى مصر

مصر أرض الكنانة ، وهبة الله فى أرضه ، كانت ولا تزال وراء نبوغ
كثير من العلماء والادباء والشعراء والمفكرين واللغويين فى الوطن
المربى كله من المحيط الى الخليج ، فتحت لهؤلاء جيما - منذ
المصور الخوالى - صدرها العريض الواسع ، ينهلون من مآرفها ،
ويتخذون من ثقافتها ، ويتمتعون بمناظرها الخلابة ، ومناخها الجميل
الصحو ، وسماؤها الصافية الضاحية ، وشمسها الساطعة المشرقة ،
ونسيمها الليل ، ونيلها المنساب ، ومائها المذب ، وطبيعتها الساحرة
بين الخضرة والبرق والصحراء والنيل والبحار ، كما يندمجون بين
شعبها المروق الطيب الاصيل ، ذى التقاليد العريقة ، والمفاخر القديمة ،
والقيم الراسخة والشيم النبيلة والايمان الكامل بالمرورية والقومية .

ولهذا كله هاجر اليها كثير من الشاميين - منذ منتصف القرن
التاسع عشر - فرارا من جيوت الاتراك المشائين ، وصفهم وسوء
ادارتهم ، وكانوا نواة فى تأسيس نهضة صحفية مصرية على نحو ما ذكرت (٢) .

(١) مجلة الاديب ١٩٢١ .

(٢) انظر ص من هذا البحث .

كما أمها كثير من الاجرار المفكرين ، وزعماء النهضة الاجتماعية
والادبية والتومية نذكر منهم جمال الدين الافغانى وعبدالرحمن الكواكى
ومحمد كرد على ومحمد رشيد رضا ومكيب أرسلان والشيخ محمد الخضر
حسين ومطران خليل مطران وعبدالمحسن الكاظمى وساطح الحصرى
وغيرهم ممن وفد اليها دارسا أو لاجئا أو سائحا أو زائرا ، أو مقيما
بعد أن تجنس بجنسيتها ، وانتهب الى أهلها وعار ينسب اليها .

ومصر كانت لهم أماروها ، احتضنتهم فى ترحاب وفتحت
صدرها لهم فى حذب وتحنان .

وهى لاتزال كعبة لطالاب العلم والأدب ، وكهفا للاحرار
اللائقين بها منذ أقدم الازمان وفى هذا يقول الشاعر السورى - محمد
البزيم -

وهى الكانة مهوى المربأئدة كانوا الشآمين أم كانوا اليمانينا
كهف لائذنا خصب لمجد بنا أمن لخائفنا ورد لصاديننا
لا قطع الله أسبابا مفسره وشائجا بين واديكم وواديننا

كما صور سامى الكيالى خواطره عن مصر فى مقال طويل منه قوله -
" أحببت مصر قبل أن أنزورها ، وقبل أن اتصل ببنيتها البررة ، هذا
الاتصال الوثيق ، الذى أدل به ، وأجدنى بنعماء جد فخور .

نعم أحببت مصر ، وأنا على مقاعد الدرس ، ومازال يشتد بى هذا
الحب حتى تمكن من قلبى وعار شغلى الشاغل ، وقد تسألنى عن
المواطل التى ربطتنى بمصر قبل أن أراها ، وقبل أن اتصل بصفوة
أبنائها المتأزين ، ورجالاتها الاحرار ، فلا أتردد أن أقول ، ان نوازح

الأدب كانت أظهرها وأبرزها أثرا في كيان نفسى ، فالتحق أن دراستى
للادباء المصريين ، وامتزاج ميولى بميولهم ، هو الذى بمث حسب
مصر فى قلبى . (١)

ومن هذا المنطلق استقبلت مصر ومدارسها وجامعاتها وأزهرها
ولا تزال تستقبل شتى الوفود من طلاب وطالبات العلم من الاقطار
الشقيقة العربية والاسلامية .

ومن وفد على مصر فى رحلة علمية من أبناء سوريا ، وتأثر
بالتيارات الادبية التى كانت سائدة فيها ، منذ بدأت حركات التجديد
تصرف طريقها الى مصر عن طريق روادها منذ المقد الثالث من هذا
القرن - الدكتور صالح الاشعر ، الذى قضى فى مصر ردها من الزمان
يتلقى العلم فى جامعة الاسكندرية ، فليس عن كذب طيبة شمبها
العربى النبيل ، وما يمتاز به من مآثر وشيم .

ومنهم كذلك الدكتور زكى المحاسنى ، الذى أوفدته وزارة المعارف
السورية الى الجامعة المصرية ، لتحصيل الدكتوراه من كلية الاداب -
قسم اللغة العربية - ، فأتبع له كما يقول - تحقيق حلم تداوله
خياله وشغل باله ، وهو لقاءه بالدكتور عبدالوهاب عزام ، الذى اتخذ

(١) نقلا عن فصول من الثقافة المعاصرة ص ٦٩ وانظر دراسة عن سامى الكيال

بمنوان - أديب من سوريا - فى هذا الكتاب ص ٦٨ وما بعدها .

وانظر - صفحة من الادب السورى - ص ٢٤ وما بعدها فى هذا

الكتاب أيضا .

مشرفا على بحثه ، ومرشدا له فيما يتلوه منه ، وكان رئيسا لقسم اللغة العربية آنذاك بكلية الآداب ، فاختار له موضوعا لدرجة الماجستير - هو (أبو الحارث ناقد المجتمع) .

ولما نال هذه الدرجة ، اختار له موضوعا آخر تحت إشرافه هو - شعر العرب في أدب العرب في المصيرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة -

وقد حصل به على درجة - الدكتوراه - في الآداب بتقدير - جيد جدا - سنة ١٩٤٧ . وسوف أتف على هذين الكتابين - بالتطويل والنقد فيما بعد .

على أن هذه الفترة الزمنية التي قضاها المحامي في مصر أثناء دراسته العليا ١٩٤٣ - ١٩٤٧ لم تكن مقصورة على ما يتطلبه البحث وتحته الدراسة ، وإنما كانت ذات أثر عظيم في حياته الأدبية والاجتماعية والقومية .

فلقد اتاحت له التعرف على كثير من أدباء مصر وكتابها ومصرائها ، وأساتذة الجامعات فيها ، كما مكنته من الاتصال بحضارتها عن قرب والاطلاع بثقافتها ومعارفها عن كثب .

وكان وفي صحبته رفيقة كفاحه الأدبية - وداد سكاكيني - يغشيان منتديات القاهرة وحقولها المزدهرة في الفكر والآداب والفن ، وكانت قواعدنا منصوبة على مدار العام وفان توجهت إلى نقابة الصحفيين للأصفاء التي محاضرة لأبراهيم عبدالقادر المازني أو محمود عزمي ، أقيمت هنالك المحاضرة وزوجته ، وإن سارعت إلى محاضرة للدكتور هيكل باشا في نادي الخريجين

(١) انظر مقدمة كتابه عن عبد الوهاب عزام ص ٨ ، ٩ .

من جامعات أوربه ، كان ركنى ووداد فى مقدمة الحاضرين ، وان ضيقت
الى جامعة القاهرة للاستماع الى محاضرات مصطفى عبدالرازق ، وأحمد
أمين ، وأحمد الشايب ، وأحمد كور محمد ، كامل حسين .

فالمحاسنى وشريته أول الحاضرين وآخر المنصرفين ، اذ كانا
يلتقيان بنخبة الجامعيين والادباء المفكرين .

وان جئت المجمع العلمى للثقافة المصرية فى موسم للمحاضرات
العلمية ، لقيت هناك المحاسنى وودادا مستمعين .

يقول وديع فلسطين : (لا أكاد أذكر منتدى من منتديات القاهرة
التى كانت فى ذلك الحين وقبل الخمسين تروج بنهضة الفكر والادب
وحياة الثقافة والجدل والمناظرة بين أعلام الحاضرين من المصريين
والمستشرقين ، الا ذكرت بين المحاضرين هذين القطبين اللذين
ماكانت تغوتهما ساحة من سوانح الحياة الفكرية الخصبة المتجددة ،
ولاهما يفترقان حتى فى نادى سيدات القاهرة ، وحتى فى جمعيات الشبيبة
الاسلامية والصحيحة على حد سواء " (١) .

كما يقول : " وما أحسب عربيا من غير مصرقيما أو عابرا أو مترددا
وقف على دقائق الحياة الادبية والاجتماعية فى مصر ، كما وقف عليها
هذان الزوجان " (٢) .

(٢٠١) من بحث لعن المحاسنى نقلا عن كتاب تحية وذكرى ص ٨٩

كذلك شاركت المحاسنى فى كثير من الندوات والمحاضرات الادبية التى كانت تعقد فى القاهرة - كندوة الجمعة - التى كانت تقيمها دار "المقتطف" ، وكانت تتلاقى فيها الافكار والآراء ، على اختلاف مذاهبها ووسائل التعبير عنها ، وكان المحاسنى وزوجته زينة تلك الندوة ، بما أوتى كل منهما من أدب ولباقة واخلاص .

ومثل محاضرات الدكتور طه حسين ، التى كان يلقيها فى الجامعة الامريكى ، أو الجامعة المصرية ، أو الاذاعة ، وكان المحاسنى شديد الحرص على حضورها والانتفاع بما فيها .

كما كان هو والسيدة وداد سكاكىنى يشاركان فى الحديث والحوار من اذاعة القاهرة مع كبار النقاد والمحدثين .

وجلساتهما الاسبوعية مع صديقيهما الفكر الاديب - نقولا حداد - وزوجته - روز أنطون - شقيقة - فرج أنطون - فى النادي الشرقى ماكانت تتوقف وخاصة فى آخر أيام الاستاذ - نقولا حداد - اللبناني المتصهر وغيره من كبار المؤلفين والمحققين على ضفاف النيل .

ولقد يسر له صديقه الاديب - وديع فلسطين - هذه اللقاءات ووصله بكثير من رواد الادب الحديث ، والصحافة الادبية ، وبعض الشعراء الكبار ، فقد دعاه وزوجته الى لقاء الشاعر الكبير - خليل مطران - ، وكانوا يلتقون به فى - النادي الشرقى - كما جمعه بشيوخ المتحضرين من اللبنانيين والسوريين ، الذين أقاموا فى مصر ، منذ زمن بعيد ، وفيهم أدباء وصحفيون متمرسون بفنونهم وخصائصهم .

كما التقى كذلك بعدد من علماء اللغة والفقه والقانون ، وعلماء مجمع اللغة العربية (١) .

(١) من بحث لعن المحاسنى نقلا عن كتاب تسمية وذكرى ص ٨٩ وما بعدها .

ولم تقف علاقة المحاسنى بأدياء مصر وفكرها عند هذا الحد ،
وانما كان شديد الحرص على أن يصادق نابيى أدبائها وعلمائها ، وأن
يسمى اليهم ، ما استطاع الى ذلك سبيلا . سواه فى هذه الفترة
التي أقام فيها بمصر ، يعد رسالة الدكتوراه أو فى فترة عمله ملحقا
ثقافيا فى سفارة سوريا .

ولقد تحدث عن ذلك الدكتور محمد عبدالنعم خفاجى فى
فصل متع بعنوان - صفحة من الأدب السورى المعاصر (١) - منه قوله :
" .. على أننا لن ننسى شخصيتين جليلتين لهما فى الفكر المصرى
والسورى المعاصر حقا ، آثار جلية بارزة لانحونا الايام .

وكم كانت ندواتهما الادبية الطرفة تشهدها أميات "كازينور"
على ضفاف النيل المائيم ، وتلا القلب بالذكريات الماطرات ، التى
ترسم فى مخيلتنا - نحن أبناء مصر - وكان السحرتى وعبدالجبار
ووديع فلسطين - كثيرا ما يشتركون فى هذه الندوة ، وفى محاوراتهم
اللطيفة الممتدة ، وكنت أنعم فى أحيان كثيرة بالحديث والحوار
والفكاهة مع أصدقائنا فى هذه الندوة عندما أخف اليها من قلب
القاهرة ، لأجلس مع اخوانى فى راسب النيل المائيم ، ومع أديبينا الكبارين "
- زكى المحاسنى والسيدة قريشة وداد سكاكنى -

كان بحكم عمله المرسى ملحقا ثقافيا فى سفارة سوريا ، وكان يشرف
على توجيه العلاقات الثقافية ، بين شطرى الجمهورية العربية المتحدة التى
قامت منذ شهور قلائل ، ولم يكن يجعل همه فى الاعمال الرسمية ، وفى

(١) فصول من الثقافة المعاصرة ص ٧٤ وما بعدها .

الاتصال بالشباب السوري ، الذي يتلقى تعليمه في الأزهر ، وفي جامعات مصر فحسب ، وأنا كان وثيق الصلة بالصحافة المصرية وبالادباء المصريين ، وكثيرا ما كان يخف معنا الى ندوة المقتطف الاسبوعية الآفلة ، التي لها ذكريات عزيزة في نفوسنا نحن الادباء المخزيين * ثم تحدث الدكتور خفاجي عن صلته بالمحاسني قائلا:

* كان بدء تعرفني بالدكتور زكي المحاسني ، أن جاء بمسافر طلابي السوريين في كلية اللغة العربية ، ينبئونني أن الدكتور يحب أن يلتقاني ، كما أحب أن يقرأ لي ، ووعدت بزيارته في دار سفارت سوريا ، ولكنني لم ألبث بعد أيام ، وأنا خان من الكلية في أحد أيام الصيف ، أن وجدت شخصا يتقدم الي ، ويشد على يدي في حرارة وهو يتنفس الدكتور زكي المحاسني .

وقبلني في وجنتي الخشتين وقبلته ، وقال لي بلهجة مصرية عذبة : انني وددت من وقت طويل أن أراك ، وأن التقى بك ، وشكرت له هذه العاطفة ، ثم ودعته ، ووعدني الى لقاء قريب ، ومضت الايام ولم نلتصق ، حتى جمعتنا ندوات المقتطف وكازينور ورابطة الادب الحديث .

ثم يقول عن الشخصية الثانية ، التي قصدها في هذا الحديث * وهي السيدة / وداد سكايني - وكانت الاديبه السورية العربية السيدة وداد سكايني حرم الدكتور زكي المحاسني ، كثيرا ما تشهد ندوة كازينور ، وتمجيب لثقافتها الواسعة ، وادراكها العميق لقضايا الثقافة والادب والفكر ، كما كانت تكتب في صحف مصر ومجالتها الادبية كثيرا وبقراءها الادباء والشباب المصريون باعجاب ومتابعة مستمرة .

والجدير بالذكر أن هذه الصلة الثقافية والادبية التي جمعت بين الدكتورين ، لم تفت بعد رحيل المحاسنى عن مصر ، وإنما كانت بينهما رسائل متبادلة تنم عن عواطف وطنية واجتماعية نبيلة .

ومن هذه الرسائل ما أورد الدكتور خفاجى فى هذا الفصل وقدمه الى القراء قائلا : " ولا يفوتنى أن أنوه بآخر رسائل الدكتور المحاسنى الى " فى السادس والعشرين من فبراير (شباط) ، قال فيها الدكتور : " أزجى اليك تهنئتى بالوحدة العربية ، التى طالما كانت أمل العرب ، سائلا الله أن يجعل عهدها على بلدنا الحبيبين عهدا ذهبيا ، وقد كنا أنا وأنت من مؤسسى هذه الوحدة بانصافنا القديم الادبى ، وكما كان الادب أساسا للسياسة ، وهل عاشت المثل العربية الا فى أدب العرب العظيم .

لقد لمت أيامى فى القاهرة كيف فرطت ، ولم ألم بك الملمات طويلة ، فان روحك مواجهة بالخير ، وأنا أحب هذه الاوج ، وأكاد أدوب فى ودها ، أنت الاديب المثالى ، أعطيت الكثير ، ولم تأخذ حتى القليل ، وأنت أبدا تزرع ولا تقطع ، وقد سمعت بما حملته اختكم وداد من مؤلفاتكم ، وأثار لمخينا الاديب الناقد الاستاذ السحرتى ، .. ما أبهجنى ورد أيامى الى القاهرة ، حيث كنا نراكم ونأمن بكم ونحسب أناسى لا تنسى على ضفاف النيل فى كازينور ، ولله تلك اللقاءات ما كان أجملها ، وأبقى أثرها فى نفوسنا ، وإن أدبك التبرى ، ومخبرك الذهبى ، لجديران منا بكل روعة وتقدير " (١)

(١) فصول من الثقافة المعاصرة ص ٨٤ ، ٨٥ .

على أن المحاسنى نفسه قد أشاد بهذا الأثر الفكرى والأدبى
الذى أحدثه الأدباء المصريون فى آخرتهم السوريين فى مقدمات كتبه عن
= أحمد أمين وعبد الوهاب غزام وأبى الصلاء وشعر الحرب فى أدب العرب
... الخ

كما اعترف بتلمذته على هذا النتاج الأدبى والتومى والفكرى ،
الذى كان من رواد النهضة الأدبية والعلمية المعاصرة فى مصر ،
منذ أوائل العقد الثالث من هذا القرن ، حيث أتيح له ولزملائه
من أبناء سوريا ، الاطلاع على ما كانت تحمله المجلات المصرية من
بحوث ومقالات فى الأدب والنقد والسياسة والوطنية — كالمقتطف
والهلال والسياسة الأسبوعية والرسالة والثقافة وغيرها — وكان يتابع
أعدادها ، ويطلع بنهم مقالات : الزيات وطه حسين وأحمد أمين
وعبد الوهاب غزام والمقاد وغيرهم (١) من كبار الكتاب والنقاد والفكرين
فى مصر .

وإذا كان المحاسنى قد تفاعل مع هذا الأثر الثقافى بتزوده منه ،
وافادته به ، وسيره على دربه فى كثير من الأحيان ، فإنه كذلك
قد أثر فى هذا المحيط الزاخر عن طريق أحاديثه ومحاضراته ومشاركته
فى الندوات التى سبق أن نوهت بها ، كما أنه أمد الصحف والمجلات
بكثير من روائع أدبه وثاقب فكره ، وفذاها بمقالاته الأدبية المتميزة ،
وقصائده الحارة الطنانة . سواء أثناء إقامته فى مصر أو بعد أن غادرها

(١) أنظر مقدمة كتابه عن عبد الوهاب غزام ص ٧ وما بعدها ومقدمة كتابه

أحمد أمين ص ٤ وما بعدها .

الى دمشق ، ومن أبرز هذه المجالات الرسالة والثقافة والسياسة الاسبوعية يقول الدكتور خفاجي : " وفي سوريا وعلى ضفاف بردى ، لم ينسى الدكتور زكي المحاسنى ، والسيدة الجليلة وداد سكاكيني ، لم ينسيا مصر ولا أدبها ، وكتابها وشعراؤها ، بل لعل الدكتور زكي المحاسنى كان من أكثر أدباء سوريا ، قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة ، عملا على توثيق الصلاتات الفكرية والثقافية بين مصر وسوريا ، ومن أكثرهم كتابة عن أدب مصر وثقافتها (١) .

ولقد تغنى المحاسنى بمصر وحضارتها وعنايتها وأثرها الثقافى والقومى فى محيط الوطن العربى كله ، كما تغنى بنيلها المنصب المذنب ، وفاء وعرفانا ، لهذا البلد المريق ، الذى نعم فيه المحاسنى كما نعم غيره من الادباء السوريين ، الذين أقاموا فيه بين آلهم ونسب جلدتهم من المصريين الاوفياء - نذكر منهم : محمد كرد على ، شكيب أرسلان ، محمد رشيد رضا ، خليل مردم ، عدنان مردم ، سامى الكيالى ، سامى الدهان ، ساطع الحصرى ، أنور العطار ، أمجد الطرابلسى ، على الطنطاوى ، عمر أباريشة وسواهم (٢) .

ومن شعر المحاسنى فى ذلك - طويته عن النيل *

ومنها هذه الأبيات :

يا عربيا فى ودها أتلقى هى أسمى من الخلود وأغلى
حلف الدهر به على لهواها أنه لم يعد ليبدع مثلا

(١) فصول من الثقافة المعاصرة ص ٧٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٤ وما بعدها .

يمسح الصبح بالمحاسن عينيها وفيض الجفون قد كان كحلا
 ويح رمسيس لم يكن قيد رمس ويخوفو قد أمن السرجها
 ونفاربدا على نفرتيتسى عند عنق من الفزالة
 والفراعين لفلقوا هبسوات نصبوها على التخول وأعلى
 وأطاف الكهان صلحا وماجوا يملأون الديار سرا وعدلا
 وعلى طيبة تألق فمن ملك الصخر دولة واستقلا
 والتماوير في الكهوف تناجيك فتلقى فيها الروائع مثلسى
 لكأن الفن صورها الآ ن فأين باد وضلا
 هبة النيل مصر فاغم عاليا ها فعنها ضم الطفاة تولسى
 أيها النيل كم وقفت أناغيك وك وشعر من عدوتيك استهلا

ثم ختمها بأبيات حارة صور فيها مشاعره ازاء مصر وأهلها منها هذان
 البيتان :

يا أحياء لعلوا ذكرياتى عند تلك الضفاف أودعت أهلا (١)
 جمدى ههنا وقلبي لديكم خافق بالهوى يحطم غلا

وبعد حصول الدكتور المحاسنى على درجة الدكتوراه • غادر
 القاهرة الى دمشق • ولكنه لم يلبث أن عاد الى القاهرة مرة ثانية • حيث
 عمل مراقبا للبعثات العلمية • وطبقا ثقافيا بالسفارة السورية في مصر
 ما بين عام ١٩٥٠ - ١٩٥٦ •

ثم بعد ذلك انتقل الى سورية • عضوا في لجنة التربية والتعليم
 بوزارة المعارف السورية من عام ١٩٥٦ - ١٩٥٨ • ولكنه عاد الى مصر

(١) الاديب •

مرة ثالثة ، وعمل مديرا للثقافة فى تخطيط التعليم العالى بالقاهرة ،
فى عهد الوحدة بالوزارة المركزية (١) .

وفى هذه الفترة زاد نشاطه الادبى وكثر عطاؤه الثقافى ، وطاق
بالنوادر الادبية ، وقاعات المحاضرات ، يحاضر ويناقش ويتحدث ويكتب .
كما كان يلتقى بأساتذة الجامعة المصرية ، يبحث ويدرس ،
ويطرحهم الرأى ويناقشهم فى القضايا الادبية ، ويتناظرون ويتحاورون
فى الادب القديم والحديث على سواه ، عليهم يهتدون الى تصحيح
فكرة واهمة ، أو فهم لسألة عاتية ، أو تحرير لقضية مغلقة ، لم يهتد
فيها القدامى لرأى مقنع ، أو تحقيق لشر غائم اضطربت حوله الروايات
أو تثبت من نتيجة افتى بها القدماء ولم يعتمدوا فى التوصل اليها
على مقدمات صحيحة .

ولقد ذكرنا واحدة من هذه القضايا قائلا : " . . . كنت وأنا
بمضفاف النيل - فى لقاءات الجامعة المصرية ، أتوسط فى البحث
والدرس وفى المناظرة والمحاورة مع صديقى باقعة الادب والدراسات
الجامعية ، الدكتور - شوقى ضيف - فتداولنا رأيا جديدا فى شمس
الأعشى - ميمون - ورضينا بأن نقول فيه : انه سقى صناجة المسرب
اذ كان يخفى هو بشعره ، فينشد : ثريا ، ويلقيه على تدابير اللحن
التى فى زينة " ، ثم يخفى فى مخزن ذلك قائلا : " . . . وقد غلبت
فرددت هذه التزعة الى الشعر الدينى الجاهلى ، الذى لم يصل اليها ،

(١) نقلا عن كتابه الشاب الظريف .

ولست أشك في أنه كان لنا عباديا في أصوله البعيدة ، وهذا رأي جديد في دراسة شعر الاعشى ، لمن الأدباء والدارسين ، يجدون فيه تحقيقا يطرف البحث الأدبي المصاصر (١) .

ولعل من أبرز الآراء والانتكارات الجديدة ، التي كانت من الدكتور زكي المحاسنى إبان هذه الفترة ، تلك المحاضرة القيمة التي ألقاها فى - قاعة الامام محمد عبده بجامعة الأزهر الشريف - أيام أن كان عضو لجنة التخطيط للتعليم العالى بوزارة التربية والتعليم المركزية - عن : أدب الملاحم والطحمة العربية - والتي تدل على حرية الرأي وقوة الحجة ، والقدرة على الاستنباط والتأمل ، كما تكشف عن عقلية باخشة متمرسه .

وتكمن قيمة هذه المحاضرة فى مدلولها الادبى والتاريخى ، حيث ردت للادب العربى اعتبارا ، وصيحت من على جبينه الوضاء تلك السحابة العاتقة ، التي طلب لكثير من أعداء الصروبة وآدابها أن يحجبوا بها وجهه المشرق ، حيث راخوا بكيلون له الاتهامات ، ويرمون به بالقصور والمطل من هذا الفن الطبقى ، وعللوا لذلك بقصور الخيال العربى وعجز اصحابه عن ابداع مثل هذا اللون ، الذى برع فيه أدباء اليونان والرومان والهنود والفرس (٢) .

وسوف أقف على تحليل هذه المحاضرة ، وتبيان قيمتها عند تحليل لاعمال المحاسنى وراثه الادبى .

(١) مقدمة كتاب الادب الدينى - ص ٤ ، ٥ .

(٢) انظر فى ذلك مقدمة بلغة العرب لاحد ضيف ، ومحاضرات فى الشعر

للدكتور ابراهيم أبو الخشب ، والطحمة العربية لالدكتور سعد الدين الجيزاوى

وذلك كله الى جانب بحوثه الرائدة ومقالاته الانيقة وفصولها الدسمة
وشعره الرائع ، وقد ازدانت بذلك كله المجالات الادبية المصرية ،
الصادرة في ذلك الوقت .

٤- المحاسنى الجامعى :

لعمل من الاعمال البارزة في حياة المحاسنى اضطلاعهم بمهام
التدريس في الجامعة ، وما يلزم ذلك من تبعات جسام ، يقتضيها الاعداد
والتخضير ، والبحث والتأليف والارشاد والتوجيه وذلك لصنع جيل
واع مثقف مستنير ، ينهض لتحمل الاعباء العلمية والقيام بالتبصّات
الثقافية والوطنية والقومية .

وما أن حصل المحاسنى على درجة الدكتوراه في الآداب من كلية
الآداب بالجامعة المصرية في سنة ١٩٤٧ حتى عين استاذاً صاعداً
للأدب العربى ، بكلية الآداب بالجامعة السورية من عام ١٩٤٧ - ١٩٥٠ .
كما أعير الى المملكة العربية السعودية ، أستاذاً للأدب العربى
في كلية الشريعة بجامعة مكة عام ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .

ثم عمل كذلك في هذا الحقل ، أستاذاً محاضراً للأدب بكلية
الآداب وكلية التربية في الجامعة اللبنانية منذ عام ١٩٦٦ الى آخر عام ١٩٦٩ (١)

ولقد سبق أن ألقينا جانباً من الضوء على حياته في ظل هذه المهنة
الشريفة السامية وهي مهنة المعلم ، الذى ينهض أن يقدره المجتمع حسب
قدره ، وأن يخلق عليه من التجلة والاحترام ، ما يناسب قداسة العلم وجلاله

(١) نقلاً عن كتاب الشاب الطريف ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

منى كان المعلم حافظا لهذه المهنة قداستها • ومبغيا لها على كرامتها •

وما أصدق قول أمير الشعراء - شوقي - في المعلم :

قم للمعلم وفه التبجيل لا كاد المعلم أن يكون رسولا

وقد رأينا إلى أي حد كان توفيق المحاسنى في القيام بأعمال هذه المهنة ؟ وكما كان ذا خطوة وتقدير واعجاب من رؤسائه وزملائه وتلاميذه على حد سواء ! حيث أحسن النصح والتوجيه والتقويم والتدبير لتلاميذه فكان محمدا الميرة • حسن السلوك بين زملائه •

أما الجامعة فان رسالته فيها ينمى لا تقف عند هذا الحد • الذى يقتضيه منهج الدراسة في المرحلة المتوسطة • بما له من قيسود وحدود •

وهذا ما كان بشأن المحاسنى الاستاذ الجامعى الاكاديمى في أسلوبه وطريقته • ويمكن أن نتمثل أدق خصائصها في البحث الذى كتبه عن استاذة الدكتور عبدالوهاب عزام • الذى تتلمذ عليه وأعد رسالته تحت إشرافه • وكان محجبا بها إلى حد كبير •

ولقد صور أسلوب عزام في تدريس الجامعى بقوله : * كان أسلوب عزام في التدريس الجامعى أدبيا وصينا • ليس فيه تعنت الاساتذة • الجامعيين • الذين يضيقون بالاداء الادبى في الدراسة والتأليف - المنهجى • وكان الادب في تمبيره لا يصلح للدراسة الجامعية • ففى حين يرتفع المضمون الجامعى في البحوث • اذا كان التمييز قويا جسيما من البحث الجامعى (١) •

(١) عبدالوهاب عزام عن ١٣ • ١٤ • ١٥ •

كما صور صلته بطلابه في قاعدة الدرس قائلا : " وكان عزام
ليدخل على طلبته قاعة المحاضرة بوجه باسم ، تلوح في نظراتهم ممانسة
المعطف والحلان ، اذ كان يرى التلميذ في منزلة أولاده ، حتى اذا صار
طلابه مدرسين ، عالمهم كرماء ، وأصدقاؤه ، وبقى حانيا عليهم مشجعا
في حياتهم العملية والعلمية وربما شارك بعضهم في التأليف والتحقيق (١)

ثم وصف أسلوب تدريسه ومحاضراته بقوله : " فاذا عدت على
الكلام على أسلوب التدريس والمحاضرة ، وجدته ينضح مواء تدريسه
من حضور ذهنه وحافظته المجدبة الذاكرة ، وان داخل عليه مجلسه
في الدرس والتحليل ، لمستمع دون أن يرى على المنيعة شيئا من
الورق أو المذكرات والكتب ، وقد يجدد ينضح كلامه ، ببيان ودقّة
ومطلق متواتر ، يتناول ذلك في تثبيت ، فاذا المباح لا يجد بين
يديه شيئا ، وقد يجد في بعض المرات مذكره صغيرة ، أو كتابا يتناول
منه النصوص (٢)

ثم تحدث عن روافد ثقافته قائلا : " وكانت طوابع أسلوبه
الصربية والاسامية بارزة للمعان ، فكان لا يكاد يمضي في موضوع ، حتى
تدقق عليه الايات القرآنية والشواهد الشعرية والادبية من شعر العرب
وشعر اقبال ، ومقولات أصحاب الصوفيين ، اذ كانت الصوفية فياضة
في وجدانه وطبعه ، ولا تخلو عنده المحاضرة والخطابة من مالمحا (٣)
وأخيرا صور دقته في البحوث وحسن ارشاده لطلابه الذين أشرف
على رسائلهم العلمية بقوله : " وكان الى ذلك استاذا جامعيا عظيما

دقيقا في البحث والارشاد في موضوع الرسائل الخاصة بدرجة الماجستير ودرجة الدكتوراه ، يشرف على رسائل اصحابها بدقة وعناية ويهديهم السبيل في مصادرها وتأليفها ويميد ويبدى النظر فيها والتوضيح — لمنهجها والتسديد لخطى اصحابها ، ومهما يزره اصحابه يجدوا عنده التوجيه والتسديد دون ملل أو تعب أو مطال ، وكان زائره من طلبة أو سواهم يحس أنه في زورة صديق لمحييم ، أو قريب أثير ، وينصرف بتوديع كريم يملأ القلب أملا في الرجوع . (١)

ونحن نرى أن مثل هذه الصفات التي أكبرها المحاسنى فى شخص استاذ الدكتور عبدالوهاب عزام — الاستاذ الجامعى — كانت عميقة الاثر فى نفسه ، وقد غرست جذورها فى ذهنه ، حتى اذا ظفّر بدرجة — وكان أول سورى أو عربى حمل هذا اللقب العلمى من الجامعة المصرية (٢) — وتصدى للتدريس فى الجامعة السورية كانت هذه الصفات الاثيرة لديه ، محط اعتبار وتأمل ، فجد فى تطبيقها عمليا مع طلابه سواء ما اتصل منها بحسن المعاملة والتوجيه أو التفنن فى السيطر على عقول طلابه والاستحواذ على مشاعرهم عن طريق براعة العرض والقدرة على الاقناع والتأثير والافهام • لاسيما وهو الاديب المقتن • الذى تمشق اللغة والادب منذ حداثة ، وضحى بالمحاماة مع تميزه فيها ، وهو القائل — زاولت المحاماة تمرينا ومراسا باشراف ابن عمى سميد المحاسنى ، وسعيد الغزى ، وكنا من اعلم الحقوق والمحاماة بدمشق ، وقد منحت الاجازة فيها ، ولى ذكريات عنها سيحتها كتاب (٣) .

-
- (١) عبدالوهاب عزام ص ١٥ .
 - (٢) تحية وذكرى ص ١٥ .
 - (٣) الشاب الشريف ص ١٦٤ .

ومحال أن يقدم على مثل هذه الخطوة الجريئة ، إلا إذا كان
الدافع لديه أقوى ، ولعل هذا أصدق تحليل لاغزائه المحاماه
والإتجاه الى التدريس .

ولقد شهد للمحاسنى بالافتقان والاجادة فى عمله الجامعى
لغيف من تلاميذه الذين تلقوا عنه ، وكوكبة من أصدقائه الذين عاصروه .
يقول الاستاذ ظافر القاسمى فى بحثه الذى كتبه عنه : " كان
المحاسنى فى دراساته لطيبه فى الجامعة ، يجمع أطراف الموضوع
فى رده ، ثم ينظمه كالمعقد فى فصول مرتبة منسقة ، وقلما تجد ثغرة
فى بحث من أبحاثه ، ولقد أفادته ثقافته الفرنسية ، وإطلاعه على المنهج
الحديث فى البحث ، فأخذ بأصوله واتبعه فى جميع كتبه ، فكان بذلك
فى طليعة المعاصرين السوريين ، الذين قدموا للمكتبة العربية روائع
الآثار " (١) .

ومما لا شك فيه أن المحاسنى تأثر بأستاذه عزام على النحو
الذى ذكرت ، وأن صلته بهذا الرائد الصيف ، كانت ذات أثر فى
إبداعه الادبى ومنهجه العلمى السديد ، يقول الاستاذ وحيد الدين
بهاء الدين فى هذا الصدد : " ولئن كان من السلمات أن عبد الوهاب
عزام علامة جيل فى نهضتنا الفكرية الحديثة ، وهب حياته للبحث عن
الملم فى أنصح مظاهره وأنهد غاياته ، وقصد الاصاله والامانة فيما ألف
وأنتج ، فانتنا لنذكر فى الحال ، الى أى مدى تتبع خطاه تلميذه
المحاسنى ، على البعد والقرب مقتفيا أثره ، مخترفا من ينبوعه ، ثم
مخترفا بفضل " (٢) .

- (١) تحية وذكرى ص ١٥ .
(٢) من البحث الوافى الذى كتبه عن المحاسنى ص ١٠٥ - ١٤٠ فى كتاب تحية
وذكرى .

والجدير بالذكر أن كثيرا من الآثار والدراسات الادبية التى خلفها المحاسنى ، كانت وليدة الجامعة ، وقد اتسمت بالمنهجية العلمية التى تفتضحها طبيعة البحوث الاكاديمية ، التى استأثرت بها الجامعة .

فكتاب - أبوالملاء ناقد المجتمع - هو عبارة عن رسالته لنيل درجة الماجستير فى الآداب من الجامعة المصرية .

وكتاب - شعر الحرب فى أدب المغرب - هو أطروحته لدرجة الدكتوراء فى الآداب من الجامعة المصرية .

وكتاب - أحمد أمين - كان سلسلة من المحاضرات التى ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية - فى معهد الدراسات العربية العالية - التابع لجامعة الدول العربية وذلك فى العام الجامعى ١٩٦٢ / ١٩٦٣ .

وكتاب - عن - عبد الوهاب عزام - كذلك عبارة عن سلسلة محاضراته التى ألقاها على طلاب هذا المعهد فى العام الجامعى ١٩٦٨ .

وكتاب - عن الأدب الدينى - مجموعة محاضرات ، ألقاها على طلاب كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، بحكة سنة ١٩٦٦ .

وكتاب " الشاب الطريف " بالدراسة والتاريخ الأدبى مجموعة محاضرات ألقاها فى كلية الآداب بالجامعة اللبنانية ١٩٦٩ / ١٩٧٠ - وغيرها من آثاره المخطوطة التى كانت وليدة محاضراته ودراساته الجامعية .

وهذا يبين لنا بوضوح مدى تأثير الجامعة فى فكر المحاسنى وثقافته وحياته ، وهو تأثير قوى الدلالة عظيم الخطر ، حيث جمعت حسنة

الكتب - في منهجها وأسلوبها - بين عد العالم ووجدان الأديب .

٥ - وظائف المحاسنى وأعماله :

في الترجمة الموجزة التي ترجم فيها الدكتور زكى المحاسنى
لنفسه قبيل وفاته ، وذيّل بها كتابه - الشاب الظريف - ننقل عنها ،
الوظائف التي تقلدها المحاسنى في حياته ، بعد أن ألقينا الضوء على
أهمها - فيما سبق - ما هو ذو أثر في ثقافته الادبية والفكرية - على
هذا النحو :

- ١- أستاذ اللغة السورية وآدابها بتجهيز انطاكية عام ١٩٣٣ .
- ٢- أستاذ اللغة العربية وآدابها بتجهيز دمشق الاولى عام ١٩٣٤ .
- ١٩٤٤ .
- ٣- أستاذ مساعد للأدب العربي بكلية الآداب بالجامعة السورية
من عام ١٩٤٧ - ١٩٥٠ .
- ٤- مرآب للبعثات العلمية وملحق ثقافى بالسفارة السورية في مصر
من عام ١٩٥٠ - ١٩٥٦ .
- ٥- عضو لجنة التربية والتعليم بوزارة المعارف السورية من عام ٥٦ - ٥٨ .
- ٦- مدير للثقافة في تخطيط التعليم العالي بالقاهرة ، في عهد
الوحدة بالوزارة المركزية .
- ٧- مدير التراث في وزارة الثقافة بدمشق بعد الانفصال .
- ٨- أستاذ الآداب العربية في كلية الشريعة بمكة عام ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .
- ٩- أستاذ محاضر للأدب بكلية الآداب وكلية التربية في الجامعة
اللبنانية منذ عام ١٩٦٦ إلى آخر عام ١٩٦٩ .

- ١٠- عضو في المجمع الملكي الأدبي الإسباني من عام ١٩٢١ •
- ١١- عضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٢٢ قبل وفاته بشهر •
- ١٢- كان من أوائل المتحدثين من إذاعة دمشق وبيروت والقاهرة ، وقد نهض بتهمات في الفكر واللغة في لجان مسؤولة ، ومجلات عربية وأجنبية •
- ١٣- زاول الحمامة تمرينا ومراسا ، بإشراف ابن عمه سميد المحاسني ، وسميد الغزى ، وكانا من أعالم الحقوق والمحاماة بدمشق ، وقد منح الاجازة فيها وله فيها ذكريات سيحتويها كتاب • كما ذكره •

٦ - المحاسني في رأى معاصريه :

لبي المحاسني نداء ربه ، وفارق دنياه ، في الثالث والعشرين من شهر آزار - مارس سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة وألف - ١٣٢٣/٧٧٧
وكان رحيله يعني : أقول كوكب أدبي ، كان مشعا في اسمه ووطنه ثم غاب ، ولكن ذكره بقي وسيبقى حيا في النفوس والاذهان ، كما أن نوره الساطع سيبقى في شمره ومآثره ، وقد كتب له الخلود عن عمرنا هز السنين ، أمضاء في طلب العلم والأدب ونظم الشعر وخدمة العربية ، التي تفانى فيها ، والقاء المحاضرات في شتى المجالات ببلاده ، وفي كثير من الاقطار العربية •

ومن تمام الوفاء لهذا الرجل ، الذي أحب الضاد محبة عشق ، وأغناها بشمره ومآثره ونقده ودراساته ، وأشاد بنهضاتها ومآثرها وأعلامها وقضاياها ، وكان دائما لسان صدق وحق ، ولسان بيان واحسان ، من تمام الوفاء له ، أن تخرج للناس كتبه وشمره ، فنرى من

خلال صفحاتها صورة لهذا العربي الاصيل النبيل المثقف ، المتمسك
في ثقافته ، المحافظ في تجديده ، المريق في أعماله .

ومن الوفاء له كذلك أن تصنف في تراثه وأعماله التي أخرى
بها المكتبة العربية والدراسات الأدبية - البحوث والدراسات ، التي
تكشف عن خصوصية فكره وقيمة أدبه وآثاره ، وتبين مدى محافظته وتجديده
ومدى ما أسهم به في النهضة الادبية المعاصرة بوجه عام ، وفي
النهضة الادبية السورية بوجه خاص ، وفي ذلك وفاء للرجل الذي
كرس حياته في خدمة قضايا الادب والفكر والوطنية والقومية .

ونرجو أن نكون قد وفقنا في هذه الدراسة ، التي لا أزمم
أنها ستأتي على التول الفصل في الحكم على المحاسني ، تلك الظاهرة
الادبية المعاصرة ، التي تعددت روافد ثقافتها وتنوعت مظاهرتناجها
وابداعها .

ولكنها ربما وضعت المحاسني موضعه الصحيح بين أعلام النهضة
الأدبية المعاصرة في وطننا العربي ، وفي بلده سورية على وجه أخص .

ولقد رثى المحاسني كثير من عارفي فضله وأدبه ومكانته ، من
أدباء الصورية وكاتبها ونقادها وشعرائها في هذا العصر ، منهم السوري
واللبناني والصري والصراقي والفلسطيني والأردني .

بل رثاه بعض المستشرقين ممن قدروا قلمه ، وعرفوا قيمته ،
وأدركوا ما أمتاز به بيانهم ، وما تميز به فكره ، ومن هؤلاء : المستشرق
الالمانية " آن ماري شميل " أستاذة الدراسات العربية والاسلامية
في جامعة بون ، التي يهمنا أن نسجل كلمتها هنا ، لما لها من بالغ الدلالة
على مكانة الدكتور زكي المحاسني .

تقول المستشرقة الألمانية : " هنالك أصدقاء لم نلتق بهم ،
ومع ذلك فهم أقرب الى تفكيرنا ، من أولئك الذين عرفناهم والتقىنا بهم
يوماً بعد يوم .

وكان الدكتور زكى المحاسنى من هؤلاء الاصدقاء ، الذين عرفناهم
فى آثارهم دون التقاء ، وقد بدأ محارف للمرة الاولى عندما كان
يرسل المقالات القيمة لمجلتنا " فكروفن " كنا نستمتع بها ونمتز بنشرها
اذ كانت تكشف عن نفس حساسة ، وثقافة موسوعية ، وعقل متفتح للبحث
المصيق .

ولدى اقامتى فى هارفارد فى الولايات المتحدة ، حيث كنت أاضر
فى جامعتها توقفت المراسلة بيننا وبين هذا الصديق الأديب ، اذ لم
تكن هناك فترة راحة ، ولكننا بقينا نحفظ له بذكرى طيبة وتتشوق
الى لقاء مع هذه الشخصية المرمية الكبيرة .

وما أشد الحزن عليه ، حين وصلت اليها أخبار وفاته المفاجئة
ما هزنا وملاً نفوسنا حزناً ، فقد أحسنا بأننا فقدنا صديقاً عزيزاً
يعلمه وأخلاقه ، وأن عالم الأدب والبحث والتأليف ، قد فقد بفقدانه
أحد البارزين من أعلامه وأحبهم الى القلوب وأنفسهم للناس ،

فلتسترح روحه فى سلام وسعادة فى حياة الأبدية ، وان صلوات
أصدقائه المخلصين لن تتوقف من أجله أبداً (١) .

(١) بعنوان كلمة عزاء - نقلاً عن كتاب تحية وذكرى ص ١٣٥ .

ومن هؤلاء الذين رثوا المحاسنى وأشادوا بخلقه النبيل ، وصفاته
المايمة ، وعددوا مناقبه ومآثره ، وأشادوا بأعماله الادبية وملكته المبدعة
فى نشره وشعره ، كما أبرزوا ثقافته وروافدها ، وعرفوا — فى ايجاز —
بدراساته الادبية ومنهجه فيها ، ومكانته بن أعلام الأدب والفكر
والفن :

الدكاتره : صفاً ظوصى ، عمر فروخ ، محمد بديع شريف ، محسن جمال الدين
بديع حقى ، كامل السوافهرى ، فوزى عطوى .

والاساتذة : ظافر القاسمى ، أحمد الجندى ، محمد عبد الفنى حسن ، أنور
الجندى ، محمد جمال بهيم ، عيسى الناعورى ، نقولا يوسف ،
بشير زهدى ، وديع فلسطين ، جان كيد ، وحيد الدين بهاء الدين
عسنى كتمان ، حسان الكاتب ، جمال مهدى الهنداوى ، صبرى
أبو الهجسند .

ومن الشعراء : أحمد على حسن (سوريا) ، حسين أحمد كونة (سوريا) ، عبد الخالق
فريد (العراق) ، هلال ناجى (العراق) ، محمد عبد الفنى حسن
(مصر) ، على دمر (سوريا) ، محمد المدنانى (لبنان) .

ولقد انتظمت كلمات الرثاء هذه ، فى كتاب ضمها جميعاً — بعنوان
— تحية وذكرى — الدكتور زكى المحاسنى بأقلام الذين عرفوه فى أدبهم
ونضاله من أعلام المفكرين ولادباء — نشر فى مناسبة إحياء ذكره الأولى .
فى مائة وست وسبعين صفحة من القطع المتوسط .

وكتب على غلافه الخارجى هذان البيتان من شعر المحاسنى :
فان ينترب جسمى فروجى مدوم على قومى الحص الأباة الضياغم
كأننى على " قسيون " أرنولمبتى وأرسل فى الآفاق لهفة هائم

كما طبع على غلافه الداخلى صورة - فوتوغرافية - لشهادة الدكتوراه ،
التي الحاحنى حصل عليها ، من كلية الآداب - بالجامعة المصرية -
بتاريخ ١٤ يولية سنة ١٩٤٧ وصدر الكتاب بهذه الكلمات الملتاعة -
للزوجة الأدبية الكاتبة - وداد سكاكيني - أجل الله -

يا أبا ذكوان ١٠٠ ما كان أحب هذا النداء الى قلبك ١

يا أسفا عليك ١ لولا الايمان بالله ، وبالأجل اذا جاء لشقينا فى
الحزن والفرق ، وما كان لهذا الحزن أن ينسحب من حياتنا ، وقد
تفلفل فى اللحم والدم وسرى فى الشمور والوجدان ، على أننا اذا تفقدناك
وجدناك فينا ، وفى كل شىء عندنا .

وجدناك فى صورك وآثارك ، وجدناك فى مكتبك ، الشئ كنت
تسميها جنتك ،

فإذا فيك القدر ، ورجعت الى إليك ، فان محاسنك ومزاياك
بقيت فيما قدمت لنفسك ولغيرك من خير وحق ، تجدهما عند الله
والناس ، وما أوتيت من فن وبيان ، قد غرسته فى الافئدة وأودعته
السطور . . . الخ

وإذا كان المقام يضيق عن ذكر كلمات الرثاء ، التي قيلت
فيه ، والتي تعد بحق دليل الوفاء وآية الاخلاق ، لهذا الرجل
الذى أحب اخوانه فأحبه اخوانه ، ونزفوا على رحيله المبرات والآهات
فاننا نجتزئ بهمض فقرها ، فان فيه غنا عن ذكرها كلها .

ففى كلمة الاستاذ الشاعر الأديب ، والمحقق الثبت - أحمد
الجندي - سورة ، بعنوان - فى ذكرى أديب يقول : " منذ ثلاثة

أسابيع مضى عن هذه الدنيا ، أديب وشاعر وعالم فى اللغة والأدب
هو المرحوم الدكتور زكى المحاسنى .

كان أديبا لانه ولد أديبا ، وكان هذا الفن رفيقا له فى
حياته ، يتحدث به ويسمر كأنه لا يعرف شيئا غيره ، وكذلك حال
صاحب الفن ، انه لا يستطيع العمل الا فى حقله ، ولا يمكنه
الخوض الا فى ميدانه .

ثم يمضى قائلا :

" ولو نظرت الى الدكتور محاسنى لأحسست بطيب النفس
وصفاء القلب ، كان صريحا جدا ، وكان صادقا جدا ، لا يتصنع
فى شيء من حياته ، ولا يتكلف أمرا من أمور معاشه ولا تفارقه
البسمة المرحمة وهو فى أشد حالات اضطرابه ، فأت حين تنظر
اليه تشمر بالبراءة والطفولة ، وكل فنان دافق فى حقيقته ، لانه
لا يجيد التخفى ولا يحسن النش والخداع ، يكتب بسهولة فلا تحسن
شيئا من العشرات أو العقبات فى أسلوبه وكتابته أشبه بحديثه ، وهذه
هى حال الأديب المطبوع انه يميل عن الصناعة - الثقيلة المستكربة ،
زاهد بالكلفة والتأنق المقيت . (١) ... الخ .

كما نماء الدكتور صفاء خلوص الأستاذ فى كلية الآداب -
بغداد ، والمحاضر المحقق فى جامعات لندن ومزائن المخطوطات -
بكلمات حارة حزينة منها قوله : " كان جملة محاسن ، ومجموعة رجال
فى رجل واحد ، لذلك لا أصدق أنه مات ، فقد يموت فيه شخص
- أو شخصان وتبقى جملة شخص .

ربما مات زكي المحاسني الهيكل الفاني ، ولكن لا أصدق أن
الشخوس الأخرى الكامنة فيه قضت نجها جميعا .

قولوا أيها النعمة شيئا آخر غير هذا ، فاني لا أصدق
موت زكي المحاسني الباحث والاديب والكاتب والشاعر ، فان هؤلاء
أعياء لا يموتون ، واسمحوا لي أن أذب النعي ، فان رسائله
لا تزال طرية العداد أمامي ، وهامتي ذه بخطه وقلمه ، بمواظفه
المخلصة الصادقة أبدا * ... الخ .

* سأخيل صورته في كل صفحة من صفحات " الاديب " ،
وأتوهم رسائله في ثنايا الرسائل التي تردني كل يوم ، بل أسمع
صوته مجلجلا من بعيد من قاعات الجامعة اللبنانية ، وجامعته
دمشق والسعودية !

انه أكثر من أديب ، وأكثر من شاعر ، وأكثر من أستاذ .
انه رمز .. أجل لقد كان زكي المحاسني رمزا مباركا لمن
رموز الحرف العربي الاصيل * (١) .

كما يقول الأستاذ وديع فلسطين مصورا فجيئته فوق قسده
ولوعته على رحيله : " ان فقدت الشاد بوفاة زكي المحاسني علما من
أعلامها ، وان خسرت فيه المناير قلبا من أقدر المترجلين من خطابتها
وان تفقدته الجامعات استادا ومخاضرا من المعدودين ، وان تجهم
الشعر لشيابه ، وان غاب وجهه الصبور عن مجامع اللغة والادب ،
عضوا فيها ، فخسرت في المحاسني خسارة عمر في الاخاء والوفاء (٢) .

(١) تحية وذكرى ص ١٨ - ٢٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٩ وما بعدها .

ومن كلمة للدكتور السوافيري بعنوان - النجم الذي هوى -
تقتطف هذه الفقرة : " غمرتني موجة من الحزن حين ترامى السرى
سمعى النبأ الفجع عن رحيل الدكتور زكى المحاسنى ، الذى لبقى
نداء ربه فى الثالث والمشرين من مارس سنة ١٩٧٢ ، إذ فقـدت
بفقدته صديقاً من أوفى الاصدقاء ، وفقد الادب المعاصر علماً شامخاً
من أعلامه ، ورائداً من رواده الاوائل ، الذين حملوا المشاعـل
الوهاجة ، وأضاءوا بها السبيل أمام الاجيال القادمة .. الخ " (١)

كما رثاه الشعراء بقصائد حارة تدفقت أبياتها بمعاني الوجد
والأسى ، وترجمت كلماتها عن عواطف الحزن العميق ، وصورت مآثره
وأعماله ومناقبه فى نغم باك حزين .

ومن ذلك هذه الأبيات من قصيدة طويلة للشاعر السورى -
رشاد على أديب - بعنوان : " فتيد الادب - الدكتور زكى المحاسنى -

اننا صابرون والله يجزى	بثواب من فضله الصابرينا
يا لخطب هز القلوب وأدما	ها وحز الكبود حزا ثخيناً
ان قضى نحبـه المليم زكى	من شأى فى نبوغه النابغينا
ذو النهى والعلى وكل خصال	وفعال حميدة لن تحيننا
قد تحلى بالنبل والخلق السا	م ازديانا وحاز فضلا ميينا
وتحلى بالحلم والعلم والفهم	م وحقق الآداب حذقا رصينا
ناشرا من ثمار أينح القطر	ف لتثقيف خيرة النابهيننا
ولنفع الطالب من كل قطر	واجتناء الكبار والناشئيننا
لم يقصر سميا ولم يأل جهدا	باتخاذ الفصحى دليلا أميننا

(١) تحية وذكرى ص ٦١ وما بعدها .

ومنها قوله :

يا زكيا بقلبه وذكيا	بنهاه والألمى الفطينا
كنت للناس نبع علم وآدا	ب وفهم يفيض عذبا معيننا
كنت للضاد والفصاحة ركتا	وعادا من خيرة الماملينا
كنت للنشء فى المعاهد ذخرا	من كبار الأفاضل الماملينا
كنت للبحث مرجما ومالدا	من خيار الفاضل الباحثينا
كنت للفكر والدراسة نبيرا	ساميرا يشع للحائرينا
كنت كنزا للشعر والنشربى	جوهرا من ذخيرة مكنونا
ولك السبق والتصانيف والتج	حقيق فاخلد ذكرنا مع السابقينا
قد سكبت الرثاء من فيض قلبى	لك يهوى عوادفا وأنيتنا
وأحر الرثاء دقق شعور	من صميم القواد يذكو سخينا . الخ (١)

ومن القصائد التى دبحت فى رثاء المحاسنى ، ونطقت بآى الوجد وحرقة الفجيمة ، وترجمت عن عاطفة الوفا والولاء ، قصيدة بعنوان - ذكرى وفيه (٢) - للشاعر السورى - أحمد على حسن - وهامى ذى :-

ذكر أعيش لها ، ولن أنساها	عطفا على الذكر التى أراها
غنيتها ، وأحب ما فى خافقى	وجوانحى سكر اذا غناها
حلت الى من الحياة أحبها	وأعزها ومن المنى أعلامها
ذكر أبودكوان عطر نفحها	أدبا وكان بخاطرى أغلاها
دنيا ممطرة البيان غنيمة	بالمطيات ، ندية أحياها

(١) تحقيق ذكرى ص ١٣٧-١٣٩ فى خمسة وخمسين بيتا .

(٢) نفس المرجع ص ١٣٩ - ١٤٠ .

سكب الريح بها خضيل شبابه	حسنا وزف جمالها ورواهها
فاذا نزلت ، نزلت في أنفائها	واذا سكرت سكرت من رياهها
آمنت بالذكري وجودا ثانيا	خلف الوجود ، ومتممة أهواها
غفوا أبدا كوان تلك شكايكة	بالأس قاسمت الجميع أساهها
هزلت أساليب البيان ، وربما	شاهت أساليب البيان وشاهها
هات اعطنا القيس المشع ، فانما	ملت نفوس الملمهين دجاها
ذهب الخياري والكرام تحملوا	وكرائم الفصحى أبيع حماها
وغدا نواسي القريض ورهطهم	أشلاء مرقها الصبي ورمهاها
وكانني باب المحسد لم يكن	بالأس نافس بالقريض وباهي
المالي ، الدنيا وشاغل أهلها	قد صار حقا أخرقا وسفاهها

سل عن أبي تمام عمورية	هل عاد شاعر فتحها وفتاها ؟
عبر من الأدب السقيط تلفها	ودجى من الأدب المبيط طواها
عد للمنابر ، ربما طادت لها	أيامها وشبابها وصباها
عد للقريض وطالما غليت	حتى حسبت بك القريض ثناها
عد للبحوث ، فانت أقدربا حث	حلت عبارته لنا أساهها
وانشروا ضياءك ، مل صاحبك فرقة	قد طال منك على الصحاب مداها
لم أنس في حلب لقاء أول	كانت به حلب تميش مناهها
والحفل حفل أبي فراس يهزها	ويعيد عهد المجد من دنياها
لقيا ، يورقني الحنين لثلمها	اني أثلل أعيش في ذكراها

هذي دمشق ، وكنت بلبل أيكها	وأحب صداح اذا غناها
عطرت بالأدب المريق سماءها	ونفحت بالحدث الظهور ثراها
واعذر أخاك ، فانما مرت به	ذكرى ، فحن لها أسى ، فبكاه

وقد رثاه غير هذين الشاعرين من شعراء المروية في كل قطر ،
ومن عرف مكانته وحفظ له قيمته ،

وسوف يستبين لنا بجلاء ، الى أى حد كان هؤلاء جميعا على
مستوى الوعي والنضج والوفاء ، فعلى مثل الدكتور المحاسنى ، تجزج
النفوس وتهرج الافئدة ، لأن فى رحيله خسارة للفكر والفن والأدب والبحث ،
وقد كان المحاسنى مبرزاً فى ذلك كله ، كما تنطق به أعماله ، وكما
سيكشف عنه ما تبقى من صفحات هذا البحث .

المباب الثاني

آثاره ومؤلفاته وهي كلها ذات طابع أدبي

ويضم الفصول التالية :

بحوثه الجامعية	الفصل الأول
دراساته الأدبية	الفصل الثاني
فن التراجم في أدب المحاسني	الفصل الثالث

تصنيف

للدكتور زكى المحاسنى آثار ومؤلفات أدبية مطبوعة كما ترك العديد
من الآثار والمؤلفات التى لا تزال مخطوطة ..

أما آثاره الأدبية المطبوعة فهى ما يأتى :

- ١- " شعر الحرب فى أدب العرب " فى المصرين الأموى والعباسى الى عهد سيف الدولة (رسالة دكتوراه) من الجامعة المصرية ، طبعته دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٤٧ ، ودار المعارف فى مصر عام ١٩٦٣ ، ثم فى دار المعارف بـ مصر ١٩٧٠ .
- ٢- (أبو العلاء ناقد المجتمع) (رسالة ماجستير) نشر دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ، ودار المعارف فى بيروت عام ١٩٦٤ .
- ٣- " النواسى شاعر من عقر " - دراسة تحليلية لشعر أبى نساوس وحياته ، طبعته المكتبة العمومية بدمشق عام ١٩٣٩ ، ثم دار الانوار فى بيروت عام ١٩٧٠ .
- ٤- " المتنبى " طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٦ ، ثم عسام ١٩٦٨ ، ثم عام ١٩٧٠ .
- ٥- " ابراهيم طوقان " شاعر فلسطين - طبعته دار الفكر العربى بالقاهرة عام ١٩٥٩ والطبعة الثانية عام ١٩٦٢ .
- ٦- " دراسات فى تاريخ النهضة العربية المعاصرة " بالاشتراك مع الاستاذين شفيق غريال ، وأحمد عزت محمد الكريم ، نشرته الجامعة المصرية فى القاهرة سنة ١٩٥٨ .
- ٧- " الأدب العربى المعاصر " عام ١٩٦٠ .
- ٨- " فى التراجم والنفوس " عام ١٩٦٠ .
- ٩- " قراءات أدبية مدرسية وتحليلية " عام ١٩٦٠ .

- ١٠- "أحمد أمين" محاضرات في معهد الدراسات العربية المالكية
بالقاهرة عام ١٩٦٣ •
 - ١١- "عبد الوهاب عزام" محاضرات في معهد البحوث والدراسات العربية
بالقاهرة عام ١٩٦٨ •
 - ١٢- تحقيق وتعليق على مخطوطة ديوان "الشريف العقيلي" طبعته
دار احياء التراث الاسلامي والعربي في مصر للباي الحلبي عام ١٩٥٥ •
 - ١٣- "نظرات في أدبنا المعاصر" نشرته وزارة الثقافة في مصر عام
١٩٦٢ •
 - ١٤- "الأدب الديني" - طبع مكتبة الانجلو في مصر عام ١٩٧٠ •
 - ١٥- "أساطير ملهمة" - طبع دار المعارف في مصر عام ١٩٧١ •
 - ١٦- "الشاب الظريف" بالدراسة والتاريخ الأدبي - محاضرات في كلية
الآداب بالجامعة اللبنانية ١٩٦٩ / ١٩٧٠ - اصدار المكتبة
العباسية بدمشق لعام ١٩٧٣ •
 - ١٧- "فنه اللغة المقارن" اصدار مكتبة الصفدي بدمشق لعام ١٩٧٢ •
- هذا بالاضافة الى دراسات كثيرة مثبته في المجلات العربية المعاصرة •
- أما ما لم يطبع من بحوثه وأعماله • فهو ما يأتي :
- ١- "ديوان الحاسني" من شعره الذي جمعه • ولم ينسقه ولم يظهر
بعد مطبوعا •
 - ٢- "اللسان العربي" • •
 - ٣- "منهج الدراسة في الأدب العربي" •
 - ٤- "المعاجم العربية" القديمة والحديثة • والموسوعات المدرسية
من دراسات مقارنة في المعاجم • في كلية الآداب بالجامعة
اللبنانية عام ٦٦ / ١٩٦٧ •

٥- عشر محاضرات في الأدب العربي القديم والمتوسط الى نهاية
عصور الدول المتتابعة * الانحطاط * في كلية التربية
بالجامعة اللبنانية عام ١٩٦٦ / ١٩٦٧ •

٦- نشيد الانشاد •

٧- دراسات في النقد والتصريف بالنتاج الحديث في المالم
العربي • (١)

(١) نقلا عن كتاب — الشاب الطريف ١٦١ — ١٦٤ •

الفصل الأول

بحوثه الجامعية

• يكتب الأدب بروح الأديب وفنه ، فيجس بلون طبيعه وابداعه ويحمل رواسم شخصه وثقافته • (١) .

بهذه الفقرة استهل المحاسنى دراسته لمؤلفات أحمد أمين وكتبه وعندى أن هذا الحكم الدقيق ينطبق تمام الانطباق على الدكتور زكى المحاسنى فى دراساته وبحوثه الأدبية ، فهو أديب منشئ ، وشاعر مبدع ، وصاحب ملكة أدبية أصيلة ، وموهبة انشائية قادرة ، وخيال مفتن رائع خصب •

وإذا كان البحث فى مجال الآداب وغيرها ، يقتضى التحقيق الاصيل والحياد الفكرى فى معرض الآراء والاحكام المتعددة الضطربة ، كما يقتضى القدرة على التمهيد والتنسيق والاستقصاء فى المقدمات حتى يتوصل الباحث الى نتيجة يقنع بها العقل ويرتضيها البحث العلمى الدقيق •

إذا كان هذا كذلك ، فان الباحث اذا أعطى حظا من القدرة على تذوق الأدب وتحسس معانيه وخفاياه ، واستبطان عواطف الأديب - صاحب النص - من خلال آثاره ، والتمكن من التعبير عن نقل أفكساره وتذوق قيمه الفنية والشعورية جميعا •

خرج بحثه الى حيز الوجود يجمع بين حقيقة العلم وميزة الفن •

يقره مؤ
(١) أحمد أمين ص ٦٩ •

يقرؤه مؤرخ الأدب فيرى فيه روح العلم المجرد من الهوى والفرس
المتحرز من الزلل والانحراف أو التأثر بأي عامل من العوامل النفسية
والمنصرية (١) .

كما يقرؤه الأديب فيلمس فيه حقائق الفن مجسمة ، ومظاهر
الجمال مشخصة ، وإمارات الأدب بادية في شكله وصورته وموسيقاه
وأبغامه ، حتى يخيل إليه أنه يقرأ أثرا من آثار الموهوبين ، أو عملا
من أعمال المنشئين المبدعين .

وعلى هذا النمط من البحث والدراسة سار المحاسنى في بحوثه
ودراسته الأدبية التى يمكننا أن نصفها على هذا المنهج —
الدراسة :

أ - بحوث ودراسات جامعية .

ب - بحوث ودراسات أدبية .

أما الأولى فلقد ألزم المحاسنى فيها نفسه — طبقا للمعرف الأكاديمى
بتواعد صارمة من المنهجية فى التأليف ، والتجرد فى البحث والأمانة فى
القصد ، والإشارة إلى المصادر ، والاعتماد على الأسلوب الموضوعى
فى سوق المقدمات واستنباط النتائج ، ومن خلال منهجه الأكاديمى
الذى طبه فى هذا اللون من الدراسة يتجلى لنا مذهبه — كباحث
على ومحقق أصيل ، ويتضح حياده الفكرى فى معرض الآراء والأحكام
المتعددة المضطربة ، كذلك تبرز قدرته الفنية فى التمهيد والتنسيق
والاستقصاء ، " فهو يفرل الحقائق التى يلتقطها ، ويحلل الوقائع

التي يتلص خطوطها بأمانة وثقة ، ثم يربط المقدمات بالتأشج
بخط دقيق يكاد لا يستبين ، مؤلفا ما بين أطراف المادة المبعثرة
ومتدرجا من التفصيل الى التركيز ، ومن التركيب الى التحليل * (١)

بينما تحرر كثيرا من هذه القيود التي تحتصها طبيعة المنهج
الاكاديمي ، في بحوثه ودراساته الادبية الاخرى .

وسوف نقف على هذه الاعمال الادبية في هذا الفصل .

أ - بحوثه ودراساته الجامعية :

- ١ -

أبو العلاء ناقد المجتمع

هذا البحث هو موضوع رسالته لدرجة الماجستير من كلية الاداب
بالجامعة المصرية - تحت اشراف الدكتور عبدالوهاب عزام ، وكان
رئيسا لقسم اللغة العربية آنذاك ، ثم صار عميدا للكلية فيما بعد (٢)
ولما كان العرف الاكاديمي يحتم على الباحث أن يبين قيمة بحثه
وأهمية دراسته وسبب الاقدام عليه ، فلقد صدر المحاسنى بحثه بمقدمة
طريفة عميقة ، عبر فيها عن ولوعه الشديد بأبى العلاء المصرى ، منسدا
حدائقه قائلا :

* أحبيت أبا العلاء - على ريق العمر ، فأخذت بكتبه مدارس
وممارسة ، وخطوط الشباب ، فإذا أنا بضاف النيل ، أكعب عن شاعري ،

(١) من بحث عن المحاسنى بقلم وحيد الدين بنها ، الدين عن ١٠٥ وما بعدها

في كتاب تحية وذكرى .

(٢) انظر كتابه عن عبدالوهاب عزام عن ٨ .

ولئن سبقني الكتاب على كثرتهم في التصنيف عنه ، لداعية الفاعام
مرت على مولده ، أولسوانح تسنح لهم في أدب هذا المبقرى الشامى
الذى خلد على الزمان ، فما واحد منهم وقف كتابا على نقده للمجتمع
وهل كان أبوالملاء الا ناقد المجتمع في كل شئ مره وعيم نشره !

لقد عرضوه فيلسوفا ، وجلوه شاعرا ، ولكن لم يظهره ناقداء
فلا على اذا جئت أوفى صاحبى حقه منى ، وأنا ابن سورية التى أطلمته
وله على مثل حق التأليف * (١) كما يقول مؤكدا هذا الذى
قصد اليه : " حسب أبى الملاء ، أنه الرائد الذى أدخل الفلسفة
فى الشعر العربى باقرار من تاريخ الأدب ، والذى نقد المجتمع
فى أفكاره وأشعاره ذلك النقد الرائع المصوق ، اجهاضا لثرهاته
وسقطاته ، وأيجاد المناخ الحق والعدل فيه ، ثم نهوضا بأفراده
المنتصين الى الجماعة الانسانية " (٢).

ولقد كان المحاسنى جد موفق فى طرق مثل هذا الجانب
من جوانب أبى الملاء العربى - تلك الظاهرة الادبية الفريدة ، والمقلية
الفذة الاربعة فى تاريخ أدبنا العربى ، وكشف عن هذا التيار فى
أدب أبى الملاء ، وهو التيار الذى بدا فى نقده ، ذى الطابع
الاجتماعى ، لأن أبا الملاء كما يقول المحاسنى : - كان قد ملا
الدنيا بنقده ، ولم ينج من صيب نقده رجل ولا امرأة ، ولا قيل وأمير
أو غنى أو فقير أو عالم أو أديب .

(١) أبوالملاء ناقد المجتمع ص ٣ ط دار المعارف لبنان ١٩٦٣ .

(٢) كتاب تحية تودكرى ص ١٠٩ .

وكم كان المحاسنى حقيقيا في مثل هذا الاختيار ، ولعله كان رائد فتح جديد في هذا المجال من الدراسة ، عن أدب أبو العلاء ، حيث أتى بعده من درس أبا العلاء من زاوية نقدية أخرى هي — أبو العلاء الناقد الأدبي — في رسالة للدكتوراه في الأدب والنقد نشرت في كلية اللغة العربية في صيف ١٩٧٢ ، (١)

وقد وطأ المحاسنى لمبحثه بمقدمة في — فن النقد ومهمته الناقد — ، عرف فيها النقد بأنه : — فن التقويم — به يعرض على التمييز كل ماتقع عليه المين ، ويسقط في السمع ، وتلم به الاحاسيس وتدركه العقول ، وقد عرفه الانسان الالهي البشير منذ أقدم المصور . (٢)

ثم أشار الى تعدد أنواعه ، فمنه ما يتناول نقد الادب — منشور ومنظوم ، ومنه نقد سائر الفنون الاخرى كالقناء والموسيقى ، ومنه ما يتعلق بنقد الجماعة ، متناولا آثار أفرادها في مرافقهم ومعايشهم وميولهم وأعمالهم ، وما تبذع أفكارهم وتصنع أيديهم ، وما يكون بينهم من مظاهر الاجتماع في اشتات صفاته وعديد أشكاله . (٣)

كما أفاض في الحديث عن نشأة النقد في عصور العربية ، وتدرجه حتى وصل الى مرحلة نضوجه على أيدي الاعلام النابهين كالامدى والجرجاني وغيرهما .

(١) صاحب هذا الرسالة الدكتور — سعيد عبادة — المدرس في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر .

(٢) المصدر نفسه ص ٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧ .

حتى كان العصر الحاضر ، الذي تفاعلت فيه الثقافة المصرية مع الثقافة الأوروبية ، وقد اتخذ من هذه التوليفة مثلاً له في دراسته .

كذلك نبه المحاسنى على «الثقة من أعلام النقد الاوربى» الذين تأثر بمذاهبهم ومناهجهم فونقده ، فهو يذكر مثلاً - هنرى بيديو - وهو من كبار النقاد المعاصرين فى فرنسا ، كما يذكر : «برونتيير» و «بول سودى» وغيرهم ، منبها على مذاهبهم النقدية وطبيعتها .

كما يشيد فى اعجاب بالناقد «تين» ، الذى تدرج فن النقد على يديه ، حيث خرج به من نقد الاسفار الى الجماعة ، وعنى بحياة المقنود وبيئته التى عاش فيها ، ودمه الذى سار فى عروقه ثم يقول معلنا عن اعجابه بمذهبه ، وتأثره به واعتزاه السير على طريقته فى دراسته : « وبنى وسمنا بمذهبه هذا الآثار والاشخاص بان لنا صواب طريقته ، فى تحليل الاعراق ، ودراسة الجماعة وفترة الزمن التى عاش فيها الاديب ، على نحو ما ساضى فى هذه الرسالة فى دراسة المعصر وعصره وجماعته مظهرا ما سقم نقده للمجتمع وأسباب هذا النقد ونوازعه والوانه » (١) .

ومضى هذا أن المحاسنى فى دراسته عن النقد الاجتماعى عند ابن الملاء - قد طبق هذا المنهج الذى نادى به وطبقه فى دراسته هذا الناقد المشهور ، كما تترجم عنه الفترة السابقة .

ثم دلف المحاسنى بعد ذلك الى تقسيم النقد قسمين : موضوعى وذاتى . . .

(١) نفس المصدر ص ١٠ .

فالنقد الموضوعي من وجهة نظره ، هو : ما يعنى به نى نقد
الاثار نقدا موضوعيا بعيدا عن نوازع الناقد وأهوائه ، وليس ثمة
صلة تربطه بميوله وطباعه ، وتأثر نفسه .

والنقد الذاتى : يقصد به تناول الناقد الأثر المنقود حسب
ما يخالجه من الحس نحوه وما يبدو لديه من رأى خاص علت فيه
عوامل الذوق الشخصى وصلات الميل الفنى (١)

وخيرا لنقد فى نظره ما كان آخذا " بطرفى المذهبين بقدر
مقبول معقول ، فلا يهجم الناقد بمساحه ودروعه على المنقود ، ولا يهيم
بحب آثاره فتخفى على عينيه الميوب " (٢) .

وبعد هذه التوطئة فى النقد والناقد - درس المحاسنى - نقد
أبى الملاء الاجتماعى فى أهمية أبواب ، أطلق على كل منها اسم
- كتاب -

فالكتاب الأول - موضوعه - نقد الممرى لملاقات الجنس - وقد قسمه
الى فصول ثلاثة . الأول - طرد المرأة وقد ضم ثلاثة مباحث هى :
(١) نقد الممرى للمرأة (٢) أخلاق المرأة ، (٣) طبيعة المرأة .
والثانى - عن مثالية المرأة والزواج ، والفصل الثالث - الممرى فى
ميزان قرويسد .

(١) المصدر نفسه ص ١١ . وهذا رأى ليس بجديد فلقد سار عليه عديدا
من دارسى النقد والنقاد فى هذا العصر انظر : دراسات فى نقد
الأدب العربى د . بدوى طابانه ومعال النقد الادبى للدكتور
عبد الرحمن عثمان .

(٢) نفس المصدر ص ١١ .

أما الكتاب الثاني فموضوعه : " نقد المعري لملاقات الأعمال - في أربعة فصول :

الفصل الأول - الحكام والمحكومون ، والثاني - الطبقات
والفصل الثالث - بناء المجتمع وهادموه ، والرابع - نقاد المعري

وجاء الكتاب الثالث : صراط النقد - في سبعة فصول هي :

الفصل الأول - نقد الأدب الجاهل من الوجهة الاجتماعية .

الفصل الثاني - نقد النحاة واللفويين .

الفصل الثالث - نقد الفقهاء والقراء والمجادلين .

الفصل الرابع - نقد الأدباء والخطباء .

الفصل الخامس - نقد الفلاسفة والحكماء .

الفصل السادس - نقد أرباب النحل والاهواء .

الفصل السابع - المواعظ الاجتماعية .

ثم الكتاب الرابع - تهكم المعري ومن سخرته - في فصلين :

الأول - ملذع رسالة الففسران .

الثاني - التهكم العلاني .

ولقد استقام له هذه المنهج العلمي الدقيق ، بعد استقراءه
أدب أبي العلاء - شمرا ونثرا - ، وصنف منازعه واتجاهاته طبقا
لما استنبطه من أفكار ومبادئ ، تناولها أبو العلاء في أدبه ذي الطابع
الاجتماعي النقدي ، مستأنسا في ذلك كله بما اطمأن اليه من النصوص
وما ارتضاه من اخبار ، ضمها كتب التراجم والاخبار المعنية بأبي العلاء
وحياته وسيرته ، وكان دقيقا في سرد المقدمات واستنباط النتائج .

وفى حديثه عن بواعث النقد الاجتماعى عند الممرى ، يعزى بعضه الى الطابع النفسى ، الذى كان مبعثه - آفة كف البصر - التى ازمته ، والثى كانت عاملا من عوامل اعتزاله الناس ونقمة على المجتمع ، وبعضه يتصل اتصالا وثيقا بعصر الاديب ومظاهره .

وهو لم يهتد الى هذا المنهج الذى يربط الادب بنفس صاحبه ، هقرن الاديب ببيئته وعصره ، لم يهتد اليه تكهنا أو اعتداء ، وانما كانت سبيله فى التوصل الى ذلك ، رسائل أبو الملاء فى شعره ، الذى نكت فيه عن كربه ، وترجم فيه عن همومه وغيظه .

فلقد أورد أبيات أبو الملاء - فى هذا الصدد ، التى يقول فيها :

أخواننا بين الفرات وجلق	يد الله لا أخبركم بمحالسى
أنهتكم أنى على العهد سالم	ووجهي لما يبتذل بسؤال
وأنى تيممت العراق لغير ما	تيممه غيلان عند بلال
فأصبحت محسودا بفضلى وحده	على بعض أنصاري وقله مال
ندمت على أرضى المواضع بعدما	قدوت بها فى السوم غير مهال

ثم علق على هذه الأبيات بقوله : " وما بين الفرات وجلق الا المعرة وحلب وغيرها من ديار الشام ، فهو يخبر اخوانه فيها بحفاظهم على غرة لفسه ، وأنه لم يأت العراق متكسبا كالشاعر - غيلان ذى الرمة - عندما قصد بلال بن أبى بردة الأشعري بالعراق ، فمدحه مستمحا ، فعاد أبو الملاء الى المعرة مثقلا بالهموم ، وزاد فى فجيئته وأحزانه أن وجد أمه قد ماتت قبيل قدومه ، كذلك عاد أبو الملاء الى المعرة

قائلا من الدنيا وأهلها فقيرا منفصا ، فلم يكن أسكن لقلبه
وأشقى لدا ، يؤسه غير المنزل ، فكذب رسالة يمالن بها سكان
المصرة عن رغبته بمنزله ، الذي انتواه منذ عهد بعيد (١) .

ولم يرق المحاسنى اغزال المصرى وعزله ، ويرى أن ذلك
فرار من الواجب ، وقد كان يجدر به أن يعيش فى بهرة الحياة
الاجتماعية ، وأن يحيا فى صخب الناس ، يتحرس بأفان أدوائهم
وينصب وسطهم ميزان نقده ، رافعا عقيدته فى زجرهم وردعهم ،
موجها نداء لارشادهم ، لان نقده للجماعة بغية اصلاحها
فاصلاح المجتمع لا يتم بقصائد تنظم ورسائل تحبر ، وأسفار تؤلف ،
فما القول نافعا ، وما القول مجديا ، بشير أن يقوم المصل وينهض
الفصل (٢) .

وان كنت لا أوافق المحاسنى فيما ذهب اليه ، فما جدوى عمل من
كان على شاكلة أبى الملا ومن هو فى مثل خلقه ؟ ولعل مثلثه
ليس بقادر على أن يسهم فى اصلاح المجتمع ، أو يشارك فى نقده ،
بأكثر من قصائد تنظم ورسائل تحبر ، وحسبه ما قد فعل ، وإذا سلمنا
بأن المصل والفصل كليهما مطلوب فى مهمة اصلاح المجتمع والنهوض به
فان الحث على هذا المصل والتوجيه للفصل مطلوب كذلك وفى غاية الاهمية
وقد سبق أن نبهت على قيمة الكلمة وأثرها فى شحذ الهمة ، والتحرير على
النضال وأنه كان للأدباء والكتاب والشعراء فضل تذكية الحماس فى نفوس
الملاضلين الأحرار ، الذين انتزعوا الاستقلال انتزاعا ، وأرغبوا المستعمر
على الجلاء والرحيل (٣) .

(١) أبو العلا ناقد المجتمع ص ١٥ ١٦

(٢) المصدر السابق ص ١٦

(٣) انظر ص من هذا البحث

وكذلك كان الأدب الاجتماعي وسيلة من أقوى الوسائل ففى
سبيل التحرير من رقة التقاليد الاجتماعية البالية ، أو النهوض
بالقيم الاجتماعية المنشودة ، وسوف تظل الكلمة دائما محط اعتبار
وتأمل ، مابقيت الانواق التى تدرك قيمتها وتمس فاعليتها .

واذا كان الحاسنى قد نهى على طريقتى النقد بين الذاتية
والموضوعية ، ورأى أن الناقد الحق من يجمع بين الطريقتين ، ويوائم
بين المذهبين ، فإنه يصدد تطبيق ذلك على النقد الاجتماعى
عند أبى الملا ، رأى أن صاحبه فى نقده للجماعة قد جمع به خياله
وكان أكثر انقيادا لأهوائه ، حين أخذ من النقد الذاتى أكثر مما
أخذ من النقد الموضوعى .

وقد علل لذلك تعليلا علميا لا يخلو من الدقة ، لأنه بسيط
فيه بين نفسية أبى الملا وبين أسلوبه فى نقده .

فأبو الملا قد نغم على الأغنياء مثلا ، لأنه عاين الفقر والسم
حين عضه سفره وكابد قلة المال والاعصار فى مقامه ، ونقد الحكام
والولاة حين اصطلى بنارهم فى ظلم الرعية واستباحة ماله وتركههم
مصلحتها ، كما أنه ثلب المرأة ونظر فى معائبها ، لان فى طبيعته -
صدوقا عنها ، وفى طبيعتها عزوف عن مثله ، وهول فى تضايها السنزواج
لرغبته عن الزواج وزهادته فيه ، ونقد منذ كهولته من يذبح الحيوان
ويأكله ، لأنه أبه لهذا عند شيب الذوائب ، وعند اعتناق مذهب
أكل النبات ، ولم يكن قبل رحلته لبغداد ينقد أكله اللحم وماتج من الحيوان
(١)

(١) نفس المصدر ص ١٧ .

وذلك كله يعنى عندنا شيئا واحدا ، وهو أن أبا العلاء ، كما
صوره المحاسنى كان متجنبا أحيانا فى بعض هذه الأحكام النقدية
التي انتقاد فيها لذاته ، وخضع لنوازغ نفسه ، وشط به حكمه عن
ميزان النقد الموضوعى السديد .

وهذا بالضبط ما اهتدى اليه المحاسنى فى تفسيره لنقد أبا العلاء ،
الذى حمل هذا الطابع الذاتى .

فلقد تناول نقد أبا العلاء - للفقراء والأغنياء (١) - فى بحث
طويل صدره بقوله : " كان من البديهي أن يعنى أبا العلاء بالفقر
والفنى ، لأن هذين العاملين خلقا مع الانسان وأحسب سيقين
مابقى الملوان .

فأبو العلاء وقد تناول بنقده المجتمع فى مظاهره وبواطنه ، كان
جديرا أن ينظر الى الفنى والفقر نظرة متمكن أريب ونقادة عجيب .
ترى لو كان ذا ثروة ومال وخدم وحشم وإمارة وحكم ، هل كان
يتبسط فى نقد ذوى المال والأثراء ؟

ان استقصاء سيرته والتنقيب فى تاريخ حياته ، يدلان على أنه
لم يكن يملك فى سنته كلها أكثر من ثلاثين دينارا ، كانت تجرى عليه
من عتار موقوف ، وقد ذكر هذا فى مكاتبه لداعى الدعاة الفاطمية
فقال :

" ولّى فى العنة نيف وعشرون دينارا ، فاذا أخذ خادمى بمضى
ما يجب بقى ما لا يجب ، فاقتصر على قول ولسن ، وما لا يمدب باللسن "

(١) المصدر نفسه ص ٧٠ .

ثم عتب المحاسنى على هذا الخبر فقال : * فأبو العلاء اذن لم يكن غنيا ولا ذا ثروة ولا متوسط المال بين الناس وانما كان فقيرا * .
ولا يكفى المحاسنى بقول أبي العلاء الذى استنبط منه هذا الحكم السابق ، وانما ألح فى تعزيز حكمه وتوكيد استنباطه ، فساق قول أبي العلاء ، لتلاميذه الذين قصدوه من أقاصى البلاد ، وكأنه يعتذر اليهم من البذل والاحسان (لا مال تيسر لى) ، كما استدل ببيتى أبي العلاء اللذين وجههما لتلاميذه كذلك ، واعتذر فيهما عن فلسه وهما :

أطلبتم أدبا لى ولم أزل منه أعانى الحجر والتفليس
(ما كنت ذا يسر) فاجمعوه ولا ذا صحة فأحالف التفليس

ولقد كان هذا كافيا كدليل على فقر أبي العلاء ، ومعاناته من ضيق ذات يده ، ولكن المحاسنى اطمأن فى الدقة والاستقصاء ، ينقل عن ياقوت الحموى قول أبي العلاء : * فأمليت أشياء تولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبي هاشم أحسن مموتته ، فالزمس بذلك حقوقا جمعة ، وأيادى بيضا ، لأنه أفنى فى زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن له الجزاء ، ويقيه حوادث الزمن والارزاء * .

حتى انتهت من هذه البراهين كلها الى قوله كنتيجة لما ساقه :
* فأبو العلاء يقول بالفقر ، لانه شمار الزهد ودفار القناعة ، وصورة المزوف عن الدنيا ، ويذم المال والمحمولين ، لان المال والثروة حباله الشيطان ، ووسيلة الضلال فى الوجود ، فلا المال يبقى ولا ذروه (١)

(١) المصدر السابق ص ٧٠ ، ٧١ .

ومن نماذج نقد أبو العلاء فيما أورده المحاسنى فى هذا
المعنى قوله :

وكثرة المال شغل زاد فى نصب وقلة منه معدول بها التلف

وقد عقب عليه قوله : " نقد كثرة المال ، لانه يراها نصبا للإنسان
وتعبا ، ورأى قلة المال كالقتل للإنسان ، وهذا رأى شاركه فيه الكثير (١)

ولقد تتبع المحاسنى أبا العلاء فى أبياته التى انتقد فيها الاغنيا
والفقراء ، والتى عبرت عن فلسفته النقدية ، ازاء الفقر والغنى ونبسه
فى دقة المالم وذوق الاديب وتمحيص الباحث ، على ما عساه أن يكون
قد أثر فى أبو العلاء من معنى أخذه عن غيره من الشعراء السابقين .

فهو يقول مثلا عن أبي العلاء : " ولا يفوته - كدأبه - أن يرمى
بيت صاحبه أبي الطيب الذى يقول فيه :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

فيجربى على غراره ويقول :
إذا زادك المال افتقارا وحاجة الى جامعيه فالشراء فهو الفقير (٢)

وهذا فى رأينا يدل على أمانة فى البحث ، وبعد عن الميل
أو الشطط فى استخلاص النتائج ، وذلك ما تحتمه طبيعة البحث العلمى
الأمين ، الذى يأنف من التمصب ، ويتأفف من الانسياق وراء الهوى
والجموح .

(١) أبو العلاء ناقد المجتمع ص ٧٢ •

(٢) المصدر السابق ص ٧٢ •

ولا أدل على ذلك من أن المحاسنى ختم هذا البحث بقوله
دون ماتمصب أو هوى : " . . . ذلك جملة من نظر أبى العلاء السى
الفقر والفنى ، وكنت أمنى النفس فى أن أقح لأبى العلاء على رأى فى
تنظيم الثروة على غرار آراء هؤلاء الاقتصاديين ، الذين بسطوا
سلطان نظرياتهم على الأموال العامة والخاصة فى أيامنا ، فلم أجد
أبا العلاء ذا رأى اقتصادى فى المال والفنى والفقر " (١) .

ويدل هذا على التجرد من الهوى ، فى البحث عن الحقائق ،
وتفسير الظواهر الادبية وليس ذلك بالشىء اليسير .

ويعزى الى المحاسنى فى هذه الدراسة العلمية الجادة ، فضل
الكشف عن منابع نقد الممرى ، وإبراز الافكار التى أثرت فيه ، ثم
تحديد منابع ثقافته ، التى وجهت نقده الاجتماعى هذه الوجهة .

ففى حديثه عن - نقد الممرى للمرأة والنسل والزواج (٢) - يرى
أن أبا العلاء لم يكن مبتكرا لتلك الافكار ، التى اعتنقها وآمن بها ،
ودعا اليها مثل : الزهد والتقصف والقناعة بشظف المعيش ، ومثل كرهه
الزواج وبعده عن ذبح الحيوان لتلايالم ، وإنما هى أفكار لها أصول
ومبادئ فى اليونانية والفارسية والهندية ، التى تأثر بها أبو العلاء ،
وتبناها تبنيًا ، وأكثر من اعتناقها ، حتى عرف وحده بها ونسبت
فى العربية اليه ، مخالفًا فى ذلك " مرجليوث - الذى أنكر على أبى
العلاء ، تلقيه أقوال الفلاسفة من راهب فى دير نزل به فى اللاذقية (٣) .

(١) المصدر نفسه ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) ٢٤ (أبو العلاء ناقد المجتمع ص ١٨ - ٢١ بتصرف .

ويبدو في هذه الدراسة طابع الاستقصاء والشمول ، والمكسوف
على شعر أبي العلاء - العويس في مساره ، العميق في افكاره - دراسة
وتذوقا وتأملا واستنتاجا ، لهذه التصنيفات النقدية ، لطبقات المجتمع
على عهد أبي العلاء .

وهذا فيه ما فيه من الصبر والجلد ، والقدرة على البحث الدقيق .
ويحسن أن نقف على صور من هذه الدراسة تميز ما ذهبنا اليه .

ففي الفصل الثالث من الكتاب الثاني - بناء المجتمع وهادموه (١)

يمرض المحاسنى نقد الممرى للمشايخ والقسوس . مهتدا بقوله :
" لا جرم أن الممرى معنى بالشيون ، وبالقسوس ، بالاحبار والرهبان
فقد ناجزهم حرب النقد ، فناصره المداوة واتقوه بالتهمة ، وعنف
عليهم بالتلوا فتلوا عليه بالتجريح ، كان يتناول بوصفه صورهم
وينقده أخلاقهم ، ويصور فيهم جماعة اللبوس الكاذب ، والقول الخالب ،
ومستبطنه النفاق ، ومتخذى الدين أداة لجز المغانم ودفع المفسارم
انه لم تخف عليه مناسكهم الباطلة ، وكان يحصرهم يحج بهم ، فنهم
خلق كثير في مجالس الملوك ووطانة الامراء ، وكان منهم مئات من أهل
المقد والحل والادب والملم .

قد ابتلى بهم الشام على عهده والمراق ، وأصاب فيهم أبو العلاء
من كاد له عند حاكم ، ومن دس عليه عند أمير ، ومن جاد له في مجلس
أو ناظره في رسالة ، ومن أمر بسعيه من رجله وطرحه خارج المسجد ،

(١) أبو العلاء - ناقد المجتمع ص ٨٠ وما بعدها .

أو من تقول عليه الاقاويل وافترى عليه الاباطيل ، ومن اتهمه بالزندقة
والمروق .

ولقد استبطن المحاسنى شعر أبى الملا فى هؤلاء جميعا ، واستشهد
بكثير من الابيات التى حمل فيها أبوالملا على من تجنى عليه منهم
حملة عنيفه .

كما راع أبوالملا ما شاهده من شيوخ عصره وقسوسه من المتعبديين
الوعاظ ذوى المكر والحيل ، الذين كانوا ينقلبون عن مجالس الارشاد
الى مقاصف الدنان ، فيصف أحدهم بهذين البيتين :

رويدك قد غررت وأث حـرر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصها عبحا ويشربها على عمد مسا

كما أعياء البحث عن ذوى الدين الصحيح ، الناسكين لوجه الله
فلم يجدهم فقال فيهم (١) :

وقد فتشت عن أصحاب دين لهم نك وليس لهم رياء

ولم يعتمد المحاسنى فى استظهار نقد أبى الملا الاجتماعى
على شمسة وحده ، وأنا عايش المصرى فى نشره كما عايشه فى شمسه -
فهو يقول : - وما خلا نشر أبى الملا من نقد من أظهروا التعبد
وأبطنوا الجحود (٢) : -

وقد اعتمد المحاسنى على - رسالة الففران - لأبى الملا ،
لاستخلاص النقد الذى صوبه فيها على المجتمع وطبقاته .

(١) أبوالملا - ناقد المجتمع ص ٨٥ .

(٢) أبوالملا - ناقد المجتمع ص ٨٦ ، ٨٧ .

ونقل عن أبي العلاء قوله في رسالة الففران - في نقد من أظهروا
المباداة وأبطنوا الكفر : " .. واذا رجع إلى الحقائق ، فنطشق
اللسان لا نبيي عن اعتقاد الانسان ، لان العالم مجبول على
الكذب والنفاق ، ويحمل أن يظهر الرجل بالقول تدينا ، وانما يجعل
ذلك تمزيقا ، يريد أن يصل به إلى ثناء ، أو غرض من أغراض الخالصة
أم الفناء ، ولعله قد ذهب جماعة هم فيما ظهر متعبدون ، وفيما
بطن ملحدون ، وما يلحقني الشك في أن دجيل بن علي ، لم يكن
لديه دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ، وانما غرضه التكسب ، ولا أرتاب
أن دجيلا ، كان على رأي الحكمي - أبو نواس - وطبقته ، والزندقة
فيهم قاشية ، ومن ديارهم ناشية " (١) .

وفي تناوله نقد أبي العلاء - للأدب الجاهلي من الوجهة
الاجتماعية (٢) - يعول كثيرا على - رسالة الففران - ويقف عند كل
غزة أو لمزة رمى بها أبو العلاء شعراء الجاهلية كلا على حدة ، - كامرئ
القيس والنايف والاعشى ، وعشرة وعمر بن كلثوم ، كما وقف على النقد
الاجتماعي للأدب الاسلامي على هذا المستوى ، فتناول حسان بن
ثابت في أشياء ، كان ينبغي أن يتجرد منها شعراء ، حين مدح
الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقصيدة ورد فيها ذكر الثمر ورسق
المرأة ، كما عرض للحطيئة والأخطل التغلبي وشار بن برد ، ثم تناول

(١) أبو العلاء - ناقد المجتمع ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٠ وما بعدها .

كذلك — النقد الاجتماعى للأدب المباسى والأندلسى — كما ورد فى تراث أبى العلاء النثرى على المستوى السابق • منها على طبيعة هذا النقد ومنهجه عند أبى العلاء ، الذى " لم يطل الوقوف بقضايا الادب ، وانما اكتفى بأن ينقدها نقدا عابرا موجزا ، وكان اذا عرض لذكر شاعر أكثر الاستطراد فى شأنه دون جثوم على نقدته واستقصاء لها (١) •

(٢) كما عقد المحاسنى فصلا عن نقد أبى العلاء — للنحاة واللغويين وعرضه عرضا مركزا ذكر فيه ضيق المصرى وامتعاضه الشديد من النحاة الذين عقدوا النحو ومساائله ، مؤيدا أبى العلاء فيما ذهب اليه •

ولقد أورد طائفة من نماذج النقد هذه ، لعدد من النحاة ، كأحمد بن يحيى المصروف بتملب ، والكسائى وسيبويه وغيرهم • منها على ما فيها من سخرية لازعة وتهكم مرير •

ومن ذلك قول أبى العلاء عن أبى على الفارسى فى رسالته لفقران : " وكنت قد رأيت فى المحشر شيئا لنا ، كان يدرس النحو فى السدار الماجلة ، يعرف بأبى على الفارسى ، وقد اتمرس به قوم يطالبونهم ويقولون تأولت علينا وظلمتنا " •

ثم يعقب المحاسنى على هذه الرسالة بقوله : " وفى قول أبى العلاء هذا غمزة خافية ، لكنها شديدة " (٣) •

(١) أبى العلاء — ناقد المجتمع ص ١٠٦ •

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ وما بعدها •

(٣) المصدر السابق ص ١١٠ — ١١١ •

كما عقد المحاسنى فصلا لنقد أبى العلاء - طائفة الفقهاء
والقراء والمجادلين ، وفصلا لنقده - الأدباء والخطباء - وآخر لنقده -
الفلاسفة والحكماء .

وكأننى بالمحاسنى قد عمد الى طبقات المجتمع التى كانت
تميش فى عصر أبى العلاء ، فوجدها جميعها ، قابضة فى أدب أبى العلاء
الناقد الاجتماعى الدقيق ، ثم صنف هذا الكتاب المستقصى طبقا
لهذه النظرة .

بيد أننى أرى أن بعض هذا النقد الذى عده المحاسنى داخلا
فى اطار النقد الاجتماعى ، هو من صميم النقد الفقهى أو الفنى أو اللغوى
لا سيما الفصول الاخيرة ، التى دارت مباحثها حول الأدباء والخطباء
واللغويين والنحاة .

والكتاب فى جملة عمل علمى دقيق ، يدل على عقلية باحثة
متعمسة ، وذوق أدبى رفيع ، ومملكة ناقدة متذوقة ، هذا فضلا عن
جدته وابتكاره فلقد أظهر جانبها جديدا من جوانب أبى العلاء ، لم
يسبقه اليها باحث .

وتلك اشارة تبرهن البحوث الجامعية ودليل أصالتها .

٢ - شعر الحرب فى أدب العرب :

" شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الاموى والعباسى
الى عهد سيف الدولة "

هو البحث القيم الذى حصل به المحاسنى على درجة " الدكتوراه "
فى الآداب بتقدير " جيد جدا " سنة ١٩٤٧ وأشرف عليه فيه الدكتور
عبد الوهاب عزام .

وقد تناول المحاسنى فى هذا الموضوع البحث الفنى فى شعر الحرب، الذى قالته العرب فى عصور مجدها ، تصف فيه بأس أبطالها فى حومات الوغى وفروسياتهم فى زحمات القتال وبلادهم فى أشرف أيامهم وأروعها ، وأشد حروبهم وأتساها ، حين كان بعضهم يغير على بعض أو يجتاز حدود بلاده للفتوح فى صدر الاسلام ، أو يحارب جيوش البيزنطيين فى زمن المعتصم أو عهد سيف الدولة (١) .

أما قيمة هذا الموضوع وأهميته التاريخية والأدبية والباعث على دراسته ، فلقد نبه عليها المحاسنى فى مقدمة هذا البحث قائلا : " وإذا كان شعر الحرب فى الأدب العربى هو أقوى ما نظم الشعراء وأبقى على ترادف الاحقاب ، لانه يتصل بالامة فيضم مجد ماضيها الى عزة حاضرها ، وهو وحده سجل فخرها وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها ، فقد اخترت أن أؤلف كتابى فيه ، وسدد عزيمتى بذلك الحرب المالمية الثانية ، التى وضعت أوزارها على مناكب الانسانية الحديثة ، ومازال دهاقين ساستها الى اليوم بعد اندحار أعدائهم ، يتماورون ما بينهم حربا فى خبايا النفوس ، بعد أن اقتسموا الاسلاب والمغانم .

فأهاجت عندى الحرب بويل آلتها ويطش دعائها ، تلك الحرب المرمية القابرة التى أخذت شعر العرب وصفا لها ومجلى لوقائعها ، وكان أبطالها الكماة المناجيد أحلاس الخيل وأعلام الشجاعة يجمعون الى القروسية والبطولة فنون الشعر وسحر البيان " (٢) .

(١) مقدمة شعر الحرب فى أدب العرب ص ٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦ .

ولقد اتبع المحاسنى فى بحثه هذا - كما اتبع فى سابقه - المنهج الجامعى فى التبيين والتفصيل والتقسيم والترقيم ، معتمدا على التحليل والتركيب حيناً والموازنة والنقد حيناً آخر ، وذلك لاستكشاف الظواهر والأدبية الحماسية وربطها بأسباب السياسة والتاريخ ، وسبيله فى ذلك استقراء النصوص واستبطان ما فيها ، واعتماده على الأخبار الموثقة التى سجلت الوقائع والحروب تسجيلاً دقيقاً ، لا سيما كتب المستشرقين الثقات ، التى عول عليها كثيراً فى تحليل شعر المتنبى الذى قاله فى حروب سيف الدولة مع البيزنطيين •

وقد مهد المحاسنى لبحثه بمدخل طويل تناول فيه الحديث عن أدب الملاحم عند الأمم القديمة ، ثم استرسل فى الكلام عن الملحمة المربية - على هذا النحو :

- ١- الملاحم فى آداب الأمم القديمة والحديثة •
- ٢- الشعر الحربى والشعر القصصى •
- ٣- الملحمة فى الأدب العربى •
- ٤- العرب أمة حرب (١)

حتى اذا فرغ من هذا التمهيد ، تناول الحديث عن شمس الحرب فى العصر الاموى - فصلاً ما استطاع من تفصيل متسا بجوانب البحث ، مخرجاً على كل ما فى العصر من حروب حزبية داخلية وحروب أجنبية خارجية ، وفى كل مكان من أمكنة الحرب الداخلية والخارجية نجد الشعر يشفع بالتاريخ ، حتى ليتحول فى كثير من الجوانب الى بديع من الشعر ، وكأن الكاتب يريد أن يصف الشعر بالشعر •

(١) المصدر السابق ص ١١ - ص ٤٢ •

وكان منهجه في هذا الباب على هذا النحو :

أ - تمهيد عن شعر الحرب في العصر الأموي ضم بحثين هما :

- ١- الحياة الأموية الجديدة وشعر الحرب .
- ٢- الحماسة الأموية بين الحرب والسياسة .

ب - هيكل الباب وفصوله كما يلي :

- الفصل الأول - شعر الحرب عند الخوارج .
- الفصل الثاني - شعر الحرب في أدب الشيعة .
- الفصل الثالث - شعر الحرب في أدب الزبيريين .
- الفصل الرابع - شعر الحرب في ظل الأمويين .
- الفصل الخامس - الفروسية والقبيلة .
- الفصل السادس - شعر الحرب عند الهجائيين .
- الفصل السابع - شعر الحرب الخارجية زمن بني أمية . وضم :
- أ - شعر الحرب وراء خراسان .

ب - الشعر في حرب السروم .

وهذا المنهج الذي تهجه في دراسة شعر الحرب في العصر
الأموي ، كان خاضعا للتيارات الأدبية في النوازع الحزبية
والسياسية ، إذ كان الشعراء قد ذهبوا شيئا متحيزين ، حسبما دعت
الأيام والبيئات ، وعلى مقتضى الأساليب ، التي كان يريد لها الساسة
والحكام ، ووفق التنايد القبلي وعصبية النسب ، التي كانت بين
اليمانية والمدنانية والتغلبية والقيسية (١) .

(١) المصدر السابق ص ٧ .

ومن خلال هذه الدراسة المستقصية لشعر العرب في عصر بني أمية ، كشف المحاسنى عن أن هذا اللون من الشعر ، قد صـسـور الحماسة العربية في أصدق مظاهرها وأروع بيئاتها ، مسكوبا عليه لونها من العبقرية ، أحدهما : عربى عميق في باديته وأبله وخشونته وبأسه ، والثانى : اسلامى دينى في روحه وبواعثه وشوابه وآخرته ، ولقد عبر المحاسنى عن إعجابه الشديد ببطولة الخوارج ، التى رآها تهذب فروسية أبطال الأساطير ، الذين تحدث عنهم هوميروس فى إلياذته ، كما رق قلبه لآحزان الشيعة ، التى شاعت فى حبيبتهم وفدائهم ، كما عبر عن اعتزازه بحماسة شعراء بني أمية ، وإعجابه بشعراء الفخر والهجاء منهم .

وتكمن قيمة دراسته لشعر العرب فى هذا الباب ، أنه لم يكشف بتصيد القصائد الحربية من دواوين أصحابها ، أو استظهارها من كتب الحماسة فى سرد وتصنيف ، كما يركن الى ذلك كثير من الدارسين فى مصنفاتهم وبحوثهم ، وإنما اتبع منهاجاً فنياً فى تحليله النصوص التى اختارها ، ونبه على خصائصها الفنية من حيث : المقاطعة والصورة والموسيقى وهيكل البناء - وقد توصل بعد جهد جهيد ، ودراسة متذوقة ، الى أن الشعر الحماسى فى عهد بني أمية ، عند شعراء الأحزاب المختلفة ، قد سار فيه أصحابه على غرار شعر الحماسة فى عصر الجاهلية ، ونسجوا على منواله ، ورد ذلك الى طوابع العصر الأموى وثقافته العربية المحضنة التى لم تتأثر بالثقافات الأخرى المؤثرة بدورها فى دياجاة الشعر وحيكته ونائه .

وان كانت معانى هذا اللون من الشعر ، قد بدا فيها تطـوـر ظاهر ، وتجليب بآردية معاصرة ، وشاع فيها جانب من معانى القرآن

الكريم والحديث الشريف ، وذكر الجنة والنار والثواب والعقاب وغيرها من
الأماني الإسلامية (١) .

وهذا المنهج الذي نهجه المحاسني في دراسته هذه ، يقوم
على التحليل الفني الدقيق ، الذي يحمل طابع الاستقصاء والمصق
ووضوح الرؤية الفنية ، حيث وقف على النصوص الشعرية بما فيها من أفكار
واتجاهات ، وما تحمل من معانٍ وقيم شعرية ، محلاً وناقداً منصفاً
لا تميل به الأهواء ولا تحيفه الأغراض .

ففي - الفصل الذي درس فيه - شعر الحرب في أدب الخوان
مثلاً يمهّد له بإيراد طرف من أخبارهم وسيرهم ، التي تدل على جههم
للمثقة إلى حد الفناء فيها ، مؤكداً هذه الأخبار بمناج من شعرهم
تنطق بصحة هذه الأخبار وتزيد عليها ، وبعد أن فرغ من سوق هذه
القصائد القوية ، المقونة بالأدلة الناعمة ، ذهب إلى هذا الاستنباط
الدقيق المثل في قوله : " وفصل الخطاب في شعر الحرب عند الخوان
أنه صورة ثورة غالية المناد ، جامعة القياد ، تستبج دم من لا يرام -
بها ، وكانت تتخذ السلاح سبيلاً إلى نشرها ، كثورات الاقوام وفتنهم
المارمة ، وقد امتازت ثورة الخوان من سائر الفتن بأنها كانت ذات مثل
عليها لوجه الدين وحده ، ولم يصبغها صابغ بامر الدنيا ، كحروب
الهاشميين والامويين وثورات الشيعة .

وقد رُفد هذه الثورة الدينية شجاعة خارقة وبطولات جبارة نادرة ،
كان حاديتها أشعارهم الحربية ، وكأنهم كتبوها على شفار السيوف ، التي
كانوا يكسرون جفانها ، ثم يصممون بها فروعهم الحروب ، وشعارهم أبداً
(١) انظر هذا الخصائص بتوسع في المصدر السابق ص ٣٦ وأبعدها .

- لا حكم الا لله - (١).

كما قامت دراسته كذلك ، على الموازنة الدقيقة بين شعراء كل حزب من هذه الأحزاب في هذا الغرض الشعري ، وهو المعنى بتصوير البطولة والحماسة وما تلزمه الحروب من وسائل ، وما تتطلبه من غايات ، وذلك بعد أن ينه على السمات الفنية التي تميز بها شعر كل واحد من هؤلاء الشعراء على حدة .

فقطرى بن الفجاءة ، وإن لم يصلنا كثير من شعره ضنا من الرواة ، أو تعصبا على الخواص المضطهدين من عامة المسلمين ، يرى المحاسنى فى شعره " صورة لحقيقة قلبه وعقله ، وأنه صدى لكل خارج متعبد لأن قلبه امتلاء بحب الحرب ، واستولى على عقله جدل التدبير - وفقه العقيدة " (٢) .

ولم يبعث المحاسنى حكمه على الشعراء في هذا الغرض جملة ، وإنما نظر الى العمل الفنى فقومه بميزان الناقد العادل والباحث الدقيق ، فهو يقول عن شعر قطرى - فى معرض موازنته ببعضه : " وشعره فى ميزان الادب - كما أجده - متفاوت القيمة ، فتصيدت - فى أم حكيم فى ذروة الشعر الحرس ، بل فى عداد الجياد ما قال شعراء العرب من شعر رفيع الصوغ محكم البيان والمعانى ، لم تنفسر كلماته ، ولا ندت أبياته ، فكانت صورة رائعة الشعاع واللون ، أنه جمع بين لين الكلمات الفزلة ، وفجيمة الحزن وصلابة الحماسة .

(١) المصدر السابق ص ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٦ .

أما أفعاره الباقية فمفاوأة بين الجزالة والركة ، ولكها
جميعها لا تنهض الى جو شعره فأم حكيم ، فان تلك الميمة التي
قالها في حرب دولاب نعمة انسانية مصبغة بالدم ، ميادة بالهوى
فؤارة بالحاسة * (١).

وهذه أبيات من قصيدة قطري في زوجه - أم حكيم - التي قالها
في حرب دولاب ، والتي استحسناها المحاسنى استحسانا لا مزيد عليه
وعدنا من روائح الشعر المربى ومن عيونه ، في صياغتها وبيانها
ومعانيها ، وعواطفها المتباينة ، يقول قطري :

لمرك انى في الحياة لزاهد	وفي الميش مالم الق أم حكيم
من الخفريات البيض لم ير مثلها	شفاء لذى بث ولا لسقيم
لمرك انى يوم ألطم وجهها	على نائبات الدهر جد لثيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت	طمان فقى في الحرب غير ذميم
غداة طفت في الماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول حدنا	وأحلافها من يحصب وسليم
فلم أريوما كان أكثر مقصا	يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خدا كرىما على فتى	أغر نجيب الامهات كرىم
أصيب بدولاب ولم تك موطننا	له أرض دولاب ود يرحيم
فلو شهدتها يوم ذاك وخيلنا	تبيع من الكنار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم (٢)

(١) ص ٦٨ - المصدر نفسه .

(٢) شعر الحرب في أدب العرب ص ٦٥ .

وفى سبيل الموازنة بين قطري وعمران بن حطان ، وهما من أشهر شعراء الخوارج ، يأتي بنماذج لكل منهما فى الفرض الحربى من شعرهما ثم يحلل ما أورده تحليلًا فنيًا دقيقًا ، حتى يخلص إلى هذه النتيجة قائلا : " قرنت عمران بن حطان بقطري ، فوجدت عمران أصعب من قطري دينًا ، وأشد غلوا فى فكرة الخوارج وانصرافا إليها ، لكنه دونهم فى الشجاعة والبأس ، فان قطريا أحكم الخوارج شجاعة وأسا ، وهو على قلة شعره الحربى الذى سكب خلاصة فنه ، قد أصك بعنان شعر الحرب ونزعة الخوارج فسار بهما فى شوط واحد ، أما عمران فقد انحط مليا فى شعر الحرب وفى حدة الفروسية وسورتها ، وبلغ من طغيان مذهبه الدينى على شجاعته وحربه ، أن اعتزل القتال ، فكان من القعدة حين ضعف عن الحرب وحضورها ، فاقصر على الدعوة بلسانه ، على أنه كان حديث عهد بنزعة الشراة ، فقد روى عنه أنه كان مشغوبا بطلب العلم والحديث قبل أن يفتن بهم " (١) .

هذا ، ولم تكن موازنته الفنية هذه وفقا على شعراء الحزب الواحد ، كما فعل فى موازنته السابقة ، وإنما وازن بين شعر الحرب عند شعراء كل حزب جملة فى محاولة لاستنباط ما تميز به شعر عن شعر من خصائص وسمات .

ومن ذلك موازنته الصيقة الشاملة ، بين شعر الحرب فى أدب الشيعة ، وبينه فى أدب الخوارج ، والتي فرغ منها إلى قوله : " كان الشيعة فى شعر حربهم هذا ، أقل فروسية من الخوارج ، وأكثر دعوى منهم ،

(١) المصدر نفسه ٦٨ ، ٦٩ - وقد أصدر هذا الحكم معتمدا على تتبعه لتاريخ كل من الشاعرين وبنماذج شعره .

وقد مزجوا السياسة بالدين ، بينما كان الخوارج بعداء عن نزعات
السياسة الجامعة ، ولم تكن السياسة الجامعة في يوم من الايام مطالبهم
وانما كانوا يبتغون رفع كلمة الله * .

* أما الشيعة فكانوا ذوي رأى سياسى عنيف الى جانب رأيهم
الدينى ، ولم يكونوا يحاربون وراء فكرة عليا كالخوارج ، وانما كانت
فكرتهم دينوية خالصة لوجه الحكم ، فهم يريدون أن ينصبوا آل البيت
في سدة الخلافة ليكونوا أمراء على الناس ، فلذا كان بنو أمية أشد عليهم حروبا
وأصلب قلوبا مما كانوا أهل ثورة ، وليسوا أهل مطلب ، أما الشيعة
فكانوا أهل ثورة ومطلب في وقت واحد * (١)

ومثل هذه الدراسة الموضوعية المتألمة ، ذات المنهج التكاملى

الدقيق ، درس المحاسنى - شعر الحرب في العصر الاموى - .

وفي الباب الثانى - شعر الحرب في العصر العباسى الاول - نرى المحاسنى
يفيخ في دراسته له افاضة بالغة ، حتى لا يكاد يبقى على شعر في مكان
من أمكنة الحرب داخلية أو خارجية الا وقف عنده مسجلا له ، واصفا
ما كان من حرب برية أو بحرية ، مفيضا في عرض النصوص والحقائق التاريخية
وقد غلبت على منهجه في دراسة شعر الحرب في العصر العباسى الطريقة
الفنية ، التي اقتضاها الشعر العباسى وحده - كما يقول - وذلك لضعف
السياسة يومئذ وتوزع السلطان ، فحاول ما استطاع أن يلفت أذن الشعر
الحساسى الفني الى أسباب التاريخ ودواعى السياسة ، حتى أوفى على زمن

(١) نفس المصدر ص ٨٠ ، ٨١ .

المتمم وسيف الدولة ، فأخضع البحث للنص ، إذ أخرج من دواوين
البحترى وأبى تمام والتمنى وأبى فراس حوادث البطولة وأوصاف الحروب
التي سكت التاريخ عن كثير منها أو تفاضل (١) .

ولقد مهد المحاسنى لدراسته هذه بفصل ضاف موضوعه - تطور
الشعر في العصر العباسى الاول (٢) - تناول فيه تحضر الدولة ،
وتطور الشعر وتجده ، وما طرأ على شعر الحماسة من تغيير ، ثم درس
نطاق شعر الحرب في هذا العصر على هذا المنهج .

شعر الحرب الداخلية وضم :

١- . سيف القرامطة .

٢- . علوى البصرة وتصوير ابن الرومى لمذبحة الزنوج

وضم هذين المبحثين الفصل الثانى من الباب الثانى .

وتناول الفصل الثالث - شعر الحرب الخارجية فى الشرق والغرب -

١- فتنة بابك الحزمى ٢- خلود الطوسى

٣- فتح عمورية ٤- أسد الثفـور

٥- روميـات البـحـترى ٦- خاتمة أسد الثفـور

وتناول الفصل الرابع - الحرب البحرية -

١- الحرب البحرية عند العرب .

٢- أسطول المتوكل والممركة البحرية .

(١) المصدر السابق ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤١ - ١٥٤ .

والفصل الخامس - خصائص شعر الحرب في العصر المباسي - ضم مبحثين هما :

١- فن أبي تمام في شعر الحرب •

٢- مياسم عامة لشعر الحرب •

والباب الثالث موضوعه - شعر الحرب في ظل الحمدانيين -

وامتثل على ثلاثة فصول :

الفصل الاول - الدولة الحمدانية - قيامها ، ولون سياستها ، حروب الحمدانيين

مع الروم ، الادب الحمداني وخصائصه •

والفصل الثاني - شعر الحرب عند المتنبي •

والفصل الثالث - شعر الحرب عند أبي فراس الحمداني •

ثم ختم كتابه بالحديث عن - مؤلفات الحماسة القديمة ومنهجها وطريقة تصنيفها •

ولم يسلك المحاسنى في تطبيق هذا المنهج سبيل من سبقوه الى دراسة الشعر الحماسى من المتقدمين الذين عالجوه لا بسبيل الفن ، وانما فعلوا ذلك لفاية التاريخ وفي مطالب اللغة لتفسير كلماتها ، اولاعراب فى مناقشة وجوهه ، كما فعل أبوزكريا التبريزى فى شرح حماسة أبى تمام ، .. وما صنمه أبو الفتح - عثمان بن جنى - فى اعرابه لشواهد الحماسة الطائفة أو نقد اللغوى ، وغيرهما كالخالدين - فى تصنيف كتابهما الحماسة الخالدية المعروفة - بالأشباه والنظائر - ، والتي أوجدا فيه روحا فنية بدائية للبحث والتنقيب فى بعض أبيات الحماسة (١) .

وكان هؤلاء السابقون لعمالة شعر الحماسة واضرابهم من المؤلفين القدامى مولعين بجمع الشعر الحماسى جمعا فحسب ، بعد أن يتخيسروا أحسنه ، لا يمتنون فيه بتصنيف أو تنسيق ينتمى الى التاريخ أو الى الفن

(١) نفس المصدر السابق •

وكان دأبهم أن يميزوا مختاراتهم في مجموعات لا يربط بين أجزائها
رابط سوى تشابه الموضوع .

وقد عموا كلمة - الحماسة - على كل شعر وجدوله فيه قوة وروعة
وجزالة وأسرا وذلك كما فعل أبوتام الطائي ، الذي حشد في كتابيه
" الحماسة الكبرى " وكتاب " الوحشيات " المعروف بالحماسة الصغرى
لما راقه مما قيل في روائع الشعر منذ العصر الجاهلي الى زمانه في أبواب
يخرج فيها من الحماسة الى الفزل والوصف والمديح وذم النساء وذكر
الشيب وغير ذلك من أبواب الشعر وفنونه ، وقد فعل ذلك أمثاله -
كالخالدين - اللذين جاءا في أواسط القرن الرابع للهجرة .

ومن ثم كان عمل المحاسني جديدا في باب ، لأنه لم يعم ممنى
الحماسة كما عمها السابقون وإنما وقف بها عند معناها الحرى أى الشجاعة
والبأس والضرب والطمأن ، وأنشأ كتابه هذا على الحماسة الحربية عند مظاهرها
التاريخية والفنية منذ صدر الاسلام الى أيام أبى فراس الحمداني ، وقد
توصل بذلك الى حقائق ونصوص صحيحة ودقائق تاريخية وفنية تلقى
نورا جديدا على الحروب العربية البيزنطية ، طوال القرنين التاسع والعاشر
للميلاد ، مستمينا بالوثائق البيزنطية التي وضعت في العصرين العاشر
والحادى عشر بأيدي المؤرخين البيزنطيين وفيهم - سيد رينوس - ، و -
ليون الشماس - ، ونقلها الى العالم الحديث علماء التاريخ البيزنطى أمثال
الاستاذين العظيمين - شلمبرجه - ، و " فاسيليف " (١) .

(١) مقدمة شعر الحرب ص ٨ وما بعدها .

تري الى أى حد كان المحاسنى دقيقا ثبتا فى الظفر بما يتطلبه
مثل موضوعه من استجلاء للنصوص وكشف للحقائق التى لم يسبق كشفها
ونشرها ، حتى وسم مؤلفه هذا بميسم الابتكار والافتراع .

وغاية المحاسنى من وراء ذلك كله هى تقديم نوع من الدراسة
الجامعية الجديدة ، التى تؤثر الدخول الى زاوية " شاغرة " - من
زوايا أدبنا العربى وهذه وجهة خليفة بالتقدير ، لان أدبنا العربى :
لا يعرف أدب مثله تتسع جوانب الدرس فيه ، وهو يحتاج الى جهود
العلماء والدارسين ، مالا تحتاجه الآداب الاخرى ، وان من يدرسون
هذا الادب يعرفون أننا لم نفسر وجوه نشاطه ، ولا كشفنا عن جوانب
حياته الا قليلا من ظواهر عامة ومن شعراء مشهورين ،

ولعل مرجح ذلك كما يرى الدكتور شوقى ضيف " طول تاريخ الادب
العربى ، فتاريخه بين الاداب المختلفة ، يعتبر أطول تاريخ ، وقد
تقلب عليه عروق وعصور وأقاليم لم تتح أيضا لادب آخر ، اذ اضى
حتى الان نحو خمسة عشر قرنا ، وليست المسألة مسألة زمن ، بل هى
مسألة مكان أيضا ، فقد اتسمت بأصحابه والناطقين به رقعة الارض ،
فاذا أهل أفريقيا الشمالية ، وآسيا الغربية الا قليلا منهم يشاركون فى
آثاره وصنع نماذجه * (١) .

وتكمن القيمة الفنية لهذا الكتاب فى منهجه التطبيقى السدى
انتهجه فى تفسير وتحليل الظواهر الفنية فى شعر الحرب فى المصراع
المباسى ، عند شعراء الصنعة ، الذين تناولوا فى شعرهم الحربى
وصف الحروب وآثارها ، وأشادوا بالبطولة والفروسية .

(١) من الكلمة التى قرظ فيها د . شوقى ضيف هذا الكتاب وضمها كتاب - تحية
وذكرى ع ١٥٧ وما بعدها .

ومثال ذلك فيكتور هوغو فقد نسب اليه مذهب (الرومانطيين)
والمقتضى لصروق هذه النزعة في الأدب المالى ، يجد أصلها فسى
الشعر الرومانى القديم عند (كاتولوس) ، ثم يراها فى الأدب الفرنسى
متسربة فى فن (مدام دوستال) و (شاتوبريان) قبل أن تصبح الزعامة
(فيكتور هوغو) ، فيحمل لواءها ويهجم بها على المذهب الكلاسيكى
محطما مياسيمه القديمة (١) .

وبعد أن أشار الى ما قاله أبو القاسم الأمدى فى موازنته بين أبى تمام
والبحترى ، وعرضه آراء أصحاب أبى تمام ومن احتجوا للبحترى قال : (ذلك
ميسم أبى تمام وقد كان يطبعه فى كل شعره ، ولعللى أجد من جرس الكلام
فى حربيات أبى تمام ما يوافق جرس السلاج وصليل الدروع وخفق البنود
والموسيقى العسكرية * ثم يضى قائلا :

* وليس عندى أفضل لدراسة فن أبى تمام فى شعر الحرب من أשמارة
التي جعلها شواهد للكلام عليه .

فمن فنه فى الشعر الحربى فى بابك ، أنه جعل يوم أرشق وسيلسة
(للتناظر اللفظى) ، الذي دللت عليه فى مذهبه فيقول :

يا يوم (أرشق) كنت (رشق) منية *

ويجعل هذا دأبه فى أكثر الالفاظ التي سميت بها البلاد البيزنطية
فيقول فى قصيدته عن معارك أبى يوسف الثغرى فى ديار الروم ، وقد ذكر
البلدين (صاغرى وأوقضى وأرض قره) :

أورثت (صاغرى صفازا ورغما وقضت (أوقضى) قبيل الشروق
كم أقات من أرض (قره) من قر عين ورهب مومسوق (٢)

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

وقد عتب المحاسنى على هذه الابيات بقلوه : (وليس هذا لعبا
بالألفاظ كما زعم ناس من الناقدين ، وانما هو (موسيقى لفظية) و (ايحاء
بالحروف) فبين أرشق والرشق ، وصاغرى والصفار ، وما فى شبه ذلك تألف
ناغم ولحن للكلام ، صاغ أبو تمام أفعاله فيه ، وسامق عليه معانيه ، وكانت
معانيه خالية فزادت خاليتها (١) .

كما رد ولوع أبو تمام بالاضداد فى معانيه وألفاظه الى شىء من
خلقه وقوام شخصيته حيث كان أبو تمام فى مستهل عيشه ، يخدم حائكاً
ويعمل عنده بدمشق ، ومنه أتت عدوى مذهبه فى الصناعة ، لان صناعة
الحائك — كما يرى المحاسنى — عمل فنى يقوم على هندسة الأشكال ، وقد
يعمد الى تصوير الاضداد فى الوضع والتقسيم (٢) .

وتكاد تكون الاضداد اكثر انواع البديع عند أبو تمام .

وتصديده فى فتح عمورية ملائى بهذا اللون البديع : كقولـــــــــــــــــه
مخاطباً الخليفة — الممتصم بالله العباسى : —

رمى بك للبرجيجها فهدمها ولورمى بك غير الله لم تصب

فلقد قابل أبو تمام بين معنيين ، وجعل الاول علة للثانى (٣) .

وفى حديثه عن شعر الحرب عند المتنبى (٤) — يصدور هذا الفصل
بمبحث واف عن حروب سيف الدولة عن شعر المتنبى ، كما يتناول صحيفة
المتنبى لسيف الدولة ، واصفا شعره الذى قاله فيه بقوله : " ولم يكن

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٦ و ص ٢٢٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٢ وما بعدها .

فى شعر المتنبى أعذب نثما ولا أبعد أثرا من - سيفياتسه
الحماسية - التى نسجها على هفوف الصحراء ، ومزجها بحمهمات
الخيل ، صاففة سنا بكها على درب الروم ، تسم عليها صدور البسزة
بمقدوح الشرر ، ومزج هذه الصور بصليل السلاح فى ضجيج الفرسان
وعجيج الخبار ، وفى هامة الجيش الذى يسد هزيمة وجوه الجنو كان
يترنح (أمير حمدان) على جواده المظم كأنه فارس الاساطير يهيب
فى عالم الحروب ، فيملا (قليلا والناطلوق والقبذوق والأبسيق)
وسائر أقاليم بيزنطة برهبة حربه وسطوته وبأسه ، حتى تجى أخباره
القسطنطينية فيراع من فيها ويهب البيزنطيون الى خيولهم ، بأثقال
الحديد لرد هجمة العرب وسد الثغور واغلاق الحصون (١) .

ولقد عايش الباحث هذه القصائد ، التى صور فيها المتنبى
حروب سيف الدولة مع البيزنطيين كاشفا عما فيها من ملاح فنية ، وحقائق
تاريخية جديدة كشفت عنها هذه القصائد وألقت مزيدا من الضوء على
وعف هذه الحروب ووقائعها وتاريخها وأمكتها وبسالة سيف الدولة
وجنده فى خوض غمارها .

وقد خى كل معركة من هذه الممارك بتمهيد بين فيه ظروفها
وعواملها وخططها وأحداثها ، وبراعة سيف الدولة فى ادارتها ، ممتدا
فى ذلك على كثير من المراجع والصادر الاجنبية ، التى سجلت حروب
سيف الدولة مع الروم ، وطابقتها بما ورد فى شعر المتنبى عن هذه الممارك
فهو يقول - مثلا - عن معركة الثغور (٢) ، التى وقعت سنة ٣٤٣ هـ -

(١) الصدر نفسه ص ٢٦٣ .

(٢) ص ٢٧٣ وما بعدها .

* وقد ورد في تاريخ (شلمبرجة) لعصر نيسفور أن هذه الواقعة كانت سنة ٩٥٣ م للميلاد ، فراح خيال المتنبي في وصف هذا الممبارك بادئا بتصوير الخيل ، وهو المولع فيها المعارف بحقيقة شياتها وصفاتها ، فبرسمها وقد رمى بها سيف الدولة درب الروم الى العدى ، فانطلقت وكأنها السهام ، وضمت وهي تغد الركض رافعة أذنابها ، وهي فسى مرج وصهيل تحت الفرسان ، وانها لخيول شفاء الركض لا تقف فسى بلد نهارا ، حتى تسمى الى غيره ليلا ، الى أن كسبت الروم ، فما شمروا حتى رأوها تطرحهم بالحديد ، وتظلمهم بالسيوف .

وهذا ما نطق به المتنبي وصوره في شعره على هذا النحو :

رمى الدرب بالجرد الجياد الى العدى وما علموا أن السهام خيسول
شوايل تشوال المقارب بالقنسا لها مرج من تحته وصهيل
وخيول براها الركض في كل بلدة اذا عرست فيها فليس تقيل
فما شمروا حتى رأوها مغيرة قباحا وأما خلقها فجميعل
سحائب يطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف غسيل
وكان جنود هذا المعركة من الفرسان ، فلم يزايلوا ظهور الخيل وظلوا يعمون من قرية الى قرية ، يسكبون دماء الروم ، ويخوضون فسى اللبات والنيران تسايروهم والروم بين ذلك صرعى حتى أتت خيول سيف الدولة الى ملطية :

فخاضت نجيع القوم خوفا كأنه بكل نجيع لم تخضه كهيكل
تسايروها النيران في كل منزل به القوم صرعى والديار طلـول
وكرت فمرت في دماء (ملطية) ملطية أم للبنين شكـول
ودون سميساط المطامير والملا وأود يقمجهولة وهجـول (١)

(١) شعر الحربي أدب العرب ص ٢٧٤ .

ولقد أشاد المحاسنى بالقيمة التاريخية ، التى تميز بها شعر
الحرب عند المتنبى فى وصفه وقائع سيف الدولة مع الروم ، فضلاً عن قيمته
الفنية والكامنة فى صدقه وحرارته وقوته ، حيث كان الدافع عليه قويا ،
يقول المحاسنى : " ولم يأل أبو الطيب جهدا فى تسجيل وقائع سيف
الدولة فى شعره الحماسى ، فقد كان يحثه عليها : حماسه ، وحبسه
للفروسية ، وكرم الأمير ، ومطالبته إياه بأن يقول فيها أكرم القصيد " (١)

ومهما يكن من شئ ، فإن المحاسنى لم يهمل شيئا فى كتابه هذا
— الذى يقع فى نيف وأربعين وثلاثمائة صفحة من القطع الواسع والحرف
الدقيق — مما يتصل بموضوع — شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين
الأموي والمباسى الرعهد سيف الدولة — من أيام الجاهلية بالمقدار الذى
يقتضيه المقام وتتسع له الصفحات .
ولقد أشاد بهذا الكتاب جهابذة الادب وأعلام النقد فى هذا
العصر يقول الأستاذ المقاد عنه : (وقد تتساوى فصول فى حسن
الاختيار وحسن التعليق ، ولكن القارئ الذى يقابل بين فصوله لا يسمعه
أن يجرى على سنة المساواة فى هواء لبعضها ، أو محاباته لبعض شعرائها
ومسائدها ، وأخطرها على ملكة العدل فى القارئ العربى ، تلك الصفحات
التي كتبت عن الدولة الحمدانية وبرز من بين أسمائها اسم أبى الطيب المتنبى
وأبى فراس ، كما برزت من بين عواطفها عواطف الأبطال والامهات والبنين
والبنات ، فيما تداوله العرب والروم من مواقع القتال ، ومواقف الأسر
والفداء ، فإن هذه الصفحات أخرى أن تسمى " ملحمة " شعرية يؤلفها
القارئ فى ذهنه ، ويتمها بخياله ، ويملاؤها فراغ الملاحم ، التى
كثرت فى الآداب الاعجمية ، وقلت فى الآداب العربية " (٢) .

(١) المصدر نفسه ص ٢٨١ .

(٢) فى فصل طويل قرط فيه هذا الكتاب وضمه كتاب تحية وذكرى ص ٦١ أو ما بعدها .

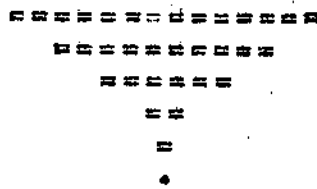
كما يقول : " وقد اعتمد المؤلف على ذوق الأديب وتحصيل العالم فيما اختاره من القصائد والمقطوعات ، وفي المقابلة بينها ووجوه الشبه والمخالفة منها ، على حسب المشابهة أو المخالفة في أحوال المصور وملكات الشعراء ، وأساليب الشعر من جانب الفنى ، ومن جانبه المتصل بالأخلاق والحوادث فجاء الكتاب زبدة منتقاة وذخيرة متعة ، تجمع للقارى ما تفرق بين مئات المراجع وتزيد عليه ما لا يوجد فى تلك المراجع من تعليقات النقاد ، ومواضع الاستدراك ، التى يهتدى اليها الباحث والمؤرخ ويودعها خلاصة تفكيره وملاحظته فى هذا الموضوع " x

ومن أشادوا بهذا الكتاب وقيمته وجهده مؤلفه الدكتور شوقى ضيف الذى قرظه فى بحث طویل منه قوله : " ان من واجبنا أن نرحب بكل جهد ممتاز ، يحاول به صاحبه أن يصور جانباً من جوانب هذا الأدب ، وخاصة اذا كان يمالج موضوعاً ، لم يمالجه أحد من قبله ، فانه حينئذ يكون خليقاً بالثناء والتقدير ، وهذا ما جعلنا نستقبل كتاب - شعر الحرب فى أدب العرب - للدكتور زكى المحاسنى - بالاعجاب نقد كتب فى هذا الموضوع كتاباً بديعاً ، فيه عناء كبير ، ورجوع الى ما طبع من كتب العرب ، والى ما لا يزال دفيناً فى دور الكتب " .

" وليس كل ما يمجبننا فى عمل الدكتور زكى بحثه ودرسه ، بل نحن نمجّب أيضاً بكثرة مراجعته ما بين عربية وغربية ، واعتماد الباحثين على المراجع جديد فى العربية ، ولذلك كان هنالك من لا يمجّبون بكثرة المراجع ، لان ذوقهم لم يهذب تهذيباً علمياً " .

كذلك أشاد بأسلوب المحاسنى الادبى الرائق ، فى تمييزه
عن الحقائق التاريخية قائلا :

" وفى كل مكان من أمكنة الحرب الداخلية والخارجية نجد الشعر
يشفع بالتاريخ ، كما نجد الطرافة فى المرض والمنايا بالأسلوب ، حتى
ليتحول فى كثير من الجوانب الى بدع من الشعر ، وكأن الكاتب يريد
أن يصف الشعر بالشعر (١) الخ * .



(١) نقلا عن كتاب تحية وذكرى ص ١٥٧ - ١٦٠ .

الفصل الثاني

دراساته الأدبية

١- أبونواس شاعر من عقر

دراسة أدبية للشاعر - الحسن بن هاني - بن عبد الأول - الذي
اشتهر بهذه الكمية - أبونواس - ، حتى غلبت عليه وقد أصدرها
الدكتور زكي المحاسني سنة ١٩٤٠ .

وجاء في مقدمة طبعتها الثانية ، التي اعتمدت عليها في هذه
الدراسة قوله : " لقد كان هذا الكتاب من بواكير أعماله الأدبية ،
منذ ثلاثين عاما ، يوم لم يكن أحد من المعاصرين قد تقدم بدراسة
جامعية ومنهجية لشعر أبونواس وأدبه " (١)

وقد بحث في هذا الكتاب نسب أبونواس وحياته ، فذكر أن أبا
" هاني " بن عبد الأول - من أهل دمشق كان في جند مروان بن محمد
آخر خلفاء بني أمية ، الذين نزلوا الأهواز للمرابطة فيها ليكونوا على
مقربة من ثغور العدو ، وقد أنتشروا في مدينة الأهواز للاستجمام ،
فوقعت عينه على - جليان - الفارسية ، وكانت بارعة الجمال ، فأنشأ
الطلمعة ، وقد صار أمره معها إلى التمشق ثم الزواج ، ومنى الزمان
بهاني وعروسه الفارسية ، التي ولدت له ابنة الحسن سنة ١٢٤ هـ .

وقد أقام الحسن مع أمه في البصرة ، التي أسلمته وهو غلام في
السادسة من عمره ، وكان وسيما بهيا ، إلى عطار كلفه بيري البخور

(١) نشر الكتاب في طبعة الثانية من دار الأنوار بيروت ١٩٧٠ .

حتى يكسب له ولأمه ثمن الخبز ورقيق الآدام ، ولقد أطبق المحاسنى
عن ذكر هانىء فيما بعد ، وكان عليه أن يخبرنا عن مصيره ، ولمّا إذا
ترك أمه تدفع بانيهما الى هذا المطار ، الذى أسلمه لوالبة بن العبداء
الأسدى ، ذاك الذى هبط من الأهواز الى البصرة ، وأقبل على المطار
ليشتري المود ، وكان والبة شاعرا فى الذروة وماجنا مشهورا ، وقد
وقعت عينه على هذا الغلام عند المطار ، فأعجب بظرفه ، وتذوّقه
الشمر ، وتسقطه أخبار أهله - على حدائقه - ، فأخذه معه الى
الكوفة ، وعرفه بأدبائها ورواتها ، ثم أدخله والبة الى منزل محمد بن
سيار وفى مجلسه وقع نظر الحسن بن هانىء على القيان ، وفى أحضانهم
الميدان ، فتفتحت نفسه الى لذات الشراب وأهواء الشباب .

وكان لهذه المشرة السيئة أثر فى تحويل أبى نواس الى حياة
جديدة هى معاقرة الخمر ومعاقرة الشعر زنا (١) .

ولما كانت البادية مدرسة الشعراء والفصحاء وأهل البلاغات ، فلقد
هان الحسن بن هانىء أن يخذل إليها ، فاستأذن معلمه والبة بن الذهب
فى الذهاب إليها مع بنى أسد ، فأقام فيها سنة وعاد منها وقد
عرف غريب اللغة وأساليب كلام العرب .

ولما شب أبو نواس نازحه نفسا الى ترك الفواية ، التى كانت لسه
مع والبة ، ففارقه وترك الكوفة وعاد الى البصرة ، ولزم (خلفا الأحمر)

(١) أبو نواس شاعر من عبقريين ، وما بعد ها .

وهو حجة زمانه في معرفة جيد الشعر وتمييزه من رديئه ، فجمعيل
ينقد شعره ، ومهد له سبيل الانتساب إلى أشرف العرب فكناه ..
(أبا نواس) ، وقد غلبت عليه هذه الكنية وعرف بها حتى صارت
شارة تدل عليه وكلمة ترمز إليه . وادعى النسب إلى اليمن فكانت
تلك الكنية دليل ذلك النسب (١) .

ويرجع المحاسنى أن أبا نواس لم يبق في البصرة طويلا ، وإنما انقلب
إلى بغداد وهي أم المواسم في زمانه ، وكانت تجتذب إليها جميع
المبقرين من سائر الأمصار فاجتذبت أبا نواس (٢) .

وعن ثقافة أبي نواس (٣) يرى المحاسنى أن روافد تلك الثقافة
متعددة ، ومنابعها كثيرة ، وهو فيما يرى " عمارة فنية خالصة
عمل في بنائها ناس كثير من أهل البراعة والابداع " خرجوه والبسة
ابن الحباب شاعر الكوفة ، كما خرجوه خلف الأحمر في الشعر كذلك
حتى سما فيه ، وأشاد به كثير من رواة الشعر ونقدته مثل أبي عبيدة
مصر بن المثنى ، وهو حجة زمانه في الأدب ، وأثر بفضل الشاعر
أبوالمتاهية .

وذلك بالإضافة إلى ثقافته التي تلقاها بنفسه ، فلم يقل الشعر
حتى روى لستين شاعرة من النساء ، وحتى حفظ ألف أرجوزة للمزرب
فما بالك بما حفظ من سائر الشعر وضروبه وفنونه في أغراض شتى .

وقد قرأ أبو نواس القرآن حتى حذقه ، ورمى إليه بمقاصد
الخرمى بخاتمته ، وذلك إشارة من الاستاذ لتلميذه ، ومعناها عندهم
الشهادة أو التثبيت في زماننا .

(١) المصدر السابق ص ٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠ .

(٣) ص ١٠ وما بعدها .

وزاد في ثقافته أنه نظر في علم النجوم والطبيعات وعرف
الفقه ، حتى كان يلم بعلوم عصره كلها ، وتكاثفت كل هذه الأمور
على اظهار الشاعر ، فبدأ بناءً مبنياً بالمبقرية ، خالداً على ترادف
الدهور ، رفيعاً في شعره ، ساطعاً نوره * (١) ... الخ

كما تناول المحاسنى ايمان أبى نواس من خلال تشبیه لشعره
الذى نطق بايمانه ، وترجم عن تدينه ، وذهب الى أن أبانـواس
قد آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولم يفارقه هذا الايمان
في عمره ، منذ كان شاباً حتى آخر حياته .

بيد أن وجود الايمان في قلبه لم يحل دون فسوقه ، فقد
أعد في نفسه عذراً لجميع ذلك وهذا المذر هو : ان الله كبيرالمغو
وعفوه أكبر من الذنوب .

ولقد استدل المحاسنى على ايمان أبى نواس بما ورد في شعره
من مقطوعة هجا فيها أبونواس " أبانا بن عبد الحميد اللاحقى " (٢)

بعد أن ذكر له أبان مسائل في الاعتقاد والثبوت ، أنف منها
أبونواس ، وعده كافراً ، وقام من عنده بعد أن نعمته بالكفر .
وتلك المقطوعة هي :

جالست يوماً أباناً لا در در أبان

ونحن حضر رواق الأمير بالنهم

حتى اذا ما صلاة الاولى دنت لأوان

فقام ثم بهما ذو فصاحة وبينان

فكل ما قال قلنا الى انقضاء الأذان

(١) نفس المصدر ص ١١ ، ١٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤ ، ١٥ .

فقال كيف شهدتكم	بذا بنخير عيمان
لا أشهد الدهر حتى	تعالين المينسان
فقلت سبحان ربي	فقال : سبحان مانسى
فقلت : عيسى رسول	فقال : من شيطان
فقلت : موسى كريم	المهيمن المنسان
فقال ربك ذو مقلبة	اذن ولسان
فنفسه خلقت	أم من ؟ فتبت مكانى
عن كافر يتمسارى	بالكر بالرحمن
يريد أن يتسوى	بالعبية المجسان
بمجرد ومطيع	والوالى الهجان
وقاسم ومطيع	ريحانة الندمان

كما نقله عن الجاحظ قوله (١) : * وأما أبو نواس فقد كان

يتعرض للقتل بجهد وقد كانوا يجيئون من قوله !

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

فلما قال :

أحببت قرىشا لحب أحمدها وأشكر لها الجزل من مواهبها

جاء بشيء غطى على الأول ، وأنكروا قوله ووجدوه بنفيضا حين قال :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعى جبار السموات

(١) الحيوان ج ٤ ص ١٤٤ نقلا عن ص ١٢ ، ١٣ ، المصدر السابق .

ومثل هذا قليل في شعره ، لعله نزوة من نزوات السكر حين

يأخذ بمجامع عقله ، فيتلن بمثل هذا لسانه دون وعى أو اعتقاد .*

(١)

كذلك تحدث المحاسنى عن الزهد عند أبي نواس ، بمعنى

تركه الصبيان ، والخمرة وذكر النساء ، وإقباله على العبادة والاستغفار .

وعنده أن زهد أبي نواس كان عبارة عن نزوات ينزوها قلبه

من مراجع المجون والفتك إلى مراح الزهد والتصوف ، وفي هذه النزوات

يستغرق أبو نواس استغراقات صوفية ، فيزهد في نعم الدنيا ، ويأمر

بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويرجح أن هذا قد كرر منه حين اشتغل

رأسه شيئا .

ولقد أعتمد المحاسنى في مثل هذه الأحكام ، التي تعد جديدة

بالنسبة لأبي نواس ، الذي عرف عنه المجانة والخلاعة والشذوذ في

سلوكه وسيرته ، أعتمد على شعره وطرف من أخباره الموثقة — فهو يقول

مثلا — قد نجد من الحيف أن نحكم على شاعر بوجود بمثل هذا

الوعظ ، أنه ما جن خليع ، ولعلك تجعله أحد أقطاب الإرشاد في تصيدته

الآتية ثم ساق أبياتا طويلة في زهد أبي نواس منها قوله :

يا نفس خافى الله واتشى	واسمى لنفسك سعى مجتهد
يا طالب الدنيا ليجمها	جمحت بك الآمال فاقصد
لو لم تكن لله متهم	لم تكن محتاجا إلى أحد .. (٢) الخ

(١) ص ١٥ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨ .

وبعد أن فرغ من الحديث عن زهده انتقل الى الحديث عن
توبته (١) ، حيث تحول الى ناسك بعد أن شبع من المعاصي ، مؤكداً
أنه لا ينبغي أن ننكر على أبي نواس هذا الانقلاب النفسى الذى
بداله فى أعقاب عمره ، فأحب أن يدخل فى دور التقوى والنسك
من باب التوبة والمفو ، ورأى أنه كبير الذنب فقال :

يا كبير الذنب غفر الله من ذنبك أكبر
أكبر الأشياء عن أصغر غفر الله أصغر

وكان سبيل المحاسنى فى هذا الاستنباط استقراؤه لشعر أبي نواس
وماصوره وترجم عنه من عواطف وأفكار .

ثم انتقل المحاسنى الى تصوير عصر النواسى ومظاهره
السياسية والادبية والاجتماعية والفكرية بشئ من التفصيل معتمداً كذلك
على استنباط هذه المظاهر كلها من شعر أبي نواس ، الذى يرى فيه أنه
مرآة لعصره يصوره أصدق تصوير حتى أن أبا نواس يكاد يكون الشاعر
الوحيد فى آدابنا الذى انعكست فى شعره مناظر عصره ، بل هو الشاعر
الذى كونه عصره حسب أخلاقه (٢) .

وفى دراسته لشعر أبي نواس من الوجهة الفنية يذكر أن شعره
كالدينار الصحيح الجديد الذى يرى من الزيف ، وليس يضير مثل هذا
الدينار فى صحته أن يحمله شر الرجال فساداً ، فيشتري به ثم يبيع ما اشتري .

(١) ص ١٩ وما بعدها بتصرف .

(٢) أبو نواس ص ٢٩ .

وشعر أبي نواس في ذروة أدب المربد فيما يرى المحاسنى -
وهو شاعر في خمارات الكرخ وبيوت المجون ومراقى الحصان ، وشعر
النواسى كروحه ، ولئن زال جسم صاحبه بموته ، فشعره خالد أبداً
الخلود روحه (١) .

وهو يرى كذلك أن أبا نواس عبقرى (٢) ، ويدل شعره في مجموعته
على هذه الميزة الظاهرة ، ففيه إبداع في صوغ الكلام واختراع في وجوه
المعاني ، ظهرت هذه العبقرية في خمريات أكثر من كل شعر قاله
في غيرها ، وبدت أقل ظهوراً في غزله ومدحه وبقية فنون شعره . ولقد
أورد للمحاسنى نماذج عديدة من هذا الشعر العبقرى .

وخى هذه الأبيات من قصيدة خمرة له طويلة بأعجابه الشديد وثناؤه .
المستطاب :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء ودأونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها لومسها حجر مسته سراء
قامت بابرقيها والليل معتكر فلاح من وجهها فى البيت لألاءه (٣)

ومن المباحث القيمة فى هذا الكتاب حديثه عن التجديد فى
شعر أبي نواس - الذى قرنه بالحياة الجديدة فى العصر الذى
عاش فيه الشاعر ، وما طرأ عليها من أشياء لم تكن موجودة من قبل - كما لا
الترف والبدخ ووفرة المال ، وامتناع الجوارى للسرور والابتهاج بهن ،

-
- (١) أبو نواس ص ٣٦ .
(٢) ص ٤١ وما بعدها .
(٣) ص ٤١ .
(٤) ص ٤٢ وما بعدها .

والاختلاط بالعناصر المسلمة من فارس وروم ، ولقد بدت مظاهر التجديد في شعر أبي نواس في أغراضه ومفاهيمه الجديدة ، التي منها شعر المجون ، الذي عد النواصي أباء وأمه في شعر العرب ، ومنها التفزل بالقلمان ومنها كذلك الشموية ، ذلك المذهب الذي لم يدخر أصحابه وسعياً في تسقط مثالب العرب ، وتفضيل المجمع عليهم ، وكان أبو نواس ممن أصحاب هذه النصرة ، يتعصب للفرس على العرب ، وقد أطلعت له . . . شعوبيته فجراً للتجديد في الشعر العربي .

ومن مظاهر تجديد أبي نواس كذلك في شعره ، ثورته على مطالب القصيد ، التي فتن بها القدامى حيث كانوا يبدؤون قصائدهم بالوقوف على الاطلال كما هو معروف .

ولقد أفاض المحاسني في نقل أبيات عن أبي نواس يملن فيها ثورته ، ويترجم عن تمرده ومن ذلك قوله :

عاج الشقى على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمار قاليلد
تيكى على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لى : من بنوا أسد
ومن تميم ومن قيس ولقهم ليس الا عارب عند الله من أجسد
لاجفد مع الذى ييكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو الى وتسد (١)

ويقول المحاسني عن شعوبية أبي نواس وأثرها في تجديد شعره :
" كان جريئاً في شعوبيته مريداً للجدّة في الشعر العربي ، لا يهمه أن يصل الى التجديد بتلك الشموية ، وقد أتاح له الدهر ناساً ، از

(١) أبو نواس ص ٤٦ .

قرأوا شعره وهم من المرب الخلف خلبهم حسنه ، وقتنتهم براحه ودقة
وصفه ، فثفلهم هذا الجمال عن عصبيتهم ، فجاز عليهم هذا الشعر
برغم شحوبيته * (١)

كما تحدث عن لغة الشعر عند أبي نواس فذكر أن شعره من قبيل
السهل المتنع ، يصلح لكل نوع من الافهام ، يقرؤه التلميذ وهو حديث
عهد بالأدب فيفهمه ، ويوجد فيه أهل الفن المتمقون روائح معان ونزوات
من آيات فواتن •

وان كان أبو نواس يهبط أحيانا في شعره اللفظ المحادث
وقد تمثل لذلك بقول أبي نواس :

وقائلة لي كيف كنت تريد فقلت لها ألا يكون حسود

لقد عاجلت قلبي جنان بهجرها وقد كان يهينني بذاك وعيد • الخ

وقد يسف إلى مثل قوله :

اننى أبصرت شخصا قد بدا منه صبيحود

جالسا فوق صلبى وحراليه عبيد (٢)

ولقد علق على مثل هذا اللون من الشعر بقوله : — وهو شعر لورد النوا

فتعار فيه لا نكره لنفسه •

ويرى أنه — لا يميم أبا نواس بعض الانحراف عن حركة الاعراب
مرجحا أن يكون قد قصد إلى النكته التي أشار إليها الجاحظ ، بإيراد

(١) أبو نواس ص ٤٦ •

(٢) ع ٤٩ — ٥٣ •

ولقد كان المحاسنى حصيفا ومهققا ، حينما استعان على تفسير هذه الظاهرة الشاذة فى حياة أبى نواس ، بما توصل اليه علماء النفس من تفسير .

فهو يقول : لقد علل علماء البسيكولوجيا المتطربون أن هذا الشذوذ الجنسى الذى يكون فى الذكور والاناث يعود الى فقدان معنى الهوى الصحيح فى أنفس أصحابه ، أو أنه نقص فى بعض العناصر الحيوية ، وهو مرض نفسى ، أكثر مما يكون جسيما ، وإذا نحن عرّفنا على التمييز نشأة أبى نواس ومعاشرته للزنادقة والمجان وأهل الخلاعة والفساد ، وهو فى سن صغيرة ، عرفنا أن النوبة التى مرت به جعلته يمر بها على غيره (١) .

ويرى المحاسنى أن ظاهرة الشذوذ هذه ، التى بدت فى طبع أبى نواس ، وكانت جامعة نجد لها شيلا عند عباقرة ذوى شذوذ شتى ، وقد استعان بما كتبه أحد العلماء الفرنسيين - الدكتور كابانييس - الذى اختص فى دراسة العظماء ورجال الأدب ووضع كتابا أتى فيه على أخبار العظماء المفكرين فى شذوذهم ، فذكر شذوذ الشاعر - بودلير - والموسيقى - فاغنر - والكتاب - شاتوبريان - والروائى غى دى موباسان - معددا انحرافهم فى عاداتهم وطباعهم وشذوذهم الذى نشأ عن فرط عبقريتهم وفيهم الدنى فى أهوائه والسخيف فى ميوله ، والمضحك فى أفعاله (٢) .

ولقد أفاض المحاسنى فى الحديث عن أغراض شعر أبى نواس ومعانيه
وسمات هذه الاغراض والمعانى من حيث الطرافة والابتكار والجدة ، أو
الاحتذاء والتقليد ، فتناول الفزى فى شعره وخصائصه ، كما تحدث
عن ذمة ومدحه ، وخصرياته وما الى ذلك من اغراض ترجم عنها
أبو نواس فى شعره ، وأتت جديدة غنى بها على آثار من سبقه ، وذلك
- كوصف الخمرة عنده - ^(١) ، التى يرى أن أبانواس بذ فى خمرياته ككل
الشعراء الذين سبقوه ، أو لحقوه . قديما وحديثا . معتمداً ففى
ذلك على الموازنة الدقيقة بين أبى نواس وغيره من الشعراء .

اذ يرى المحاسنى أن أشهر من تناول الخمرة قبل أبى نواس وبرز فو
وصفها وما تحدثه فى النفس من سورة وطرب ، هما : أعشى قيس والأخطل
التغلبى ، وقد وقف على أبيات - لكل من الشعراء الثلاثة - الأعشى ،
والأخطل وأبى نواس - بالتحليل والتفسير ، ثم انتهى الى تقدير
أبى نواس على صاحبيه ، وفضل شعره فى الخمرة على شعرهما فيها ،
لأنه جمع الاحاسيس فى شربها ، ولم يكف بالنظر اليها والشـم
والذوق واللمس ، وانما أراد الحص الخامس فقال :
ألا فاسقنى خمرًا وقل لى هى الخمر

ثم ساق له قصيدة طويلة ، مقدما لها بقوله - وما أحسب أن
يمود فى شعر العرب من يقول كأبى نواس فى الخمرة -

خطينا الى الدهقان احدى بناته فزوجنا منهن فى خدر ما الكبرى
وما زال يفلح مهرها ويزيده الى أن بلغنا فيه غايته القصوى
رحيقا أبوها الماء والكرم أمها ^(١) وخاضتها حر الهجير اذ يحيى . ^(٢) الى

(١) أبو نواس ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص ٩٧ .

وقد عتب عليها بقوله : - هذا شعر ينطق بنفسه عن نفسه ، ويبين سمو صاحبه فيه وخلوده في ممانيه (١) .

بين أبي نواس وبودليير :

ولقد قارن المحاسنى بين خمرة أبي نواس (٢) وخمرة شاعر -
الغرب الشهير (شارل بودليير) ، الذى أقرد في ديوانه - أزهار
الشرب - قصائد كثيرة للخمرة ، حتى أن قسما من ديوانه يسمى " بساب
الخمرة " وهو في جملة شعره فيها يشبه ، أبا نواس - كل الشبه ، بفكرة -
الشرب ووصف الطانات وذكر التدامى ، وانتهاز العمر بالخمرة والمجون ،
وقد مر بودليير في سيرة حياته بأحداث ضارح بها النواس ، هو شاعر -
الخمرة عند الفرنسيين كابى نواس عند العرب .

ومن تتبعه واستقصاه لحياة كلا الشاعرين وسيرتهما ، وجد بينهما
مشابه كثيرة ، فلقد صحب بودليير أدباء وشعراء كانوا أهل مجونه
وأعوان فتكه - كما فعل أبو نواس تماما ، وكان لكل منهما صديقات
ماجنات .

يقول المحاسنى : " انه لم يكن أحد مماثلا للنواس من جميع من
كلف بالخمرة في شعر مثل بودليير ، في نهضة الشعر الغربى الحديث ،
كانت روح بودليير كروح أبي نواس ولو تلت بالتناسخ ، لزعمت أن روح النواس
حلت في بودليير بعد عشرة عصور ، فكانت في رجل فرنسى عاش في القرن
التاسع عشر ، عصر المدنية الحديثة في شاعر خمرة من الطراز الرفيع (٣) .

(١) أبو نواس ص ٩٨ .

(٢) ص ٩٨ وما بعدها .

(٣) ص ٩٩ ، ١٠٠ .

ولم يكف المحاسنى بمثل هذه المشابه بين الشاعرين ، ولكنه
سرد نماذج عديدة للشاعر بودليير وردها الى معانى أبى نواس بعد
التحليل الدقيق والمقارنة الموضوعية ، حتى انتهى الى تفضيل أبى نواس
فى وصفه وبراعة تصويره ، وقوة ادراكه لما تحدثه الخمر من ———
وطرب يقول المحاسنى : " لقد فضل النواسى بودليير ، لأنه زاد عليه
حوار الخمرة للشارب ، ان بودليير أنطق الخمرة بمزاياها الرائعة ، الا ان
أبا نواس جعلها تحاوره حوارا غديا لذيذا " (١)

ويرى المحاسنى أن الشعراء الذين أتوا بعد أبى نواس ، لم
يستطيعوا أن يقولوا فى شعر الخمر مثل ما قاله أبو نواس — فلم يتمكن
شوقي مثلا — وهو الصمن فى معانى الخمرة ، المعجب بأشعارها —
أن يقول خمرة نواسية .

ويرى أن ذلك راجع الى أن شوقيا ، لم يمن كلأى نواس برغم
ما كان فيه من بحبوحة ومجد وعب من الجمال ، وقد كلف شوقي بشعر
" أبى نواس ، حتى اصطحب ديوانه فى سفره ، وسمى داره بكرمته ، وشبه
نفسه به فقال :

وانى نواسى هذا الزمان فمن للزمان بسمع الرشيد

ولقد استشهد المحاسنى بقول الصفلوطى عن شوقي : " وأما شوقي
فقد غاص فى شبر من الماء " * يعنى انكبابه على الخمر ، غير أن شربها
لا يلقى لشاعر كشوقي حتى يكون أبانواس هذا الصبر ، فحياة كل من
الشاعرين تختلف عن الأخرى (٢) .

(١) أبو نواس ص ١٠٢ .

(٢) ص ١٠٢ وما بعدها .

ومهما يكن من شيء فان هذا الكتاب يعد أول مؤلف وضع عن
أبي نواس والكشف عن عبقريته ومظاهر حياته ، وخصائص فنه في هذا
العصر يقول المحاسنى - لقد مددت دراسة الأدب على ضوء الفن
الحديث الى أبي نواس ، وأخرجته من الحماة التى كان فيها ، فجعلت له
كتابا بين أيدي الناس ، يقرأونه فيرون شاعرا له قدره العظيم فى
الأدب العربى ، بل أحسبه الشاعر الأكبر ، الذى ظهرت على شعره
ألواح رائعة من صور المباسيين * (١)

ولقد أشاد بهذا الكتاب وقيّمته الفنية والتاريخية ومنهم
صاحبه فى تأليفه عدد من الباحثين والدارسين ، يقول الاستاذ وحيد
الدين بهاء الدين عنه - ان كتاب أبي نواس تتمثل فيه الطريقة
الممارسة فى الدراسة ، بالرغم من كونه صدر قبيل الأربعينيات وبعدها
الا أنه دليل ساطع على ملكة المؤلف الفذة فى البحث والمقارنة والدراسة
(٢)

ويقول الدكتور فوزى عطوى عن هذا الكتاب * وقد انعكس فى
الكتاب أثر الثقافة العالية التى يتمتع بها الدكتور زكى المحاسنى ،
وذلك من خلال الدراسات المقارنة التى أجراها ولو بصورتها جلة (٣) * .

(١) أبو نواس ص ١٠٤ - وللاستاذ العقاد كتاب عن أبي نواس يبدو أنه نشره
بعد كتاب المحاسنى .

(٢) نقلا عن كتاب تحيتون كرى ص ١١١ .

(٣) فى البحث الذى كتبه عن المحاسنى ص ١٠١ وما بعدها من

المرجع السابق .

٢ - المتنبي :

كان المحاسنى ولوعا بالمتنبي ، شغفونا بسماع أخباره وذكر
آثاره لا يفتأ يذكره فى مؤلفاته ويشيد بشعره وشاعريته ففى كتابه -
شعر الحرب فى أدب العرب - يقول : " سلاما أبا الطيب على كرور
المصور ، مر على هلكك ألف عام ، فقام الأدباء فى دنيا العرب من أجلك
وقعدوا ، ورددوا ملء سمع الأرض شعرك وتدارسوا فنك ، وبسطوا
سيرتك ، وجددوا عهدك ، وعهودك لا تبلى فى الشعر ، وسيرتك
لا تنتهى فى فم راويات الزمان ، ولقد يأتى عليك ألف عام ثانية
بعد ، وأنت مورد شرار لم يفرغ ما عندك من سلسيل الشعر والفكر الخ^(١)
وفى كتابيه عن أحمد أمين وعبد الوهاب غزام خصه بحديث
موجز ترجم فيه عن إعجابه بفنه ، وفتونه بشاعريته ، وإشادة بأعجاب
هذين الملحنين الجليلين بآثار المتنبي وأخباره وشموخه وكبرائه ، وذلك
مثل قولهم - كان الدكتور عبد الوهاب غزام من أحب الأجيال لأدب أبى الطيب
المتنبي ، فكان كل من حضر مجلسا من مجالسه الأدبية فى ندوة أوفى
داره أوفى حى الجامعة بكلية الآداب ، وجدده مستشهدا ببيت أو أبيات
لأبى الطيب المتنبي ، ولذا كان يحفظ الكثير من قصائده وشواهد
حكيمته ، فينهال الشاهد من لسانه وبيانته ، وكأنه يتناول من كمه ، كما
كان يقول العرب فى سهولة الأداء ، وضور الذهن والبديهة " (٢) .

على أن إعجاب المحاسنى بأبى الطيب لم يقف به عند هذا
الحد ، فلقد وضع فيه هذه الدراسة الأدبية الجادة ، وضمها هذا
الكتاب ، الذى يقع فى عشرين ومائة صفحة من القطع المتوسط ، واشتمل
على أربعة فصول :

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ص ٢٨٩ .

(٢) عبد الوهاب غزام ص ١٣ وما بعدها .

الأول عن - عصر المتنبي ومظاهره السياسية والقومية والاجتماعية والفكرية .

والثاني عن - المتنبي في عصره .

والثالث عن - شعره وخصائصه .

والرابع - منتخبات من شعر المتنبي في أغراض شتى .

وقد صور في الفصل الأول مظاهر الحياة السياسية في عصر المتنبي - القرن الرابع الهجري - ، الذي شهد زحمت الحوادث وتقلبات السياسة وتفرق الأمصار والشموب ، حيث كانت البلاد الإسلامية موزعة بين -
الاشيديين في مصر والحمدانيين في الموصل والجزيرة وحلب وشمال الشام
والبويهيين في العراق وفارس .

كما صور فيه كذلك الحياة القومية حيث كان في بلاد المغرب
تياران عنيقان هما : التيار القوي الفارسي وتيار العروبة الحرة .

كذلك وضع صورة دقيقة عن مآثر الحياة الاجتماعية في عصر
أبي الطيب ، وحظها من التقدم والحضارة ، والرفاهية وأثر ذلك في
نفوس الرق والتسرى ، وما نجم عنها من إصابة المجتمع بالحنن الأخلاقية
وبالخلاف في الأسرة والعمل ، حيث ارتقى بعض المبيد في هذا العصر
إلى مزاحمة السادة وأولادهم في القيادة والحكم ، وكان منهم القائسد
والامير كمؤس وكافور .

ثم تناول المؤلف مظاهر الحياة الفكرية وازدهارها في هذا العصر
ومظاهر تقدمها العلمي والفلسفي واللغوي والأدبي ، حيث نشطت هذه

المعلوم كلها ، وظهر عديد من العلماء المرموقين والأدباء الموهوبين ،
كما أشاد بحركة التصنيف التي ارتقت في هذا العصر رقياً ملحوظاً .
كذلك ازدهرت الكتابة الفنية ، وبرز في عالمها كثير من ذوى -
الثقافات الحية التي تعددت روافدها وظهر عديد من الشعراء ذوى
الملكات والمواهب ، (١)

وفي الفصل الثانى - المتنبى فى عصره - عرض لمولده بالكوفة سنة ٣٠٣هـ
ونشأته الأولى فى حى كدة بالكوفة ، كما عرض لصورته الجسمية والروحية
معتمداً فى ذلك على شعره الذى ترجم فيه عن ذات نفسه ونهضات قلبه .
وقد رد المحاسنى عن المتنبى تلك التهمة التى لصقت به ، من
أن أباه كان يسمى عيدان ، وكان سقاء بالكوفة يستقى على بصير له
يقوله : * ولا تثبت صحة ذلك حين نرى أن من أورد هذا الخبر
فى نسب المتنبى كان علويًا أو تنوخياً ، وقد وقعت بين أبى الطيب
والمعلويين من أهل الكوفة والتنوخيين من أهل انطاكية بالشام حوادث
وأضغان ، كانت سبب جلالة عن منازل قوم ، وحالت بينه وبين عودته
السريعة إليها ، فلا يبعد أن يكون هذا من قبيل التشنيع عليه نفسى
نسبه وتمييزه بمهنة أبيه (٢) .

ولقد ائتمد المحاسنى فى ذلك على شعر المتنبى ، الذى دافع
فيه عن نسبه وعرويته من جهة أبيه وأمه . مثل قوله :

أنا من بعضه ي فوقاً بالباسا
حت والنجل بعض من نجله

(١) انظر كتاب - المتنبى ص ٥ - ٢٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣ .

وقوله :

وانى لمن قوم كان نفوسهم بها أن تسكن اللحم والمظلم

ثم انتهى من ذلك الى قوله : " فالمتنبى اذن صحيح النسب فى عرويته من جهة أبيه وأمه وبطونهما كانت معروفة بالكرم والفرسية ولها أيام مقرونة بالحمد والذكر " .

ولقد اعتمد المحاسنى كذلك على شعر المتنبى فى الحديث عن قصة حياته وأطوارها ، حيث جاء شعره موضحا لسيرته وحوادثه ، ولم يتفق لشاعر عربى برزت أطوار حياته فى شعره مثلما اتفق لى الطيب فى ديوانه صور نفسه ومزاجه وخصائص فكره وضروب المحن التى لازمت زمنه ، ولا يست أهله وحكامه (١) .

وعندى أن هذا اللون من الدراسة الأدبية ، الذى يعتمد على شعر الشاعر فى استقصاء أخباره ، واستنباط مظاهر حياته ، يعد من أصدق المناهج وأدقها ، ولقد اعتمد عليه الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد فى دراسته القيمة عن شعر ابن الرومى فى مؤلفه - ابن الرومى حياته من شعره (٢) -

وقد قسم المحاسنى حياة المتنبى الى أربعة أطوار معتمدا فى ذلك على شعره ، وما جاء فى أخباره .

الأول - نشأته بالكوفة مع جده ، وتنقله فى البادية ، ثم رحيله الى بغداد التماسا للرزق ، وذهابه الى بادية الشام وتجوله فى مدنها

(١) انظر المتنبى ص ٢٦ .

(٢) صدر الكتاب فى طبعات عديدة .

وقراها حتى هبط الى دمشق ، وفي هذا الطور من أطوار حياته
عرض لما نسب الى المتنبي من ادعائه النبوة ، وقد فند المحاسني هذا
الزعم بقوله : " وليس من المعقول هذا الادعاء ، فقد خلط السرواة
بين النبوة المزعومة ، وبين تسمية المتنبي نفسه بالملوية ، وكان
رؤساء الملويين قد حقدوا على أبي الطيب ، فزعموا أنه ادعى النبوة ،
وقد خافوا أن يستهوى القلوب بسحر بيانه ونيل غايته ، فيأخذ
الزعامة منهم فنبدوه وأهانوه (١) .

ثم أورد المحاسني جملة من أبيات المتنبي ، عبر فيها عن كبرائه
الذي كان سببا في تقول أعدائه عليه وتجهمهم به كقوله :
أنا في أمة تداركها الله — غريب كصالح في السمود
ما مقامى بأرض نخلة إلا — ك مقام المسيح بين اليهود
وقوله :

أى محل أرتقى	أى عظيم اتقى
وكل ما خلق الله	به وما لم يخلق
محقر فى همتى	كشمرة فى هفرتى (٢)

والطور الثانى من حياة المتنبي — قضاءه فى حلب من سنة ٣٣٧ — ٣٤٥ هـ
فى حى سيف الدولة الحمداني ، وفى هذا الطور قال أروع شعره
فى تصوير المعارك والوقائع ، التى خاضها سيف الدولة مع البيزنطيين .
ولقد أفاض المحاسني فى تصوير حياة المتنبي فى هذه الفترة
التي قضاها فى كنف سيف الدولة ، وعرض للمحنة التى أصابت المتنبي

(١) انظر المتنبي ص ٢٨ .

(٢) ص ٢٨ ، ٢٩ .

من جراء حقد الوشاة عليه ، والتي انتهت برحيله عن سيف الدولة
يحمل أساء ولوعه لهذا الفراق الكئيب .

أما الطور الثالث - فهو الذى قضاه فى مصر ، تحت إمرة -
كافور الاخميدى ، الذى فر اليه بعد رحيله عن سيف الدولة ، وقد
عاش فيها أربع سنوات ، مدح خلالها كافورا بشعر حمل فيه نفسه
على أن تقول ما لا ترضى ، وكان هذا المدح مبطنًا بالشهكم والاستهزاء
مواجهًا بالهم والأسى .

والطور الرابع من حياة المتنبى كما صورته المحاسنى - ينحصر فى
أسفاره وتنقلاته بين الكوفة وحلب ، وبغداد ثم اتصاله ببعض الدولة
البويهى ، حتى انتهت حياته صريعًا سنة ٣٥٤ هـ أثناء عودته من
شيراز الى بلاده .

وقد درس المحاسنى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب شعر
المتنبى (١) - والمآخذ التى وجهت اليه من العلماء والنقاد ، كما
تحدث عن ديوانه وشروحه ، وثقافة المتنبى وتأثيره وتأثره .

وعن موهبة المتنبى وصياغته الفنية يقول المحاسنى : " وقد كان
المتنبى شاعرا مطبوعا تطق بالشعر وتأتى له وهو غلام ، وفى ديوانه
قصائد قالها فى صباه دلت على ما سيكون لصاحبها من شأن ومكانة " .

وهو يمزو رصانة شعره وقوته الى حياته الأولى فى البادية -
وبين الأعراب ، وذلك اذ يقول : " وكان لحياته الأولى فى البادية
وبين الأعراب ، ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة فى موضعها من
كلام العرب أثر راسخ فى موهبته وطبعه ، حتى ان مياسم البادية -
(١) ص ٤٠ وما بعدها .

مافارت قصيدة واحدة من قصائده .

ويرى المحاسنى أن شعر المتنبى صورة صادقة لعصره وصراة
للحوادث والمحن فى أيامه ، وأنه قد عبر فيه عن رأيه ومذهبهم
وخلجات حسه ، وقد ألهمته السياسة والصروبة المتأصلة فى فساد
والبيئة الاجتماعية التى كان يحيا فيها - ألهمته معانى شعوره
الذى صور فيه أحداث عصره ومجتمعهم .

كما عرض لشرح شعر المتنبى فى القديم والحديث وفى الشرق
وفى الغرب ، كالحامى وأبن العلاء الممرى وأبن المتاهية والشيخ ناصيف
اليازجى وعباس محمود العقاد الذى جاء بحثه المنشور فى مطالعته
جامعا بين الجدة والدقة والخصى والمقارنة ، والدكتور عبد الوهساب
عزام الذى أخرج كتابين عن المتنبى ، والدكتور محمد كامل حسين ،
الذى انشأ مقالة طويلة هاجم فيها أبا الطيب هجوما لم يعرفه الشاعر
من قبل .

ومن المستشرقين الاستاذ " بلاشير " الذى عنى بشعر المتنبى
عناية فائقة ، ومنهم كذلك المستشرق الايطالى - جابريللى - ومايزال
المستشرقون معنيين كل العناية بدراسة المتنبى وشعره ، لانهم يجدون
فيه - كما يرى المحاسنى - مجال القول ذاسمة ، وموضوعا متعدد
النواحي يميزه الشرح والتحليل على المنهج الجديد .

ويرى المحاسنى أنه لم يتح لشاعر عربى من النقد والتحليل
لأثاره فى القديم والحديث ما اتاح لأبى الطيب ، وكان له فى القدامى

محبون وخصوم ، وكذلك في الحديث من المعنيين بدراسته والمقارنة
بينه وبين غيره (١).

ديوان المتنبي :

ومما عرض له المحاسنى في هذا الكتاب ديوان أبي الطيب
وشروحه وقد عاب كثيرا من الأوائل ومن تبعهم من الاواخر ، الذين
جمعوا ديوان المتنبي ورتبوه حسب حروف الهجاء ، وذلك كما فعل
أبو البقاء المكي ، لانهم بذلك أضاعوا على الدارسين والباحثين منهج
التسلسل في حياة الشاعر ، وهو يرى أن هذه طريقة سقيمة في جمع
دواوين الشعراء ونشرها حسب حروف الهجاء في القوافي والروى ، وهي
أن دلت على شيء فلا تدل على أكثر من لعبة تصفيف للحروف واحصاء
لمعدد الابيات .

والذين نسقوا ديوان المتنبي حسب أدوار حياته صنعوا الجميل
لتاريخ أدبنا ، لان المتنبي شاعر أنح حياته وعصور حوادثه في شمسها
ولم يجمع .

كما عرض المحاسنى لنقاد شعر المتنبي وتسميم الفريقين ، فريق
معه ، وآخر عليه ، وقد ألفوا في ذلك الكتب المطولة ، وكان أعدلهم
القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٩٢ هـ - الذي وضع في أبي الطيب
كتابا سماه " الوساطة بين المتنبي وخصومه - كما وضع أبو الحسن الافريقى
المعروف بالميم كتابا في أبي الطيب سماه - الانتصار المني عن فضل المتنبي " .

(١) المتنبي ص ٥٠ وما بعدها .

ووضع البديعى الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ كتابا عن

الشاعر سماه - الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبي - .

ونبه كذلك على شروح الديوان كشرح أبى البقاء العكبرى ، وشرح

أبى العلا المعرى ، وأبى زكريا بن الخطيب وغيرهم (١) .

كما أشار المحاسنى الى الفريق الحاسد للمتنبي ، وبواعث

الخصومة التى كانت بينه وبين حساده لا سيما فى حضرة سيف الدولة ،

وبين أثر هذه الخصومة فى اذاعة مناقب المتنبي ، وشعره . مما تراه

مبثوثا فى هذا البحث من كتابه (٢) .

تأثر المتنبي وتأثيره

تناول المحاسنى ثقافة المتنبي وروافدها القديمة والجديدة ،

فأشاد بما وعاه فى الكوفة من علوم العربية واللغة والاعراب والشعر ،

وما تعلمه فى البادية وأخذ مشافهة عن شيوخ الاعراب من أواسد

اللغة وشواردها ، كما بين أثر تجواله فى البدو والحضر والقرى والمدن

فى صقل حسه وتهذيب ملكه .

كما نبه على منبع ثقافته الجديدة ، التى خرج بها عن رسوم

الشعر الى طرق الفلسفة ، حيث قرأ الفلسفة والمنطق ، وتأثر بمقولات

أرسطو ، وعكف على كتب التصوف ، وغيره من المعارف الدخيلة ، وقد بدا

أثر هذه الثقافة فى تفكيره وتصويره ، وانعكس صداها فى محيط شعره

شكلا ومضمونا .

(١) المتنبي - ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) انظر ص ٥٤ وما بعدها .

وقد كان للمتنبي أثر بارز فيمن أتى بعده من الشعراء قديما وحديثا . ومن أبرز هؤلاء الشعراء الذين تأثروا به . أبوالمعالا المعري - الذي أقبل على شعر أبي الطيب اقبالا ماعرف من شاعر آخر مثله ، وتأثر بأرائه السياسية والاجتماعية والدينية ، ولقد سرد المحاسنى طائفة من أبيات أبي المعلا وقصائده فى لزومياته ووجد لها صورا وأصولا فى شعر أبي الطيب لاتكاد تحصى (١) .

ومن أبرز من قلده المتنبي فى هذا العصر - أحمد شوقى - شاعر العربية فى القرن العشرين الميلادى الذى أولع بشعر أبي الطيب - كما يرى المحاسنى - فقلده فى سبكه وتعبيره ، والتزم فى أكثر قصائده بأوزان المتنبي وقوافيه ورويها .

ولقد كان تأثير المتنبي فى شوقى وبينهما عدة عصور ، أقوى من تأثير شعراء الغرب الذين قرأهم شوقى وتعلم ثقافتهم وأقام مدة فسى بلادهم ، وتجلت طوابع المتنبي فى كثير من شعر شوقى ، وقد حاكاه فسى بعض معانيه وألفاظه ، ورثى جدته " تراز " بقصيدة عارض فيها ميمية أبي الطيب التى رثى فيها جدته (٢) .

القيمة الأدبية للكتاب

ولقد تضمن الكتاب فوق ما عرضناه من تحليل وجيز لهذا الممل الأدبى ، الذى قدم به المحاسنى أبا الطيب لمتذوقى الادب والشعر تقديمًا موضوعيًا فيه شىء من التركيز والتدقيق ، تضمن طائفة من منتخبات شعر المتنبي فى أغراض مختلفة منها - الفنائى ، الاجتماعى ، السياسى ، الوصفى ، الحكى (٣) .

- (١) انظر ص ٥٨ ، ٥٩ من المرجع السابق .
- (٢) انظر ص ٦٠ ، ٦١ من المرجع السابق .
- (٣) انظر ص ٦٥ - ١١٠ فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

ولقد أنصف المحاسنى هذا الشاعر العربى ووضع موضعه
الصحيح ، وبوأه المنزلة التى يستحقها فى تاريخ أدبنا العربى ، كما
أشاد بمنزلته فى أدب الغرب ، مستمينا بآراء بعض المستشرقين
الذين أعجبوا بالمتنبى وسيرته وشعره وترجموا كثيرا من آثاره ورواياته
الى آدابهم منهم : الفرنسى والالمانى والروسى والهولندى والايتالى .

وذلك لانهم رأوا فيه شاعرا للعربية من طراز أعلى ، يملسم
شعره المجد والبروة والاخلاق ، وييمت فى النفس روح الحماسة والبطولة
وقد عدوه جميعا (شاعرا عالميا) لا يقل قيمة عن شعراء الأدب الاوربى
المعالمين ، ممن ترك كل منهم حدا رائعا فى أدب أمته .

وما يحمد للمحاسنى فى هذه الدراسة أنه صحح بعض المفاهيم
والاحكام غير الدقيقة ، التى كانت من بعض المستشرقين فى تفسير
بعض الظواهر التى بدت فى شعر المتنبى ، وجاراهم فيها بعض دارسى
الأدب ومؤرخيه ونقاده المعاصرين .

ومن ذلك : ما ذهب اليه المستشرق — لويس ماسينيون — الذى
فسر شعر المتنبى الحماسى والحربى ، وعزى ما فيه من صلابة الأسر وتوقد
الحماسة والميل الى الحرب الى نزعة (قرمطية) سماها النزعة الى سفك
الدم ، وقد رأى هذا رأى الدكتور طه حسين فى كتابه — مع المتنبى —
والدكتور شوقى ضيف فى كتابه — الفن ومذاهبه فى الشعر العربى —

ولقد خالفهم المحاسنى فى ذلك حيث ذهب الى أن يفسر
أبى الطيب الى الحرب ، كان نزعة عربية حرة ، فى عصر عانى فيه العرب الانقسام

والتناحر ومكايد الفرس والترك ، فكان أبو العلي صاحب رسالة حربية في
تحرير العرب من رقة المصم وتجديد حياتهم بردهم الى مثلهم العليا
السابقة (١) .

ولقد كشف المحاسنى في هذا الكتاب عن جانب خطير لمأثره
في حياة المتنبى وشمره ، هو تشجيع المتنبى ، الذى جعله يتفوق فى شعر
الحرب ووصف القتال ومعارك الابطال .

ولقد كان من المآخذ التى وجهها الدكتور شوقى ضيف الى المحاسنى
فى كتابه - شمر الحرب فى أدب العرب - ، أنه أغفل هذا الجانب فى
حياة المتنبى حيث يقول : " وأنا لا أرتاب فى دقة ما كتبه عن المتنبى
وروعه ، غير أنى وقفت عندما قاله عنه وعن سيف الدولة من أن كلا منهما
وجد صاحبه لما امتا زبه من بدولة وفروسية ، فالبطولة والفروسية هسى
التى جمعت بينهما ، ونحن لا نشكر ما انصف به كل منهما فى هذا الجانب
الا أننا نرجع الصلة أيضا الى ما كان من تشجيع سيف الدولة المتنبى جميعا ،
فالتشجيع هو الآخر ربط بينهما ، ولعله هو الذى جعل المتنبى يعجسب
الى غير حد بسيد " .

ثم يقول : " وهذا رأى بدالى أنا أعضه على الدكتور زكى المحاسنى ، وهو
لا يفيض من رخته الطريف (١) .

ولقد أبان المحاسنى فى كتابه - المتنبى - من تشجيعه للملوكيين وأورد بعض
قصائد السياسية فيهم وعد ريمضها بقوله : نوه المتنبى غير مرة فى شمره بالملوكيين
وأغلب الظن أنه أشاد بهم عن رغبة لا عن رهبة (٢) .

(١) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٢) نقلا عن كتاب تحية وذكرى ص ١٥٩ .

(٣) المتنبى ص ٩٥ .

٣ - الأدب الدينى (دراسات أدبية عن القرآن والحديث)

تضمن هذا الكتاب خاطرات من الدين زين بها المحاسنى
الأدب ، كتبها وهو بمكة المكرمة ، موفدا للمحاضرة والتدريس بكلية
الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة (١) .

صدر الكتاب بمقدمة رائعة بعنوان - رباحين الدين فى
الأدب والفن - بين فيها مدى الدين فى الأدب ، وأثره فى تفجير
المواطف وتحريك المشاعر ، والترجمة عن ذلك بما يصور هذه المواطف
من البيان البليغ والقول المؤثر فى آداب الامم المختلفة .

يقول المحاسنى : " لا يعيش الأدب منضوج البيان بالسحر
الحلال وفصل الخطاب الا فى حى الدين ، ولقد عرفت الامم القدامى
فى حياة الشعر والفن تراتيل العبادة فى طقوس الدين (٢) " كما تتبع
المحاسنى نشأة الادب وخاصة الشعر لدى الامم القديمة ، التمسى
انعكس تدينها على محيط آدابها ، وكانت هذه الآداب تابعة من
المباداة وفواحة بأريج الدين .

وعنده أن شعر العرب فى جاهليتهم لم يخل من شعور دينى -
وأن لم يصل اليها منه ، سوى نفحات دينية فى كثير مما كان فى
المحلقات المشرقة وقصائد شعرائها ، كما وجد أثر الدين فى الأدب الجاهلى
فيما قاله حكما الجاهلية من السجعيات البيانية وغيرها .

(١) سنة ١٩٦٦ ونشر الكتاب فى دمشق ١٩٧٠ .

(٢) المقدمة ص ٣ وما بعدها .

وجاء الدين الاسلامى بمدهشة القرون - القرآن الكريم - فكان النور
الالاهى ، الذى اكسح الظلمات فى الارضين وفى النفوس ، فشدته لى
الشمر المربى وانحلت قواه تلقاه ، وكان ذلك الشمر فى تلك القسرة
يحتل مكان الصدارة فى تاريخ العرب ، فى الفكر والفن ، والتأمل وفى
رجاحة الوعي .

ويمد أن أفاض المحاسنى - فى هذه المقدمة - فى علاقة الادب بالدين
وبين أن الكتب السماوية منذ أن عرفها الانسان على الارض ، كانت لحتمها
الادب ، وسداها القصة والتصوير انتقل الى تبيان مافى القرآن الكريم من
قصص رائع ووصف بديع وتصوير مبين .

وقد عبر عن ذلك فى قوله : " فالقرآن أدب الالهى فائق معجز
وقف أفصح العرب من الشعراء والكتاب وأهل البيان مهوون تلقاه
وكان الشعراء الجاهليون الذين أدركوا الاسلام أول الرعل الذى حمل
القرآن الرنفة الدهشة الكبرى ببيانه المجاب ، حتى هجر لبيديين
ريفة العاصى شعره ، واشتغل بنسخ سور من القرآن علف على
حلاوتها يذوقها فى تمهل وفرحة حتى خاز رضى الرسول محمد بن عبد الله
على الله عليه وسلم . "

ولقد كان ما دفع المحاسنى الى مثل هذا النوع من الدراسة
فوق تدينه وايمانه العميق ، ما شاهده فى زورته لاوريا سنة ١٩٦٠ ،
حيث وجد فى معاهد الدين فيها أن الدراسات اللاهوتية مزجة بنفحات
أدبية ، وأن الاناشيد الطلية تحط تواقيمها المرددة على منظومات
لاتينية ، وكانت انسحابات (افاماريا) فى تلك المعاهد تشوق أصحابها
بفنون نظمها الادبى وسماها الطرب (١) .
(١) الادب الدينى ص ٢٣ وما بعدها .

وقد دفعه ذلك الى أن يتجه الى القرآن الكريم يستجلى روائع
تمبيره الادبي وجماله الفني وقدرته على احتواء المصانق بالفاظ معجزة
فضلا عن كونه عالم فكر يمجج بالحوادث والقصص والتاريخ والاخبار ، كما
أنه محشد للتشريع والتخطيط النبوي .

أما منهجه في تلك الدراسة فيتلخص في تحليله بعض الآيات
الكريمة - التي تناولت بعض القصص والاخبار ، مثال تحليله أدبييا
ولغويا ، مبينا اعجازها ومنزلتها وقيمتها الادبية والبيانية واللغوية ، وأثرها
في أدب العرب والعرب على سواء .

وفي دراسته للحديث النبوي الشريف ، عرض لجانب من جوانب
سموه وبلاغته وروحه ، وهو الجانب القصصي فيه .

ونحن نسوق الى القارئ نماذج من هذه الدراسة في معرض التمثيل
دون الاستقصاء .

أدب سورة الكهف

تناول المحاسني في دراسته مواضع قصصية في سورة الكهف ، من
الوجهتين الادبية واللغوية ، ومهد لها بقوله (١) : * ان سورة الكهف
مكية ، ونحن نعلم بالتحليل الدراسي أن السور المكية كانت قصصية
على الغالب ، ويكثر فيها عرض الوعيد وأمور الآخرة والمذابح والثواب ، كما
يكثر في السور المدنية التشريع والتخطيط والفصول الاجتماعية .

(١) الأدب الديني ص ٢٣ وما بعدها .

ونستطيع أن نحلل تحليلاً أدبياً مواضع من سورة الكهف على الشكل الآتى :

أولاً : تبدأ السورة الكريمة بالحمد لله ، ثم لا تجتاز قليلاً ، حتى نراها تدخلنا إلى القصة بفن عجيب و (باللتفات) رائع عند قوله تعالى فى كلامه على الأرض بعد الآية (وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جزرا) ثم يقول : (أم حسب أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا * اذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا رشدا * فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) .

وقد أشرت إلى براعة الالتفات وهو فن من فنون البديع يكثر فى الشعر ويقل فى النثر ، يستطيع به الشاعر أن يخرج من موضوع إلى موضوع ويكثر هذا الالتفات والخروج عندما يخرج الشاعر من الغزل إلى المدح ، وكانت هذه الطريقة بغيضة للمتنبى ، على الرغم من أنه استعملها بمعضلة فراح يقول :

إذا كان مدح فاللسيب المقدم أكل فصيح قال شعرا متيم

فدحن نرى لمة البديع والالتفات القصصى فى قوله (أم حسب أن أصحاب الكهف) .

ثانياً : لم يكن مقصد القرآن أدبياً منذ كان ، وانا كان مقصده تشريعياً اجتماعياً ، لكن العرب وهم أدباء بالفطرة نسج القرآن آياته وسوره بفن أدبى ، ولذلك أشارت الآية الثانية (كانوا من آياتنا عجبا) ، والآية فى صحيح اللغة العلامة والدليل ، وآيات القرآن الكريم أدلة على محكم مقصده من بيان وتشريع ، وأراد بكلمة العجب أن يمارس الفن القصصى مالموه لان ما سرد فى هذه السورة كان عجبا من العجب .

أقليل عجباً أن ينام أناس طويلاً ، ثم يستيقظوا بعد سنين فيجدوا علقهم قد تبدلت وخلا عهداً ، ولا يستطيع العقل البشرى الملقى أن يناقش هذا السبات العميق في السنين الطوال لأهل الكهف ، ولكن الاعتقاد الاسلامي الجازم هو وسيلة قبوله والرضا به لانجام المعجزة الالهية ، فان من وهبنا النوم قليلاً يستطيع أن يهبنا اياه طويلاً فاذا قال (فضررنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً) انما يريد نومهم المطبق ، وأنهم لم يسموا حسيين الدنيا في نومهم (ثم بعثناهم) فبعثهم هو دبيب اليقظة في نفوسهم ، والمعجب الاخاذ هذه النوم الطويلة ، ودهشة قومهم عندما وجدوهم بلباس وشكل لم يكونوا يجهلون ، حتى كادوا يحسبونهم ويردون عليهم ، كل هذه الحوادث ترغيب قصص ، لان الناس القوا النوم القليل ولم يألفوا السبات البعيد .

ثالثاً : لا يزال القرآن الكريم ينوّه بين الفترة والفترة ، بأن ما جاء به قصص من القصص ولذلك ذكر هذه الآية (نحن نقص نبأهم بالحق) وقد وقعت عند كلمة الحق فيتم بذكرها القرآن اليس في قوله كفاية (نحن نقص عليك نبأهم) ، والظاهر ان الكتب السماوية التي تداولت أخباراً قرآنية ، شاء القرآن الكريم ان يوكل بعض القصص فيها على وجه الحق وصدق الرواية .

اننا نتخطى آيات كريمة لنصل الى قوله تعالى في هذه السورة .. القصص - وتحصيمهم أيقاظاً وهم رقود وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلهم باسط ذراعيه بالوعيد لو اطلعت عليهم

لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا . وكذلك بعثناهم ليقسألوا بينهم
قال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم
أعلم بما لبثتم فابحثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فينظر ايتها الزكي
طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشمرن بكم أحدا ، انهم ان
يظهروا عليكم يرجعوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدأ . "

أثر القصة في الآداب المعاصرة :

يرى المحاسنى أن هذه القصة التى وردت فى سورة الكهف
كانت ذات أثر عيق فى أدب توفيق الحكيم ، الذى اقتبس منها قصته
- أهل الكهف - يقول : " ان قصة توفيق الحكيم فى أهل الكهف عمل
إبداعى كبير ، فقد استطاع أن يكون من أوائل المسلمين والمسلمين
الذين أخرجوا من القرآن قصة رائعة أو رواية كبيرة (١) ، "

كما يرى أن فولتير الأديب الفرنسى ، قد صنع مثل هذا الصنيع
فى قصته - زدريك - التى اقتبس اساديشها وحوارها من سور الكهف ،
فيما جرى بين النبي موسى والخضر ولقد تأثره فى ذلك توفيق الحكيم
فى روايته السابقة . . .

ولقد أشاد المحاسنى بما ورد فى هذه القصة من حوار طريف
وهو ما تستدعيه طبيعة العمل القصصى ، وذلك إذ يقول : " ونحن
إن نجل كتابة القرآن عن هذه الطريقة نجدنا جعلناها لتحقيق غرض
أدبى ، وهو أن الدكتور طه حسين حين كتب مقدمة أهل الكهف

(١) الأدب الدينى ص ٢١ . وقد رأى هذا الراى الأستاذ / عمر الدسوقي

فى كتابه عن المسرحية ونشأتها فى أدبنا العربى .

فى الطبعة الأولى لتوفيق الحكيم ، وألقى النور على وجوده فيها ، زعم
أن توفيقا الحكيم أول من ابتكر فن الحوار فى الأدب الحديث وفى ..
الأدب العربى كله ، وقد ناهضته رادا عليه بأن الشاعر الكبير المرحوم
ولى الدين يكن ، سبق توفيقا الحكيم الى فن الحوار فى كتابه (الصحائف
السود) .

وقلت انى أجد الحوار عند الجاحظ ، ثم استغنيت عن كل
هذه الآثار بالقرآن الكريم ، الذى قام أكثر قصصه أو حديثه على الحوار
فى قال ويقول وقلت وقل . (١) .

فهذا نموذج من الدراسة الأدبية التى احتوى عليها الكتاب
وقد سار على منهجها الدكتور زكى المحاسنى فى مباحث الكتاب التى اشتملت
على :

- ١- الدراسات القصصية فى القرآن .
- ٢- اعجاز القرآن الكريم .
- ٣- التجسيم النفسى فى القرآن .
- ٤- القرآن والشعر .
- ٥- الوجودية المذهبية فى القرآن .
- ٦- دراسة آية .

أما دراسته الأدبية عن الحديث ، فلتد حدد المنهج الأدبى
الذى سيتناول فيه بعض الأحاديث التى اختارها للدراسة ، ثم يبين
سموها ولاحظها وروعتها ، ومظاهر الفن فيها .

(١) الأدب الدينى ص ٢٦ .

والكتاب فوق ذلك ملئ بالبحوث الاسلامية ، التي عرض لها المحاسنى ومنها :

- أ - هوى الجاهلية وحب الاسلام .
- ب - ديوان مجد الاسلام .
- ج - من آثار القرآن فى الاداب العالمية .
- د - ملحمة الحج .
- هـ - الهجرة .
- و - الرسول صلى الله عليه وسلم والشعر -
- ز - شعر الجهاد فى ادب الاسلام .
- ح - الفلسفة الاسلامية عند ابن تيمية .
- ط - السيرة النبوية والملحمة الاسلامية .
- ى - الرسول يصنع وحدة الصروة ... الخ .

وتكشف هذا المباحث كلها عن تغلغل الروح الدينى عند المحاسنى كما تبين غزارة ثقافته الدينية وأثرها فى أدبه ، حيث وقف على كتاب الله الخالد ، يجلى فيه بمبقرته اللامعة وذوقه المتمرس ، ما خفى عن الكثيرين من روعة وفن وبراعة تصوير ، كما أبان عن جوانب الأدب وكشف عن عناصره فى بعض الاحاديث النبوية الشريفة التى مللها تحليل ادبائنا عن وعى وادراك .

ونحن نحيل القارئ الى هذا الكتاب القيم ، الذى يدل على اعتزاز صاحبه بمجد الاسلام وراثته وأصالته وقيمه ، والذى يقع فى ثنتين وسبعين ومائة صفحة من القطع الكبير .

يقول الاستاذ وحيد الدين بهاء الدين عن هذا الكتاب وصاحبه :

" والمحاسنى المؤمن يصوغ الحبيبات الادبية بكل مناحيها وأهوائها

على أساس من الدين تمثل في القرآن الكريم والحديث ، انه يدعو الناس الى الالتزام بالقيم الاسلامية ، التي أخرجت البشرية التائهة من ظلام الجهالة الى نور الهدى والرشاد .

٤- نظرات في أدبنا المعاصر (١)

هذا الكتاب يعد حلقة في سلسلة الدراسات الادبية للدكتور زكي المحاسني - يقع في ثمان وعشرين ومائة صفحة من الحجم الصغير ويضم هذه الموضوعات :

- ١- ماهو الأدب الحديث ؟
- ٢- مراحل الأدب الحديث .
- ٣- أدب ما بين الحربين العالميتين .
- ٤- أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية .
- ٥- حياة الشعر الحديث .
- ٦- شوقي - حافظ - مطران .
- ٧- جماعة أبولو .
- ٨- الشعراء المجددون .
- ٩- أدب القصة .
- ١٠- الادب المسرحي .
- ١١- الترجمة .
- ١٢- تحقيق المخطوطات .
- ١٣- اللغة العربية في عصرنا .
- ١٤- رسالة الادب المعاصر .
- ١٥- التأليف في الأدب الحديث .

ويدل الكتاب على ثقافة المحاسني الواسعة ، وعلى مدى
إحاطته بالأدب العربي في عصوره المختلفة ، كما عبر فيه صراحة
عن رأيه فيما طلع علينا به جماعة من المجددين الذين مسخوا الآداب
وشعوها تحت هذا الشعار - شعار التجديد يقول المحاسني في
الشعراء المحدثين : " ما كان لأدب العرب في زمن من أزماته أن يعيش
خلوا من سدة هيكله ورعاة عهده ، فان شيوخا في مصر والشام والعراق
وديار المغرب مازالوا حماة ذلك الهيكل ، غير أن فرقا من الشبان
ظهرت مثايل نبوغهم مكررة ، فأقبلوا بشعرهم ليصلوه بآثار سابقهم
وانفلت منهم معشر جاءوا بضرب من الشعر سموه جديدا ، وحيث
ينظر فيه الناقد لا يجد من جدته سوى تصفيف كلماته ، فبدلا من وضع
الشعر الموزون المقتضى ، وضع الاشطر في الابيات المتعاقبة ، أخذ
هؤلاء الشعراء يقسمون الشطر الواحد في ثلاث كلمات تكون الواحدة خلف
الآخرى ، أو يجيئون به غير موزون ولا بقفى فيكون ضربا من النثر وليس
كما يتوهمون .

وقد شجعت هذه الحركة بعض الصحف والمجلات ، تبتنى شق
الطريق أمام الناشئين فكان أن حدث ارتباك في أدب الفترة الأخيرة ،
وحار الناس فيما يعاننون من شعر جديد ، فاذا شاء الشعر الجديد
أن يبرأ من قيود التقليد فلا يلجأ له أن يتنكر للوزن والموسيقى .
ويقول عن رسالة الادب المعاصر : " من رسالة الادب المعاصر
د راسة الفكرة الانسانية و ابرازها في آثار الادب ، والفكر الانساني
هي الفوضى على معاني الحياة البشرية في مواجهتها وسمادتها . "

" ومن رسالة الأدب المصغر أن يعرف الشعب حقيقة أدبائه خاصة ، كما يعرف المرء أخاه وأهله ، وكأى من أديب أو شاعر يمشى فى عصرنا ، وكأنه فى نطاق ضيق من السدود والحدود ، لا يصرف عنه قرائه شيئا سوى آثاره الفكرية والأدبية ، فهو لم يكتب لقرائه تاريخ حياته كما هى ، ولم يعطهم نفسه كما أعطوه أنفسهم .

ومن رسالة الادب أن يكون هادفا يرمى به صاحبه صوب غايته فالأديب الضال والكاتب الحائر فى مهب الريح لا يستطيع أن ينعم بطيب الحرية ، ولا تكون له شخصية مميزة ، وهدف معروف يرمى اليه "

وفى أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية يقول عن كارثة فلسطين وأثرها فى الادب : " ولكنى أجد النكبة الفلسطينية قد أثرت فى الشعر العربى ، وخلقت جوا جديدا من الشعور الوطنى التائسر والباكى على تشرد القسم الأكبر من الفلسطينيين ، الذين أخرجوا من ديارهم ظلما وعدوانا ، ولكن هذا لثورة فى الشعر الحديث كانت تعبيرا عن الامل الكبير فى العودة الى الأرض المفقودة ، ولن تهدأ هذه التبايح الا برجمة الحق الصراح الى أهله " .

" وان هذه النكبة التى كانت منها نقطة الانطلاق فى تحرير مصر وبعض البلاد العربية من روابب الاستعمار وطغيان أعوانه لجديره بملحمة يبدعها أحد شعراء النكبة أو الذين فى مكتتهم وضعها واعدادها ، لتصور الهول والفرد للذين توسلت بهما الصهيونية الباغية ، لتشريد الآمنين فى بلادهم تحت كل سما ، وقد فاتها أنهم عائدون " .

ولعل قيمة هذا الكتاب تكمن في أنه رصد نهضة الأدب الحديث فيما واكبها وما اشتجر حولها وما تجدد فيها من خلال الظروف الموضوعية للاقطار العربية التي بلورت هذا الأدب واكسبته مقوماته الخاصة ، وأسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمثل الحضارية ، ومدى قدرة هذا الأدب على التفاعل مع الأحداث ، واستيماب قضايا الإنسان العربي في جميع البلدان والأعراب عنها بطلاقة وإخلاص .

على أن الشيء الحدي بالانتهاء هو أن المحاسنى وإن كان مؤمناً في قرارة نفسه بالأدب العربي بسبب خصائصه الذاتية والانسانية ، فإنه يرى أن هذا الأدب غير جدير بالارتقاء إلى المستوى العالى أو إلى درجة القياس به ، لافتقاره إلى مياسم العالمية في الأصالة والمعمق والجدة والتأثير يقول المحاسنى : " إن الحقيقة التي هي بغية كل باحث تقول : (ليس مالدينا من آثار أدبائنا شيوخا ومحدثين ، إلا القليل الضئيل ما نستطيع أن نقدمه إلى جنب الأدب العالى " .

ولكن هذا ليس بمنعه من الاعتراف بأنه كان لنا أدب عالمي ، ولكن أين هو الآن ؟ بل أين نحن منه .. ولم لم نصله بالحاضر الراهن لقد تخلفنا وتخاذلنا ، وغيرنا ما بأنفسنا ، مستمرين نشوة الخمسول والحذر ، حتى غدونا حيث نحن اليوم " لقد كان لنا أدب عالمي ففى المصر المياسى والاندلسى ، وكان لدينا أفذاذ فيه عالميون ، وحين نذكر الجاحظ وأبا الطيب المتنبى وأبا الملاء المعرى ليمتز بهم ففى كل عصر " .

ومع هذا كله فالمحاسنى لا يكفر بالضمير العربى ولا يفقد أمله معتقدا أن بالامكان اللحاق بالركب العالى في ميدان الأدب والفكر ،

إذا عرفنا كيف نقفم آفاق هذا الميدان ، وكيف نطبع ذواتنا بطوابع العصر وتحولاته والحضارة ومبدعاتها والواقع ومتطلباته ، ثم إذا عرفنا كيف تصور تجاربنا وما تعانيه نفوسنا وعبرنا عن امالتنا الانسانية وتراثنا الحضارى بالارتفاع الى ذروة الفن الحقيقى والفكر الواقعى ، لىتميز ادبنا المصرى المعاصر بالعالمية فى المبنى والمبنى .

ويتجلى فى هذا الكتاب وفى غيره من كتبه الادبية سمته ثقافته وتنوع روافدها المصرية والغربية ، وسبب ذلك جنح المحاسنى الى القارنة والموازنة بين الكتاب والشعراء فى الشرق والغرب من رافقهم فى رحلة الفكر ، وذلك من خلال تفسيره لبعض الظواهر الادبية الحديثة المعينة ، مع ما فى الامر من تميز لآرائه وأفكاره ، وانفصاح عن غزارة علمه وتناهى أفقه ، كما فعل حين قارن بين فيكتور هوجو وأحمد شوقى^(١) وبين مالتوس وأبى الملا^(٢) وبين بودلير وأبى نواس^(٣) .

وشئت ميزة أخرى فى بحوث المحاسنى ودراساته الادبية ، فهو باحث ذو نظرات صليبة وآراء قيمة فى الادب والنقد ، وله آراء خالف فيها النقاد والدارسين داعيا آراءه بالبراهين والادلة ، التى حاول أن يقنع بها قراءه .

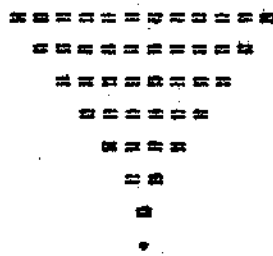
(١) انظر : نظرات فى أدبنا المعاصر .

(٢) انظر : أبوالملا : ناقد المجتمع .

(٣) انظر أبونواس شاعر من عبقر .

ومن الأمثلة على ذلك رأيي في الملحمة ، ان يرى أن كل شعر
طال أو قصر ، وفيه وصف للمعارك وسرد لآخبار البطولة ، ورواية
لما لخم القتال هو من شعر الملاحم (١) ، مخالفا بذلك جمهرة النقاد
ومؤرخي الادب ، الذين يرون خلو آدابنا العربية القديمة من فن
الملاحم ، كما ذهب الى ذلك المقاد وغيره (٢) .

ولقد أخذ برأي المحاسني الدكتور سعد الدين الجيزاوي في
كتابه عن الملحمة ان يقول : " نستطيع أن نطلق لفظ ملحمة على
كل قصيدة كبرى ، أو مجموعة من القصائد تكون موضوعية ، ذات طابع
واحد في وصف المعارك والبطولات ، وتصور المجتمع " الخ (٣) .



(١) للمحاسني محاضرة قيمة عن أدب الملاحم والملحمة العربية القاها
في قاعة المحاضرات الازهرية الكبرى وطبعتها الادارة العامة
للثقافة الاسلامية بالازهر ١٩٦٠ .

(٢) انظر تحية وذكرى ص ١٦٤ ، وانظر كذلك محاضرات في الشعر
د . ابراهيم أبو الخشب / ١٩٧٠ .

(٣) الملحمة في الشعر العربي د . سعد الدين الجيزاوي .

الفصل الثالث

التراجم الأدبية

دراسة المحاسنى للشخصيات تراوح ما بين الطريقة الكلاسيكية
البحثية والطريقة التحليلية المعاصرة ، فإذا كان كتابه عن " المتنبي "
و كتابه عن - طوقان - شاعر فلسطين ^(١) يخضمان لأسس الطريقة
الكلاسيكية ، فإن كتابه " أحمد أمين " و " عبد الوهاب غزام " يختلفان
عنهما من حيث التعليل والتفصيل ، والاستقراء والاستنتاج ، ثم يحويان -
شيئا غير ضئيل من عناصر الخلق والصدق ^(٢) .

ولعل لملاقة المحاسنى الوطيدة بالزجلين دخلا كبيرا فى
ذلك ، فهو يقول بهذا الصدق عن علاقته بأحمد أمين : " وهكذا
كنت أقرأ أحمد أمين ، فأتحيله فى شكله وسمته ، وأستخرج صورا حية
من عاداته وصفاته ، من طول التنقيب فى كنهه ومقالاته قبل أن أعرفه
من قريب ، وتجمعنى إليه مودة فكرية وتبجمات حكومية " ^(٣) . كما نوه
بالملاقة الحميمة التى ربطته بأستاذه الدكتور عبد الوهاب غزام فى مقدمة
كتابيه عنه كما سنرى .

وهذان الكتابان نموذجان لدراسة الشخصيات دراسة أدبية
تحليلية عند المحاسنى ، وهما عبارة زمالة فكرية ، وتلمذة أو صداقة
روحية ، استغرقتا شطرا من عمره ، واستوعبتا بالنسبة إليه وجوده الذاتى
والفكرى .

(١) صدر الكتاب عن دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٥٥ .

(٢) من بحث للأستاذ وحيد الدين بهاء الدين ص ١١٠ تحقيق ذكرى .

(٣) مقدمته كتاب - أحمد أمين للمحاسنى ص ٩ .

وقد صور المحاسنى هاتين الشخصيتين الرائدتين بلمساتهما
تصويرا واقعيا ، وعبر عن مبلغ تعلقه بهما تمجييرا أميننا على هذا
الشكل :

(١) أحمد أمين :

هذا الكتاب عبارة عن ترجمة تحليلية لأحمد أمين في عصره
وثقافته وأعماله - في ثلاثة فصول هي :

الفصل الاول - عصر أحمد أمين وحياته وثقافته .

الفصل الثانى - مؤلفاته وكتبه .

الفصل الثالث - أعماله الاصلاحية والعلمية والادبية والنقدية ، ثم

تأثيره ومكانته .

ويقع في مائتين وضع صفحات من الحجم الكبير .

وقد صدر الكتاب بمقدمة مسببة عرض فيها لصلته بأحمد أمين
وكيف اهتدى الى معرفته عن طريق متابعتة لافكاره الجديدة التى
كانت تحملها المجلات الادبية ، لا سيما مجلة الثقافة التى كان
يصدرها أحمد أمين ، وكان يطلع على قرائه فيها كل اسبوع ، بفكرة
جديدة من فيض خواطره ، أو يرد نقدا بصراحة وحرارة ، فازداد تعلقه به .

ثم توثقت بينهما الصلة ، لما قدم المحاسنى الى الجامعة
المصرية ، موفدا لتحصيل - الدكتوراه - ، وتولى لقاءه به تحت قبسة
الجامعة محاضرا ومناقشا فى الرسائل الجامعية ، ومحدثا ومجددا فى

مجمع اللغة العربية ... (١) الخ .

(١) مقدمة أحمد أمين ص ١٠ .

ولقد اهتمد المحاسنى فى تحليله لشخصية أحمد أمين وثقافته وأعماله على الترجمة التى كتبها أحمد أمين لنفسه وضمها كتابه " حياتى " ، كما اهتمد على صحبته له ، ومصرفته به عن كتب يقول :
أما أحمد أمين فقد رايت صورته فى كتابه - حياتى - كما رأيتته فى الميـان والممارسة ، ولم أجد الشخص الذى فى الوجود مخالفا للشخص الذى صور نفسه على الورق ، بل لمست فيه تواضع العلماء والبعد عـين التبجح والغرور " (١) .

وفى الفصل الذى صور فيه عمر أحمد أمين ومظاهره الفكرية والثقافية ، تناول أسباب الوعى والنضال فى أكبر البلدان العربية ، التى كانت تكافح من أجل حياة لا ثقة ومجتمع صالح ، كما أشار الى مظاهر الانحطاط الفكرى والخمول العقلى ، التى رانت على قلب الوطن العربى حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ورد ذلك الى الظلم التركى ، الذى تعرض له الوطن آنذاك .

ثم أفاض فى تصوير مظاهر الوعى واليقظة ، وأسباب النهضة التى نهضتها الامة العربية ، والتى قامت دعائهما على أساسين هما :
بمـث القديم وأحيائه ، ثم التزود من الجديد الذى حمله دعـاة النهضة وحمله مشاعلها من الرواد الاول .

حتى انتهت الى قوله : " فى غمار كن هؤلاء " ، وفى ظلال آثار من سبقهم بقليل أو كثير عاش أحمد أمين ، معترزا بآثار ثقافية مكتوبة وصلت اليه من السابقين ، واطلع عليها لدى اللاحقين والمعاصرين ، فكانت كلها مثل أصوات ناعمة ، وجدت صداها فى نفسه الكبيرة الواعية ،
فعلى الايمان بها كان يكتب ويؤلف ويدرس " .

(١) ص ٢٥ من مقدمة أحمد أمين .

"واننا نحن أبناء الادب الحديث ، نشعر ونحن اليوم في مرحلة من مراحل النصف الثاني من القرن العشرين ، أن تراث أحمد أمين قد دعم البناء الوطني والثقافي للأمة المصرية ، وأعطاهم ذخرا من المؤلفات الباقية على الدهر ، بما يضاف الى ثرواتها الفكرية والانسانية " .

وفي حديثه عن -حياق أحمد أمين- التي امتدت بين سنتي : ١٨٨٦ - ١٩٥٤ . أبان في وصف تحليلي دقيق ، عن أبويه ومزاجهما ونشأته الأولى بينهما ، وطبيعة الدراسة المكتبية على عهد - . مستقصيا ومفيضا ومعللا ، ومخالفا لما ذهب اليه أحمد أمين نفسه في كثير من الاحيان .

فمثلا أبدى أحمد أمين انتماضه الشديد من طريقة المعلم في المكتب وقسوته وعراقة وحمله تلاميذه على الشدة في كتابه - حياتي - الذي ترجم فيه لنفسه وحياته وأطوارها ، على حين نرى المحاسني يبدى إعجابه بهذه الطريقة ، التي بدأ بها كثير من النوابغ حياتهم الفكرية والثقافية كطه حسين وأحمد أمين (١) .

كما تتبع أحمد أمين في دراسته الأزهرية ، التي انتظم فيها وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وبين الراءى حد أفاد من علوم الأزهر وثقافته ، بيد أن رغبة المييش دفعت به الى أن يغير مجرى حياته الأزهرية ، فدخل امتحانا من أجل وظيفة تدريس في مدرسة خاصة بطنطا ، ثم نقل منها الى الاسكندرية ، وأقام فيها مدة ، عملت على نضجه وتوسيع آفاقه ، وفيها التقى بالشيخ - عبد الحكيم بن محمد -

(١) انظر : أحمد أمين ص ٢٩ .

وكان أستاذ اللغة العربية في مدرسة رأس التين الثانوية ، ويقول عنه أحمد أمين : " صحبته فكان مكملاً لنقصي موسماً لنفسي ففتحاً لأفقي ، كنت لا أعرف إلا الكتاب فعلمني الدنيا التي ليست في كتابه " .
" كنت خامداً فأيقظني ، وأعمى فبصرني ، وعبد اللتقاليد فحررتني " .

ثم عاد أحمد أمين إلى القاهرة مدرساً لمادة - اللغة العربية - في التعليم الثانوي ، ولكنه تحول عنه إلى الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعي ، التي افتتحت عام ١٩٠٧ ، فأتبع له أن يتلمذ على خيرة الأساتذة - كالشيخ محمد المهدي ، والشيخ محمد الخضري - والشيخ حسين منصور ، وأحمد نصر وحسين والي ، حتى تخرج فيها سنة ١٩١١ حاملاً على شهادة العالمية ، فعين مدرساً فيها حتى سنة ١٩١٣ ، ثم نقل قاضياً في محكمة أسبوط الشرعية ، ثم عاد إلى مدرسة القضاء الشرعي مرة ثانية وبقى فيها حتى سنة ١٩٢١ ، وبعد ذلك تقلب في المحاكم المصرية ، حتى استقر به المقام في كلية الآداب سنة ١٩٢٦ بالجامعة التي بدأت أهلية ، ثم صارت حكومية فيما بعد (١) .

ولقد صدر الحاشي الحديث عن عمل أحمد أمين وحياته في الجامعة بقوله : " لكن لم يتخرج أحمد أمين من الجامعة المصرية ، أو من أمثالها في الغرب كـ بعض زملائه وأنداده في عصره ، فقد خلق جامعيًا بطبيعته وطريقته وثقافته ، وفي إثارة الدراسة التي أحبتها وأجادها ليكون له منها ما حقق ألمه في علمه وعمله واتصاله بالتدريس والحديث في شؤون الفكر والتأليف (٢) " .

(١) ص ٣٥ وما بعدها من أحمد أمين .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ .

ثم شرح أسلوبه في التدريس الجامعي ، وأشار الى تمازجيه واحتكاكه بالأساتذة المستشرقين وأفادته من مناهجهم ومنازلهم ، كما بين أثر التدريس الجامعي في نمو ثقافته وعقله . بقوله : " وفتح التدريس الجامعي امام عقل أحمد أمين ووعيه الثقافي الواسع آفاقا جديدة ، هيبات تخطر له على بال في غير صحن الجامعة ، وأفادته دراسة المقارنة في اللغة الانجليزية والنقد الأدبي عند أساتذته وكتابته " (١) .

كما ألقى الضوء على المتاعب والمعاناة التي تعرض لها أحمد أمين أثناء تدريسه في الجامعة ، فلقد حيل بينه وبين الترقية ، لانه لم يحصل على درجة — الدكتوراه — ، ولما تقدم بكتاييه — فجرير الاسلام ، وضحي الاسلام — كرسالة من أجل هذه الدرجة العلمية رفض طلبه بحجة أنه من الاساتذة ، وأن المتحنيين قد يحابونه ،

ولقد أسندت اليه عمادة كلية الآداب في عام ١٩٣٩ ، فشغلته المادة عن نفسه وجهده في التأليف ، اذ كان المصير ثقيلا ، واحساسه بالتبعات العلمية والإدارية جملا فيها ذا رسالة إصلاحية . (٢)

ثم عرض لجهود أحمد أمين التي كانت منه في خدمة اللغة العربية ، وذلك أثناء عمله عضوا في المجمع اللغوي ، وقد تمثلت هذه الجهود في مشاركته في اللجان المختلفة الخاصة ببحث المسائل اللغوية والأدبية وفي مراجعته أعماله فيها وجده من خلالها مجمعا

(١) أحمد أمين ص ٤٢ .

(٢) بتصرف ص ٤٦ ، ٤٧ .

وفى سبيل ذلك تحدث عن جهوده الممجية المثلة فى عنايته
باللهجة المصرية المحلية فى فترة من حياته الفكرية ، حيث كان يتبناها
فى أشكالها ومفانيها ، ويرصدها فى أوراقه ، وقد أتيح له أن يجمع
منها طائفة كبيرة وأن يتصل بحياة الشعب وأدبه ، وما يتداول نسي
معيشته وحالاته من كلمات معبرة وفكاهات شائعة فى نكتة أو نادرة ،
فسجلها وصنفها وهو أشوق ما يكون الى ظهورها فى معجم سماه
" قاموس العادات والتقاليد والتماثيل المصرية " (١)

ولقد تحدث المحاسنى عن هذا المعجم ، ونقل فقرا منه ،
وناقش فيها أحمد أمين مناقشة سديدة ، أخذوا عليه أنه مال الى
المبالغة فيما قرره من أحكام .

منها - مثلاً أن أحمد أمين ، يرى نفسه أنه أول من ألف فى
هذا الموضوع ، وقد تشكك فى ذلك المحاسنى الذى ذهب الى أن
كثيراً من المؤلفين فى البلاد العربية ، قد مارسوا هذا الموضوع ،
ونشروا فيه مقالات فى الصحف ، ولكنها لم تجمع فى معجمات ، ففى
سورية والعراق والأردن ، ظهرت فصول وأبحاث فى الأدب الشعبى
الاقليمى ، المثل فى الحكم والأمثال والحكايات (٢) .

كما عرض المحاسنى كذلك ، لأفكار أحمد أمين البلاغية والأدبية ،
وعرضها عرضاً مفصلاً ، وناقشه فى كثير من أحكامه التى أصدرها
فى بعض القضايا البلاغية والأدبية . وأخذ عليه ، حاجة أحكامه الصارمة
الى إيداعها من براهين .

(١) انظر : أحمد أمين ص ٦٣ .

(٢) أحمد أمين ص ٦٥ .

ومن ذلك قوله : " ولقد جاز أحمد أمين على تراث البيان
المصرى ، حين صرح بأن لغتنا عاجزة عن الاداء الكامل فقال (ولكن
ما حيلتنا ، وقد خلقنا عاجزين لم تمنح لغة المواطف ، ولا بد لنا
من التعبير عنها ونقلها الى قارئنا وسامعنا ، لذلك استعملنا
لغة المقل مرغمين ، وأردنا أن نكمل هذا المعجز بضروب من الفن ،
كموسيقى الشعر من وزن وقافية وكل ضروب البديع والسجع ، وليس
القصد منها الا أن نكمل نقص الألفاظ فى أداء المواطف " .

ولقد عتب المحاسنى على مقولة أحمد أمين هذه بقوله : " وأحمد
أمين إنما يتكلم عن اللغة المصرية لا عن نفسه وكتابات جيله ، فيزعم
أن لغة العرب وصلت نقصها فى التعبير للماطفى بالمحسنات
البديعية ، وهذا رأى لا نجد له شائفا من الصحة ، حين نورد
البحث الى الكتابة والشعر فى عصور الاسلام ، بل اذا علوننا
الى شعر الجاهلية ، فأننا لانجد هذه الوسائل الفنية فيه كانت
عن عجز فى التعبير الماطفى ، فان أدب العرب وشعرهم يفيضان
بالمطافة وضروب مختلفات من أوسانها ، ولم يقصر الشعر المصرى
عن ابانة المواطف فى أبعد أغوارها فى الوجود " .

كما وقف وقفة متألمة ~~هــــــــــــــــــــ~~ قول أحمد أمين عن المقامات :
" مقامات الحريري والبديع أدب لفظ لا معنى ، قل أن تعثر فيهما على
معنى جديد أو خيالى رائع ، وهى من الناحية القصصية فى أدنى
درجات الفن " .

وقد عتب المحاسنى على هذا الحكم قائلاً : " واذا قبلنا من
أحمد أمين صدر قوله هذا ، فأننا لا نقبل بقيته ، إذ أن مقامات

الحريرى والهمدانى ، كانت فى زمانهم تمثل أدب تلك الفترة ، ولقد كان أدب المباسيين بعد العصر الرابع أدب لفظ ، فأعطاهم الحريرى والهمدانى صورا مما يرضيهم فى أدبهم .

أما تدنى فن القصة لديهما ، فانه لا يجوز لنا أن نطبق عليهم مقاييس نقدنا المعاصر فى الفن القصصى ، فلآثار القديمة والسابقة مقاييس نقد تلائم أحوالها وزمانها ، وأنا أذهب الى أن — الحريرى والهمدانى كانا السابقين الى فن قصصى رائع ، أكاد أعده نبعا لهذا الفن ، وهو يصلح الى ذلك أن يكون تحليلا ومسرحيا (١) . الخ

فانظر الى أى حد بلغ استقصاء المحاسنى فى تحليلات — هذه ، فهو لمحمد الى ضرب من الاحكام المجامل فيها ، التى يكون مبعثها سيطرة المواقف والاهواء على من يتصدى لتحليل شخصية ، ويترجم لها ويدرس سيرتها وأعمالها — كما فعل المحاسنى فى هذا العمل الادبى — ولكنه وزن الامور بميزان العدل والبحث العلمى الامين فأعطى الرجل ما يستحق ، وناقشه فيما لم يرصوا بالوجهه . وتلك ميزة العمل الادبى الذى استحق الاشادة والتنويه .

من عارفى قدره ، الذين أشادوا بهذه الميزة الفريدة فى بحوثه ودراساته ، يقول الكاتب وحيد الدين بهاء الدين — على أن اعتماد المحاسنى على الأسلوب الموضوعى ، وركوبه المركب الخشن فى بحوثه ، وان كان عملا صعبا يتطلب المثابرة والجلد ، فانه لا يتهاون فيه ، ولا يتعاجز عنه ، ولا يستهين به . (٢) .

(١) المرجع نفسه ص ٥٨ ٥٩ .

(٢) تحية وذكرى ص ١٠٢ .

ويقول الشاعر الاديب الباحث محمد عبدالنبي حسن : * * * وحين
يسلك الدكتور زكي المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف ، يذهب
مذهب الاعتدال والنزاهة فى الاحكام ، فلا يجور أو يبتسر الاحكام
أو يتابع فى الآراء من غير تحقيق ، ولكنه يقرأ ويحقق ويوازن ويوازن
ويحكم بعد اقتناع واعتقاد * (١)

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب - عرض المحاسنى لمؤلفات أحمد
أمين وكتبه - وقد مهد لذلك ، باطرائه على جهوده فى بحوثه ومؤلفاته
التي عدها ذخرا لحياتنا الفكرية الحديثة ومرجعا لا بد منه لمن
يؤلف فى مثل موضوعاته ، التي اتسمت بالصراحة والروية فى البحث عن
الحقيقة (٢)

ولقد أفرد المحاسنى لكل مؤلف من مؤلفاته صاحبه مبحثا خاصا
فى كتابه ، مفرقا بمنهجه وموضوعاته ومباحثه .

فبدأ بكتابه - فجر الاسلام - الذى عده مفتاح التطور فى
الدراسة الادبية الحديثة ، وقد بناء مؤلفه على التحقيق العلمى والتثبت
والتحصيل والتحلل الدقيق للحياة العقلية العربية ، تحليل لايس أقل
دقة من تحليل صاحب الكيمياء فى معمله (٣) .

كما استعرض المحاسنى كذلك النقاط التي احتواها الكتاب فى
محيط الحياة العقلية والفكرية العربية فى القرن الاول الهجرى وأبرزها :

-
- (١) تحية وذكرى عن ١٠٧ .
 - (٢) أحمد أمين ص ٧٠ وما بعدها .
 - (٣) أحمد أمين ص ٧٤ وما بعدها .

- (١) أثر الفرس في العرب •
- (٢) الخوارج وأثرهم في الحياة العقلية الإسلامية •
- (٣) المعتزلة •

وقد وقف على كل واحدة منها على حدة ، مستأنسا بما ذكره الدكتور طه حسين في تقديمه هذا الكتاب • وقد فرغ من تحليل هذه القضايا التي أوردها أحمد أمين في كتابه بقوله في معرض الإشادة بالقيمة الفكرية والأدبية لهذا المؤلف : " ... فهو قد قدم للأمة العربية بمجملها هذا خدمة لا تنسى ، وأعطاهم مصادر وثيقة منتقاة ، سبيلها مهتد وذات وضوح ، إذ ليس في صفحة واحدة من صفحاته ، قضية مخضلة ولا بحث غائم ، وإنما كان النور مشتملا على كل سطر من سطره ، وكل فكر من أفكاره " (١)

وعلى هذا المنهج من الدراسة سلك المحاسنى طريقه في تحليله كتابي : أحمد أمين - ضحى الإسلام ، وظهر الإسلام - فعرض لمحتواه ، وأشاد بقيمتيهما الفكرية والعقلية والأدبية ، محتكما على ما توصل اليه من نتائج قيمة عمادها الاثبات على مقدمات قوية •

فهو يقول مثلا عن كتاب ظهر الإسلام - انه من أجل كتب أحمد أمين ، لانه يجمل الأفكار والبحوث المتعلقة بطبيعة المعتقدات والآراء التي كان ينزع إليها كل فريق من أهل السنة والشيعة والمعتزلة ، وما تفرع من هذه الفرق حتى أصبح ميلا ونحلا (٢) •

(١) أحمد أمين ص ١٢٤ •

(٢) المرجع نفسه ص ٨٩ •

ولكنه خالف أحمد أمين فيما ذهب اليه من أحكام قضى بها
بعض كبار الكتاب والمفكرين ، من جهة أو تفسيره لبعض النزعات
والظواهر من جهة أخرى .

ففى كتاب - ضحى الاسلام - عرض أحمد أمين للنزعة الشموية
التي ظهرت فى القرن الثانى الهجرى ، والتي أطلق عليها " الاتحاد
التومى " لانها أداة الهدم فى بناء المروية على اختلاف عصورها .

ولقد خالفه المحاسنى فيما رى به الجاحظ من تلك
النزعة المقتوسة ، ورد ذلك الى تأثر أحمد أمين بما أثبتته السمودى
ونقله عنه - فولد زهيرريان - بأن الجاحظ هو القائل - النبط
خير من العرب -

وقد رد المحاسنى هذا الزعم بقوله : - " وأعجب كل المعجب
كيف أخذ أحمد أمين يقبل التهمة بحق الجاحظ من سبيل مشبوهة ،
جاءت بجملة واحدة من السمودى والمستشرق اليهود فولد زهير ،
ويصرف باله عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وثله بسبل
ويعتقد ان نصفه كانه على الشمويين والرد عليهم ومحاربتهم بأدفع
الحجج ، وكتابه - المعاد بالرد على الشموية - وهو هذا الجزء
الطريف من كتابه - البيان والتبيين - الذى خسر الرد عليهم
فيه بنصاعة الحجة والبالغة وبيان العرب ، وما يستعمل العرب
من ادارة فى الحرب والسلام .

وفى هذا الفصل أدلة قاطعة على تعرض الجاحظ لممارسة
الشمويين ، واسكات ناماتهم فى ديار العروبة (١) .

ومن مباحث هذا الكتاب التى نزع فيها المحاسن منزعاً
تخليلاً دقيقاً على هذا المنهج من الدراسة —

— أحمد أمين الأديب العالم — ، التحقيق والتعليق عند أحمد أمين

— النقد الأدبى عند أحمد أمين — تأثير أحمد أمين ومكانته .

ولقد أنهى هذه الترجمة التحليلية لحياة أحمد أمين وأعماله
وآثاره بقوله :

” كان أحمد أمين ذا تأثير كبير فى الدراسات الإسلامية الحديثة
وفى البيئات العلمية والثقافية لا فى مصر وحدها ، بل فى أنحاء
العالم الذى يعنى بمثل هذه الدراسات فى الشرق والغرب ” .

” وهكذا كانت شخصية أحمد أمين قد تمثلت فى كفاحه وطموحه
وفى رضائه وسلوكه وعزة نفسه وخصب جهوده ، ومآثره وقدرته على
التأثير فىمن حوله وفيمن عرفوه من قريب ومن بعيد ” (٢) . الخ .

(١) أحمد أمين ص ٩٨ .

(٢) ص ١٨٠ وما بعدها .

ب- عبد الوهاب عزام - في حياته وآثاره الأدبية

" واحد من الكتب النافذة المتكفلة برسم صورة بارعة لواحد من الرواد الراحلين من أعلام النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي ، مت له ذات يوم وأبان مرحلة من مراحل العمر بأكثر من آصرة أو سبب فاستكته طبيعته الشخصية ومزاجه النفس ، وقبس من قيمه الأخلاقية ومبادئه الإنسانية ، فترتب على كل هذه الاعتبارات والدلائل ، أن يجيء الكتاب محملاً بالوفر مفتنيا بالجدوى مسعفا بالنسبة لمن لم يطلع على آثار عزام الأدبية والفكرية ويعنى بتدريسها من قبل " (١) . الخ

يمثل هذه الكلمات الموضوعية الدقيقة استقبال القراء كتاب الدكتور زكي المحاسنى - عبد الوهاب عزام - في حياته وآثاره الأدبية - وهو من كتب التراجم الأدبية في آثار المحاسنى سلك فيسه صاحبه نفس المنهج الذى سلكه فى دراسة أحمد أمين والترجمة لسه ولاعماله ، ترجمة تحليلية عمادها الاستقراء والاستقصاء فى موضوعية وأمانة .

وصدوره بمقدمة طويلة صور فيها صلته بهذا العالم الأديب ، وكيف كان مفتونا به وآثاره منذ أن عرف الحياة الأدبية فى صدر شبابه .

(١) من بحث طويل نشره مهندس المبيدى الأديب المراقى ، يقرظ فيه كتاب المحاسنى - عبد الوهاب عزام ، فى مجلة الأديب عدد

يقول المحاسنى : " وقد استهوانا فى منازعنا وتجاربنا أدب عزام الذى كان يأتينا من ضفاف النيل الى ضفاف بردى ، حاملا صوت التراث العربى الاصيل ، وصورا من التاريخ ، الذى جمع بين مصر والبلاد العربية ، فكنا نزداد شوقا الى الحمى الذى أنهت عزاما ، وهتف من بعيد برسائله الفكرية والثقافية ، وتبمنا عزاما رائد الادب - والبيان فى مقالاته ، التى كان ينشرها فى " الرسالة " و " الثقافة " كل أسبوع ، وكأنه على البعاد من أساتذتى الذين علمونى فى دمشق ، وكان لهم فضل التوجيه فى حياتى الادبية (١) .

ثم يمضى المحاسنى فى تصوير تطور هذه الصلة التى ربطت بينه وبين عزام ، والتى توجت بتلمذته عليه تلمذة مباشرة ، يقرأ عنه أفكاره ويمس نظراته ويستلهم منهجه ، ويستوحى طريقته العلمية ، التى كان مصجبا بها الى حد كبير ، وذلك ابان مرحلة اعداده لدرجتي الماجستير والدكتوراه - فى الآداب من الجامعة المصرية تحت اشراف الدكتور عبدالوهاب عزام (٢) .

ولقد خضع المؤلف فى دراسته هذه لمنهج تحليلى دقيق ، حيث قسم الكتاب الى مباحث أبرز فى كل واحد منها جانبا من جوانب عزام على هذا الشكل :

١ - كيف عرفت الدكتور عبدالوهاب عزام ؟

٢ - عزام الاستاذ الجامعى .

(١) ص ٤ من مقدمة كتابه المذكور .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ٨ وما بعدها .

- ٣ — الدكتور عبدالوهاب عزام رائد الصروة وأديبها •
- ٤ — أدب الدكتور عبدالوهاب عزام •
- ٥ — عزام الصوفى وأدب الصوفية عنده •
- ٦ — مثنى عزام وشواهد منها •
- ٧ — النفحات •
- ٨ — الشوارد أو — خطرات عام —
- ٩ — ذكرى أبي الطيب بحد ألف عام •
- ١٠ — عزام جواب الآفاق •
- ١١ — محمد اقبال الفيلسوف الشاعر عند الدكتور عزام •
- ١٢ — بياض مشرق • (رسالة المشرق) التى ترجمها عزام للشاعر البلكىمستانى
الفيلسوف محمد اقبال •
- ١٣ — الدكتور عبدالوهاب عزام فى جريدة الوقائع •
- ١٤ — كتبه ومؤلفاته — •

وهذا التقسيم الذى جرى علينا المؤلف فى هذا الكتاب ، مما يحدد له فى أبواب التأليف ، ويجرى مجرى تنوعات فى عوالم التحليل والتاريخ اذ ما كان يمكن أن يكون عزام رائد الصروة وأديبها ، قبل أن يكسب عزام الاستاذ الجامعى ، ولم يمكن أن يكون عزام جواب الآفاق ، قبل أن يتفلسف أدبه فى النفوس ، أو أن تشمر به المقول (١) •

(١) راجع الكلمة التى قرظ فيها الاستاذ أبوطالب زيان هذا الكتاب

فى كتابه — تحية وذكرى عن ١٥١ وما بعدها •

لذلك كان الحرص على التناول بالترتيب من أول الخطوط ،
التي اتكأت عليها هذه الصفحات التي قارت الخمسين بعد المائة
بالقطع الكبير .

والتأريخ بهذه السعة والتحليل لمزام الجامعي ، قد جعل
المؤلف يفوس الى الأعماق في إبراز حسنات أستاذه ، كما فهمه هو من
مشافهاته الكثيرة ، ومحادثاته المتتابعة حتى كان التمرس بالمعرفة
الذي بان على صعيد هذه الصفحات ، والادراك البعيد لهذه
الاخلاق في أصولها ونبتها .

فهو يقول عن ثقافة أستاذه ومنبعها في هذا الصدد : " وكانت
طوابع أسلوبه العربية والاسلامية بارزة للعيان ، فكان لا يكاد يضيى
في موضوع حتى تتدفق عليه الايات القرآنية والشواهد الشرعية
والادبية من شعر العرب وشعر اقبال ، ومقالات اصحابه الصوفيين (١)

كما يتحدث عن حسن معاملته لالابه ودقته في توجيههم بقوله :
" وكان الى ذلك أستاذا جامعا عاوفا ، دقيقا في البحث والارشاد
في موضوع الرسائل الخاصة بدرجة الماجستير ودرجة الدكتوراء ، يشرف
على رسائل اصحابها بدقة وعناية ، ويهديهم السبيل في مصادرهما
وتأليفهما ، ويعيد ويبدى النظر فيها والتوضيح لنهاجها والتشديد
لخطى اصحابها " (٢)

(١) المرجع السابق ص ١٤ ، ١٥ .

ونجد أن فلسف المحاسنى شخصية عزام الجامع ، وألم بمحاسنها ومزاياها أمام التلميذ الذى أحاط بجوانب أستاذه ، واستقى منه عبارة فكره وخصائص منهجه ، وتصرف على روافد ثقافته .

تحدث عن عزام - رائد الصروة وأديبها - ، وقد مهد لذلك بوقوفه وقفة متأنية أمام النقلة التى انتقل بها الادب العربى من وضعه المضطرب ، الى وضعه الذى آل اليه فى عصر الرواد وفى مقدمتهم الدكتور عبد الوهاب عزام ، الذى مكنته ثقافته الواسعة العربية والفارسية ، من أن يكون طليعة من الطلائع وعلماء من الأعلام وركيزة من الركائز ، وهذا بالإضافة الى مزايا قلمه البليغ وعقله الناضج وعقيدته الاسلامية الراسخة وعروته القوية الاعيلة .

حتى انتهى الى قوله : " كان عبد الوهاب عزام من أديباء الصروة الذين بدأوا حياتهم الفكرية بالمقالات الداعية للتماسك والتعاون بين مصر والبلاد العربية فى كل ما يجرى الى خير الصروة واستمادة أمجادها .

وما أحسب كاتباً عربياً على ضفاف النيل تشلت فى حياته وأثاره خصائص الصروة وطوابعها ، كما تشلت فى حياة عزام وفى جهاده واثاره كما تجلت فى سلوكه وثقافته وفى رحلته وسفوفه الاسلامية التى كانت وراء سعيه وتثواه " (١) .

ولقد كان المحاسنى ولوعاً بمتابعة كتابات عزام ، التى استمدها موضوعاتها من صميم الصربية فى لحمها ودمها ، وفى يقظتها لاستمادة

(١) عبد الوهاب عزام ص ٢١ .

مجدها وتنمية خصائصها ، والتي وصل بها التراث بالمنتوج المعاصر
مع الحفاظ على مقومات اللذة والبيان •

وقد دفعه ذلك الى أن يشيد بكتابات عزام ، التي ترجمت
فكره الاسلامي والقومي ، وحبستها المجلات والصحف ، — لاسيما مجلتها
الرسالة والثقافة المصريتين ، — كما غنيت بها دروسه ومحاضراته —
في الأدب العربي القديم والحديث ، وفي بعض الآداب الشرقية
وخاصة الفارسية والهندية •

يقول المحاسنى : " وكأن الدكتور عزام كان موعودا ليكنون
أحد بناء العربية في العصر الحاضر ، حاملا أمانة رسالة من أجل
العروبة والقومية ، يوم لم يكن في الصيادين الا القليل من أمثاله
الذين سبغوا الى هذه الدعوة ، وارتجوا تحقيق الوحدة للأمة
العربية ، التي كان قد ألقاها التفرق ، وفث في عندها الخلاف
بدس الأعداء والمستعمرين " (١)

كما تناول المؤلف — : الدكتور عبد الوهاب عزام — بالمرض
والتحليل ، ورأى أن عزاما كان أديبا بمعنى الأدب الفنى ، يحسن
التعبير الى حد يبلغ الاعجاز ، بأسلوب الاوائل امثال عبد الحميد بن
يحيى وابن المقفع وأبي عثمان الجاحظ في نشر محكم وديباجة صافية ،
كما حصر أدبه في نطاق مجموعة البدائع النثرية والشعرية ، التي جاء
بها في مقالاته وتأليفه ، حاوية فن كلامه وطريقته ببيان
واقتراره الفكري واللغوي •

(١) المرجع نفسه ص ٢٤ •

ويتسم نشر عزام في رأى المحاسنى بالبالغة والحفاظ على
الجزالة في التعبير مما كان يتطلبه ذوق المثقفين في عصره (١).

ومن يطالع النماذج النثرية التي حفلت بها المجلات والصحف
من مقالات عزام وفصوله وخطراته ، والتي أورد المحاسنى طرفاً منها
في هذا الكتاب ، يدرك مقدار الوعي والذوق في تحليلها واستنباط
ما ترمى إليه من غايات قومية نبيلة ، وأهداف إسلامية جليلة ، وذلك
في قالب جزل فصيح وأسلوب فني بليغ .

على أن رأى المحاسنى في شعر عزام وموقفه منه ، ما يحمّد
له في ميزان المنهجية العلمية الموضوعية ، التي تنأى عن الزيف
وتبعد عن سيطرة الأهواء ، فيما تصدره من أحكام ، أو تهتدى إليه
من نتائج .

وتلك ميزة من مزايا المحاسنى في بحوثه ودراساته ، كما
وقفنا على نماذج منها في ترجمته لأحمد أمين وتحليل أعماله
ودراسة آثاره .

فهو يرى أن شعر عزام شعر تقليدي ، غلب عليه التنظيم
المحكم في أوزانه الخليلية وقوافيه وكان يقول ويصطنع تمبيره في
مواقف خطابية ، وفي تأثره بمشاهد الطبيعة ومواجد الروح وفي
رسائله الأخوانية ، وإلى بناته في رحلاته (٢)

(١) نفس المراجع ص ٣٥ .

(٢) انظر ص ٣٥ وما بعدها .

ثم أورد المحاسنى كثيرا من شواهد هذه الأغراض ، بصدد تعزيز رأيه ، الذى ارتضاه من غلبة النثر على أدبه الذى ذاع صيته فى — أكر ما ذاع فى شعره (١) .

أما مثنى عزام وشواهدنا ونفحاته وشوارده وخطراته ، والمامه بالآداب الفارسية ، والسبب الذى من أجله نقل — الشاهنامه — من الفارسية الى العربية مع المحافظة على معانيها الاصلية ، فقد شغلت صفحات كثيرة من هذا الكتاب .

وفى تناوله كتاب — ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام — للدكتور عبدالوهاب عزام ، الذى ألفه ليكون بحثا عن مصادر الدرس لتاريخ أبى الطيب ، تتجلى أمانته فى الدراسة وموضوعيته فى التحليل ونزاهته فى الحكم .

ولقد نبه فى هذا المبحث عن أهم المصادر والمراجع التى اعتمد عليها عزام فى استقاء مادة كتابه ، معرفا بدويان أبى الطيب وشروحهم المخطوطة والمطبوعة ، كما شجى منهج عزام وطريقته فى تلك الدراسة .

ولكنه غاب عليه خلوص صدره من كتب المحدثين ، ومنهم الدكتور طه حسين — زميل عزام — ، الذى كتب فى المتنبي مقالات كثيرة ، وله فيه كتابه — مع المتنبي — كما أنه أهمل كذلك دراسات كثير من المفكرين والكتاب المعاصرين ممن شغلهم أبو الطيب وشعره (٢) .

(١) نفس المرجع ص ٦٢ .

(٢) انظر ص ٢٦ وما بعدها .

كما أخذ على عزام كذلك أنه لم يحاول أن يقطع برأى جديد
في مقتل المتنبي، جازما بأن الفوس هم الذين حرضوا على قتله، وبعد
أن ودعهم وكرراجعا الى العراق، وقد قتلوه وتوزعوا أمواله في مكان
يدعى — دير الماقول — بظاهر بغداد سنة ٣٥٤ هـ. (١)

ومن المباحث القيمة في الكتاب — تحليل المحاسن ودراسته
— للشاعر — محمد اتبال (٢) — الذي انجذب اليه الدكتور عزام، وأولاده
عنايته، وترجم بعض آثاره الشعرية، معتمدا في ذلك على تمكنه من
اللغتين العربية والفارسية، واجادته للنقل وحساسيته بدقة اللفاظ
ووضوحها في مواضعها، التي لم يتطرق اليها الوهن أو يصيبها
ما يصيب المترجمين في كثرة الزحام والتحليل الذي عمد اليه
المؤلف في هذا الفصل.

وفي حسابان المحاسن، أن نقل هذه الآثار التي ترجمها
عزام الى العربية شعرا ومنها — بياض مشرق —، أي رسالة المشرق —
لو كان قد تم نقلها نثرا، لكان أسلم في باب الحفاظ على المعانى،
وضمن الشروح في لفظ من الألفاظ أولفته من اللفقات لكن الدكتور
عزاما قد ركب مركبا صعبا، سلخ فيه كثيرا من سنى عمره في ترجماته
للشعر الفارسي والهندي الى الشعر العربي، ولولا ما وهبه الله من توفيق
وسير ومقدرة لما استطاع أن ينهض بذلك العبء الجسيم (٣).

(١) المرجع نفسه ص ٨٠.

(٢) انظر ص ١١٣ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٣) عبد الوهاب عزام ص ١٢٨.

وقد ذيل المحاسنى كتابه هذا بنبذه عن حياة عزام ونشأته الأولى وثقافته وأعماله وتدرجه فى سلك الوظائف ، كما تحدث عن معارفه وأصدقائه وزملائه ، وقد كان يعمل به أن يأتى بذلك كله فى صدر كتابه ، كما فعل فى ترجمته التحليلية لاحمد أمين ، وأن يلقى مزيدا من الضوء على عصره وحياته الأولى وأطوارها ، جريا على المنهج التحليلى ، الذى يسلكه المترجمون للأعلام والمحللون لسيرتهم ولكنه طلع علينا بعلم شامخ متكامل الثقافة والمعرفة ، دفعه واحدة ، وكان أكثر تركيزا على تحليله لآثاره وأعماله مع أن عنوان هذا الكتاب كان يقتضى هذا الذى رأيت .

وان كان هذا لا يخفض من قيمة الكتاب الادبية والتاريخية فيما نرى وحسب مؤلفه أنه قدم الى التاريخ الادبى المعاصر ، واحدا من رواد النهضة وحملته مشاعلها . وعرف بترائه وآثاره وأعماله ، وقد أشاد بهذا العمل غير واحد من كتاب العربية وأدبائها فى هذا المصر .

ويميد فلا أزعج أننى وقفت على مؤلفات الدكتور المحاسنى وبحوثه ودراساته كلها ، لاسيما وقد تعددت منازعها وتنوعت موضوعاتها ، فى الأدب والنقد والتراجم والتاريخ والتربية واللغة — كما سبق أن رصدتها فى مبحث خاص ، ضمه الفصل الذى تكفل بالكشف عن حياته وأطوارها ، وانما حسبى أننى صنفت مؤلفاته الادبية كما استقامت لى على هذا ، المنهج السابق من الدراسة .

الباب الثالث

أدب المحاسنى

الفصل الأول - شمسره

الفصل الثانى - نثسره

الفصل الأول

شعر المحاسنى

ذكرت فيما سبق (١) كيف قامت دعائم النهضة الادبية فى سورية متأثرة بالنهضة التى نهضتها الآداب المصرية فى مصر ، لاسيما بعد الحرب الكبرى الأولى ، حيث نشطت الآداب بوجه عام ، وتعددت مدارس الادب واتجاهاته ، وقوى الصراع بين اتباع القديم وأنصار الجديد وتغلغلت التيارات الادبية الوافدة من الغرب على أثر الصحاحات التى جأر بها أصحابها ، مطالبين بتجديد الادب وتنشيطه ، حتى يقوى على التعبير عن خلجات منشئيه ، وتصوير مظاهر المجتمع الذى نشأ فيه .

كما قويت النزعة الرومانسية فى أدب المهجرين وجماعة الديوان ، واتباع مدرسة أبولو ، وظهر فيما بعد حركة أدبية جديدة فى العراق وفى مصر ، تدعو إلى هجر التقاليد الفنية الممقدة ، التى كبلت حرية الشعراء ، ووقفت أحجر عثرة فى سبيل التعبير عن ذواتهم ومشكلات وطنهم وقضايا أمتهم (٢) .

ورأوا أن التحرر من هذه القيود أقوى وسيلة للنهوض بذلك كله فظهر ماسى بالشعر الحر ، واجتذب إليه كثيرا من المروحيين له والمفتونين به (٣) ، وأن ظلت فكرته حائرة ، والدعوة اليه مضطربة لم تختصر فى أذهان دعاة بعد .

(١) انظر ذلك مفصلا فى بحث الحياة الادبية . وما بعد هان هذا الرسالة

(٢) انظر قضايا الشعر المعاصر لنازك الملائكة .

(٣) انظر الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث لمصطفى عبد اللطيف المعرتى

ولقد كان صدى هذا المدارس الادبية - شعرا ونثرا - فى محيط
الحياة الادبية فى سورية قويا ، حيث تأثر شعراؤها بها ، وانقادوا
لتياراتها والدعوة اليها ، ووجدت مدارس الشعر المصرى اتباعا لها
فى سوريا ، ينسجون على غرارها ويحذون حذوها •

فالمدرسة الكلاسيكية ، التى كان فى مقدمتها البارودى وشوقى
وحافظ والجارم وغنيم والأسمر وغيرهم فى مصر ، نجد صداها قويا فى
شعراء سوريا المحافظين مثل : محمد البزم ، وشفيق جبرى وخليل مردم
وخليل فيصل وغيرهم •

والمدرسة الرومانسية التى كان فى مقدمتها طهارة وشكرى والمقاتل
والمازنى وأبو شادي نجد لها صدى فى شعراء - عمر أبى ريشة وسدوى
الجيل والدكتور زكى المحاسنى وأحمد الطرابلسى وغيرهم •

والمدرسة التجديدية المتطرفة التى فى مقدمتها صلاح عبدالصبور
وعبدالمطلبى حجازى وغيرهما من المروجين لحركة الشعر الحر •

نجد لها صدى قويا فى شعراء نزار قباني وحسين أحمد كنيسة
الذى رثى المحاسنى بقصيدة من النسخ الجديد بدأها على هذا الشكل:

انى أتيت

فى ظهر يوم قد أتيت

انى أتيت يا أخى

ولذات بيتك قد أتيت

انى أتيتك زائرا

مشارع الخطوات جئت زائرا
بل حاملا نفسى اليك ... الخ (١).

وهكذا كانت مداوى الشعر فى مصر رافدا قويا ، وعاملا فعالا
فى تطور وتجديد الشعر المورى المعاصر ، كما نبه على ذلك كثير من
كتاب سوريا وأدبائها ، الذين سجلوا فى دراساتهم وبحوثهم هذه
الحقيقة الملموسة (٢) .

وليس معنى ذلك أن الشعر فى سورية قد اقتصرت ينابيعه
على هذا النبع الثرار وحده ، أو بقيت روافده مقصورة على ما تفجر
من معانى الشعر المصرى ومبانيه ، وإنما كانت هناك روافد أخرى
صبغت محيط الشعر فى سوريا ، الذى اتسمت قنواته
لتلقى هذه الروافد كلها ، دون أن تضيق عنها أو تعجز دون
استيعابها .

ومن ذلك ، أدب المهجر بنزعاته الجديدة وموضوعاته الحيوية
وأدب اللبنانيين بما طرأ عليه من جدة وتححر ، وأدب الفرنسيين
بما فيه من ابتكار وعشق .

كل ذلك وغيره ، قد أتى انطباعاته وترك بصماته ، على ما انتج
من أدب وما أنشأ من شعر فى تلك الفترة التى عاش فيها المحاسنى .

(١) نقلا عن شحبة وفكري ص ١٤١ .

(٢) نعى - أمثال - سامى الكيالى وسامى الدهان وزكى المحاسنى

ووداد سكاكىنى - انظر هذا البحث ص ٣٣ وما بعدها .

أضف الى ذلك هذا المامل القوى ، الذي تفجر من داخل سوريا وشقيقاتها ونمقى به مجموعة الاحداث والتقلبات التى مر بها الوطن العربى آنذاك (١) ، وكان لها عميق الأثر فى شعر تلك الفترة فى مبناه ومعناه .

ومعد هذا التصيد الوجيز ، الذى لم أربدا من الاشارة اليه ، فى صدر هذا الفصل ، نفرغ الى جوهر الحديث المفصل عن شعر المحاسنى وأغراضه ، وسماته الفنية .

فالمحاسنى شاعر ، ينظم الدر ويبدع القصيدة ، ويمسح عن خلجات قلبه وغمسات روحه وآمال امته فى شعر عذب الموسيقى حلوا النغم ، وقد تنانرت قصائده فى المجالات الادبية ، التى كانت تصدر فى القاهرة ودمشق وبغداد والرياض ، وكانت مجلة الاديب الفراء هى الاثيرة لديه ، يخصها بنفثات قلبه ، وفرائس شعره (٢) .

ولقد عولت عليها كثيرا فى دراستى لنماذج شعره — وتبيان خصائصه .

وشعر المحاسنى ، الذى والى نشره فى حياته ، قد امتدت اليه يده الكريمة بالجمع والتنسيق والتبويب ، اعدادا لجمعه فى ديوان مطبوع يكون فى متناول القارئ ، لكنه لقى به دون تحقيق هذه الغاية .

(١) انظر هذا البحث الفصل الاول من الباب الاول .

(٢) انظر البحث الذى كتبه عن أدبه وشعره الدكتور كامل السوافيرى فى كتاب

تحيتوذكروما كتبه عن الدكتور / عمر فروخ فى الكتاب نفسه ص ٢٥-٢٢

ولسل الله يهيمى* لمن يقوم بطبعه ونشره ، حتى نقف على كل
روائعه ، ويكون بذلك قد أسدى الى بنت عدنان مآثرة من المآثره
التى تذكر فتشكر •

ودراستى لشعر المحاسنى ، الذى وقفت على كثير من نماذجه
فى أغراض شتى سوف أسلك فيها هذا المنهج •

١- أغراض شعره •

ب- السمات الفنية لشعره •

(١) أغراض شعره — شعر المحاسنى فى جملة يمكن حصره فى
(١) الشعر الفنائى الذى ترجم فيه عن خلجات نفسه وكوامن
حسه ، وصور فيه عواطفه فى الشوق والوصف والتأمل والثناء ، ...
والاخوانيات ، التى كثر فيه كثرة مفرطة •

كما تناول فيه ، الترجمة عن المواطف الاسلمية والوطنية
والقومية والاجتماعية التى انغملت بها احساسه ، وتحركت لها خواطره •

(٢) الشعر الملمحى — الذى يعد المحاسنى واحدا من أبرز
التمصبين له ، والداعين الى انشائه فى أدبنا العربى المعاصر
كما كان شديد التحمس الى كتابة الملحمة العربية والاسلمية ، وقد عبّر
عن هذا الاندفاع بقوله : " وبعد أن أخذت الدكتوراه على دراسات
تتعلق بالملاحم والشعر الحربى والحاسى عند اليونان والهند وفارس
وفى مصر الحديث عند الأم الفربية •

وجدتني مندفعاً في اعداد الملحمة العربية الكبرى شمساً ،
فوقفت ليلي ونهارى عليها ، وبدأتها بالنشيد الأول عن واقعة
ذي قاربين العرب والفرس ، ثم تناولت في الجاهلية دامن والفبراء
وفروسيات العرب منحدرًا الى عهد الرسول عليه السلام ، فوضعت
تلك اليهود والفزوات في الفتح المبين ، الذي استجاب له محمد بن
عبدالله بوحى الاهى في رسالته العالمية .

وهكذا تناولت الممارك الكبرى ، التي ألفت المجد الأول للعرب
في عصر بني أمية ، وكان آخر ما بلغت منها وقعة اليرموك ، وان شاء
الله سأتم ما ألهمت اعداده لملء هذا الفراغ في أدب العرب ،
وان كان قد سبقني بعض الشعراء الى اعداد الملحمة ، ولم يكن
قد استوفى ما نشر منه شروط الملاحم (١) .

(٣) الشعر الاسطوري — الذي استلهم فيه المعاصني بمض
اساطير العرب واليونان ، واستوحى تجاربه من المقتضات
التي سيارت على شاعرهم منذ القدم ، وأودعه كتيبا (٢) قدم لـ
بقوله : " اننى لأضع في شعري هذه الاسطورة ، لتكون فاتحة لهذا
الكتاب الاسطوري ، الذي انشأته في أدبنا العربي الحديث ،
صورة مواتية في اللون والخيال والفكر ، نضحت أساطيرها من
الميثولوجيا الاغريقية مسكوبا عليها تأملًا وانطباعًا (٣) .

-
- (١) في الحوار الذي أجراه معه الكاتب العراقي جمال مهدي الهنداوي ونظمه
كتاب تحقيق ذكرى انظر في ١٢٩ وما بعدها .
- (٢) عنوانه — أساطير ملحمة — دار المعارف بمصر ١٩٢١ .
- (٣) أساطير ملحمة في ١٩ و ٢٠٤ .

(١) أما شعره الفنائى فتتمثل أبرز تجاربه فيه فيما يأتى :

أولا شعر الرثاء

يتسم شعر الرثاء عند الموهوبين بصدق الحرارة وقوة الوجدان ولوعة الماطفة ، كما يحمل فى طياته معنى الوفاء للصحب والخلان اللذين انحلوا عن الحياة ، وفارقوا الأهل والمشيرة ، من أضهم ألم الفراق ، ووقع الفجيمة وفداحة الكارثة .

وهو غرض من الغراض الشعرية القديمة ، التى حفل بها الشعر العربى منذ أقدم عصوره ، يصور فيه الشاعر عواطفه المكرومة وفؤاده الكظيم لفراق غال أو رحيل عظيم ، ولقد استحوذ هذا الغرض على كثير من تجارب المحاسنى ، الذى ذاق مرارة اليتيم منذ تفتحت عينه على الحياة ، وقد طابعه هذا الحادث المروع — بفقد والده — وهو ابن عامين ، بالهم الحزن العميق ، الذى جعل منه إنسانا رهيف الحس ، متوقد الشهور ، مشبوب الماطفة الى حد كبير .

تموت والدته وهو فى مستهل حياة جديدة ، أطل فيها على دنياه ، اطلالة القادر على المطاء ورد الجميل ، ولكنها تفجأه بفقد هذه الوالدة الحنون التى امتدت اليها يد الردى فاختلطت بها دون أن تقات من كسب يده ، فيسكب عليها دما هتونا ، ويحزن على فراقها حزنا عميقا ، ترجمه فى شعر حار سخين ، صور فيه مشاعره المتلوعة وعواطفه المحزونة بمثل قوله :

واسأل نفسي ما الحياة وما الفنا فألني الصدى نداء في لفظ سائن
تأوب حزنى واللىالى ملحمة بآلامنا والحرب ماجت بمائل
إذا القمر ازدان الدجى بضيائه سالنا وهل يخفى لديك بمائل

وفارق الاستاذ أحمد أمين دنياه ، فياسى عليه المحاسنى ، ويأسف
لفراقه ويترجم ذلك شعرا ينطق بمعانى الوفاء لهذا الاديب العالم ،
الذى خلد ذكره فى مؤلفاته الجليلة وأعماله العظيمة ، بمثل قوله (١) :

(أمين) ياروعة التاريخ فى رجل كأنه أمة مواجهة المــــدد
تصنف الراى فى الآداب حكيمه وتجمع النى من أرجائه البدد
من فجر اسلامه شمت منارته ومن ضحاها أناه الحق بالأيد
تقول آثاره لله ما صنعت أقلامه فى لىالى الدأب والجلد
لم يمن فى زخرف باللفظ مظلمه فسان تعبيره عن لعبة الفنــد
اسبغ بأفكاره من غير ما غسرق وأسعد بكتب رعاها الصديق بالسند

هذا الخيال وراء النفس يغمرنى فكيف أطلقه من سر ملتحد
ماحق فيك زوال جف مدممه وكم عزاء بلا معنى ولاصدد
قل لى - وتسمع من خلف الفيوب لفى ماذا ترى من فراديس ومن بلد
أجلس لك فى الارواح تمقده على حديث صفا أو بحث منتقد
أدر بسبحة طيب الحوار فمسا فيض الخواطر الا منك طوع يد

وتهيج ذكرى صديقه الشاعر - فوزى معلوف - خواطره - وتهز شاعريته

فيتخف من الرثاء بقوله من قصيدة طويلة : (٢)

- (١) من قصيدة طويلة بعنوان - طيف الامين .
(٢) نقلا عن كتاب - فصول من الثقافة المعاصرة - ٧٩ د . خفاجي .

لا تسلمنى اذا بلوت همومى أنا طيف الهوى وأنت كلومى
ربما همت فوظلال خيـال وضاح منى وراح خلف الفيوم
هوى لى على (زحيلة) فالليـال ينادى الى بنات الكـوم
نبض الماء بالسلاف قتل لـى أيما نشوة تبل رميمى
هى كهف للحب والشعر والانفسا م حتى شمار كل النجوم

عند فوزى فى الصمت فى الهيكل الدامس ماذا ترى به من وجوم
نظرات وراء معنى بلا لفظ يزيح الغيوب عبر السديم
كوكبا جئت للحياة وفـاد ت وحيا مثل الشهاب العظيم
نفذ الطرف واستجاب التنادى حين أبدعت خاليات الرسوم
ايه يا شاعر الاعالى سالـما فى جناحيك روعة التحويم

ومثل هذه النفحات كثير فى شعر الرثاء ، وتجاريبه الصادقة
الحارة ، التى انبعثت من فؤاد خفى والتاح على رحيل صاحبه
وأنداده ، من الموهوبين ذوى الملكات الذين أشروا الادب والفن
والفكر بترائهم الخالد وحسهم المتجدد .

ولم تقف تجارب المحاسنى فى هذا الفرض عند حد البكاء
على الشخوص الذين روعه فقدهم ، ولكنه انتقل به الى معنى قومى
واسالى جليل .

ذلك أنه نظر الى تراث الاسلام ومجد الصروة فى تلك
البلاد النائية ، التى عاش فيها الاسلام ورجاله التواقون الى الجسد

والصراقة والانسياح في أرجاء الدنيا ، ينشرون تماثيله ويتفننون
بسماعته ، وأعنى بلاد الأندلس — ذلك الفردوس المفقود — ففى
تاريخ العرب والمسلمين ، ففى ألبانها وبكى لها ، ونحن السامعون
آثارها وجمالها وروعها ، فى شعر طار حزين •

منه قصيدته — خذنى لاندلس — التى يقول فيها : (١)

يا بنت أندلس كرى بخادسرة	فخفق قلبك منهم فى دم سكبها
وأنت يافتنه الانظار طيف ندى	قد جال فيك من العبراء وانسربا
المين فيك بها كحل بأسوده	عيون غيد عراب رفرفت هدى
والقصر فى بهجة الحمراء آتية	أرواحه من خيام شدت الطنبا
فى أرض (قرطبة) لى مسجد عبق	بالطيب قرآنه مازال مقتربا • الخ

ومنه قصيدته (غرناطة) (٢) وقد جاء فيها :

حييت غرناطة وازددت أكوابسى	شربا على نخبها واهتجت احبابى
فقلت يا أخت أقوامى اما سبحت	لنا لقاء مشتاق وغيباب
يادار أندلس مارم فيك هوى	لكن ثرم قلبى بعد أو شباب
ألا يزال لمرب فيك منسجج	يروح بالروح من مسحور البباب
وهل صهيل خيول من معازكهم	تموج فرسانها فى طى أحقاب

(١) نقلا عن تحية وذكرى ص ٤٨ •

(٢) مجلة الأدب عدد ابريل ١٩٦٨ وهى قيد طويلى اهدادها المحاسنى

الى الاستاذ / محمد سرور الصبان •

أرى الصلى على التكبير ماثلة صلاته فرسايع بمحشراب
لا بد من روعة الذكرى لواصفها اذا تغنى فرجمع شراب ٥٠ الخ
ومنه كذلك قصيدته (أشبيلية) ٥ ومن أبياتها قوله :

وجدى بأشبيلية ابقى
عربية فى وجهها شبيهى
شاهدت آثار الجدود بها
خنت الى وطنى لتشفقة
قالت تمايل أريك مائسة
فأكم هواى وعاطنى صدقا
هلا رددت لها الهوى شرقا
وتركت أحجارا لما تلقى
والشام عطر أمية حقا
بلدى بها فى عصره يرقى

ساعود لا ألقى سوى حجر
تلك (الجيرالدا) وهى مرقدنا
فى برجها جرحى أضمدته
من قومى الماضين يستبقى
فى الأرض ليت دموعنا نسقى
جرحى ينوق قياسها عمقا (١)

وهذا اللون من الشعر الذى عمد فيه صاحبه الى ربط الماضى
بالحاضر ، وبيان علاقة كل منهما بالآخر ، تلوح فيه عاطفة الحزن
الصديق ، على فقد هذه المدن ، التى ألقى فيها الاسلام صبا
تسياره ، منذ عصوره الاولى ، وترنح فى ربوعها قرون عددا ، ولكنها

(١) تحية وذكرى ص ٤٩ ، ٥٠ .

ضاعت منه ، وضاع فيها ، نتيجة الخلف الشديد بين ملوكها وحكامها
الذين غرتهم الدنيا ، وفشتهم زينتها ، فألهتهم عن حراسة الاسلام
فى هذه المواقف المفقودة ، حتى كان من أمرها ما كان .

ثانيا - الاخوانيات :

واذا كان رثاء الذكور المحاسنى لمن ارتحل من اخوانه
قد تجسد فى شعر الرثاء الذى وجهه الى ارواحهم فى عالم البقاء ،
فان وفاءه الى أصدقائه ومن جمعتهم بهم وشائج الفكر وأواصر الثقافة
كانت أكثر تجسيدا فى شعره الاخوانى ، الذى أكثر من النظم
فيه كثره ففرطة ، الى حد خشى معه النقاد أن يصرفه ذلك
عن البحث الادبى الاصيل ، وأن يشغله عن الدراسات الادبيية
الرصينة ، التى قد تتضاءل أمام قيمتها العلمية هذه المجاملات
التي كان يوزعها الفقيد بكرم وسخاء .

فقد لاحظ الاديب الناشئ . حسين على محمد كثره هذه
الاخوانيات (المحاسنية) ، فوجه الى المحاسنى رسالة من خلال عام ١٩٧١
يقول فيها :

(فى كل عدد من أعداد الازهر الزاهرة ، تطالعنا بقصائدك الاخوانيات ،
بما تكرر فى احيان كثيرة ما سبق نشره - مثل قصيدتك الموجهة لميخائيل
نصيفة .

... اننا نتقدّر مقالاتك القيمة ، وبحوثك الشائقة في الأدب المصري
... فبالله لا تجعل الاخوانيات تناقض عليك .

والطريف أن المحاسنى الشاعر لم يخضب لهذه الملحوظة
التي أبدانها أديب شاد من شدة الادب في مصر ، ولكنه رد عليه
ردا جميلا ضمنه نسخة من كتابه (أبو نواس شاعر من عبقر) ، ثم
شفح الرد والكتاب بأبيات اخوانية ، يوجه فيها الكلام الى صاحب
الملحوظة قائلا :

حسين أنت جمعت الفضل قاطبة " محمد وعلى " فيه كالشهب
لسوف أترك اخوانية ذهبست بالوقت والفكر دون البحث والادب (١)

وأغلب اخوانيات الدكتور زكى المحاسنى صبوبة في القالب
الشعري ، وقد كانت سهولة النظم عنده ، ومداومة القوافي لـه
تدفعه الى أن يتخير لـاخوانياته الكثيرة ، هذا الضرب من الكلام
الموزون المقفى ، وهو متأثر فيه بشعراء المروية على مر المصهور
في شعرهم الاخوانى ، الذى احتل قسما ليس بالضئيل من دواوينهم

ولكنه في بعض حالاته كان يلجأ الى النثر من اخوانياته
وكثيرا ما كان يجمع في الاخوانية الواحدة بين النثر والشعر معا ،
وذلك كما فعل في رسالته الى البير أديب ، التي نوهت بها نفسى
مبحث سابق (٢).

(١) نقلا عن البحث الذي كتبه الشاعر محمد عبد الفتى حسن عن اخوانيات
المحاسنى ص ٢٨ وما بعدها من المرجع السابق .
(٢) انظر ص ١٠١ من هذا البحث .

ولقد تناول الشاعر الباحث محمد عبدالغنى حسن اخوانيات
المحاسنى فى فصل من فصوله الممتعة ، وأورد منها نماذج شعرية
وأخرى نثرية ، وثلاثة جمعت بين النثر والشعر (١) .

منها - رسالته التى بحث بها الى الشاعر الأديب عبداللـه
يوركى حلاق ، بمناسبة صدور ديوانه - حصاد الذكريات - ومنها
هذه الابيات : (٢)

يا حصاد الذكريات	أنت لملت حياتى
ايه عبدالله يوركى	أيا زين السـرواة
عشت ترعى " الضاد "	فى المزلى العرب الاباة
حلب الشهباء غنت	بأناشيد الرعاة
وكافها الخلد سيف	ماغدا فى الدائلات
ورواها القتبى	سيرة فى المحمونات

ومنها - رسالة بحث بها الى الشاعر اللبناني - هكتور خلاط - تضمنت
هذه الابيات :

أيا شاعرى هكتور يا بلسم الدنيا لشمره آيات تباد لنا النجوى
لك " الفرحة " الباقى منوها على المدى كأن ابتسامات الحداوظ بها تشرى
أيا مشعلا للحق والخير والوفى فديتك لو عمر بعمر أخ يفسدى

(١) ضمه تحقيق ذكرى عن ٢٨ وما بعدها .

(٢) مجلة لأديب عدد سبتمبر ١٩٦٩ .

ومنها اخوانيته الى الاديب الباحث أنور الجندى ، التى عرج فيها
على أكثر من أخ واحد على هذا النحو :

كيف عبدالفتى ذو الحسن اننا	لنراه أدينا العلامة
أنا شاهدته على قمة الاهرام	نسرا محلقا ، مقدامنا
شعره المبقري منحة الهيا	م يطوف البلاد ، يطوى الفأما
"وديع" أخو "فلسطين" كانت	لهفات منه تفوق الوثاما
فاحتوته ليبيا غريبا ، وحيدا	أين آدابه وأين الندامى ؟
وعلى النيل من جبابرة الجدد	هداة عرفت فيهم كراما
"فلطه حسين" عنيو (للمقا	د) قلبى لو استطعت مراما
حواذنا شمت " طاهر الجبالوى "	فأقره من مشوى ودسالما

وغیرها مقتطفات من أبياته الاخوانية التى أوردها عبدالفتى حسن
فى هذا الفصل .

وبين يدي من شعر المحاسنى حمود كثيفة من شعره
الاخوانى ، الذى كان ينشره فى مجلة الاديب البيروتية ، والسدى
وجهه الى كبار الادباء والشعراء والفنانين والباحثين منهم : السورى
والمصرى واللبنانى والمراقى والحجازى ، بل ومنهم كبار المستشرقين
الذين اعجبوا بالمحاسنى ، وترائه وأثاره وجمعتهم بهم صداقة
ومودة .

ولعل المقام هنا يضيق عن تسجيل كل هذه القصائد الاسوانية
 لاسيما وقد اتسم بعضها بطول النفس وتدقيق الشاعرية • فلنجتزئ عنها
 بأبيات منها ، في معرض التدليل على سيادة هذا الغرض الشعري
 على تجاربه •

ويكفى أن نطلع القارئ فقط على بعض ما كان يبحث به السوي
 اخوانه من تحايا شعرية في أخريات عيانه ، وحفلت به مجلدة
 الاديب على هذا الشكل :

- ١- قصيدة الى الشاعر فؤاد الخشن - الاديب عدد يوليو ١٩٦٧ •
- ٢- قصيدة الى كوركيس عواد - الاديب عدد أغسطس ١٩٦٧ •
- ٣- قصيدة الى زعيم النهضة الفكرية الاستاذ الكبير محمد سرور
 الصبان الاديب ابريل ١٩٦٨ •
- ٤- قصيدة الى الشاعر الكبير ، الصديق القديم عادل الفضبان
 الاديب يونيو ١٩٦٩ •
- ٥- الى نظير زيتون الملقب بديك الجن الاديب ١٩٧١ •
- ٦- الى الشاعر المراقى هلال ناجي الاديب ١٩٧١ •
- ٧- الى ميخائيل نعيمة الاديب ١٩٧١ •
- ٨- الى سامي الكيالسي الاديب مجلد ١٩٧١ •
- ٩- الى فاضل السباعسي الاديب مجلد ١٩٧١ •
- ١٠- الى الشاعر المراقى عبد الخالق فريد •
- ١١- الى الشاعرة لبنانة هدى البير أديب •

- ١٢- الى أم كلثوم - مجلة الأديب عدد أكتوبر - ١٩٦٨ •
١٣- الى القاص الكبير الأستاذ يوسف السباعي مجلة الأديب
عدد - فبراير - ١٩٦٨ •

وهذا فقط ما وقعت يدي عليه من قصائد اخوانية ضمتها -
مجلة الأديب التي تعد مصدرا رئيسا من مصادر شعره ، السدى
تتأثر في المجلات الادبية • وكم كان بودي أن أثبتها ، لولا
ضيق المقام - كما ذكرت •

وهذه نماذج من هذا النثرى الشعرى ، الذى حفل به
المحاسنى فى شعره الفنائى : -

فمن قصيدة له الى سامى الكيالى (١) نجتزئ منها بقوله :

لاجلك افتدى حليبا	وأثر فوقها الذهبيا
بشعرى كل عجيذة	تنافس ماعز أريبا
وما سميت الشهيبا	• لولم تطلع الشهبيا
فيا (كيال ياسامى)	تكيل العلم والأديبا
وردنا مجدك الريبان	ما فاق أو نسبيا
مجلتك (الحديث) غدت	لنا البستان والطربا
نفرد فوق دوحتهما	ونحى منك فوق زينا • الخ

(١) مجلة الأديب مجلد ١٩٧١ •

ومن أخوانيه له — الرام كلثوم ^(١) فنانة الشرق الراحلة يقول المحاسنى :

يا "أم كلثوم" خل الحب يرعانا	أنت التى قد جمعت الحب نجوانا
غنيت فى الدهر آلام الفراق ممنا	يلقى المحبون أسقاما وأشجانا
فقلت آه ، ورد الآه كل فتى	يرى غناك له نغم وسلوانا
قالوا بصوتك صاح العندليب فان	شقشقت فيه بدا فى السمع مفتانا
وقيل أسطورة "أورفى" حوانك بها	فكنت من عبقر صوتا وألحانا

لكن أقول وغنى الله يشملنى	فمنه صوتك قد وافات رحمانا
بنت الخلود وأخت الدهر هات لنا	مد يد عمر لنحيا فيك أزمانا
هل كان عيسى به عهد اليك فلو	غنيت أهل البلى أحييت موتانا
من عهد آدم كان الصوت آسية	تأسو الجراح وتعطى الروح ندمانا
يروق الكائن من خمر معتقة	قد راح فيها أخو الأزال سكرانا

يارب وجد غلاقى صوت منسلده	فنبه النجم حتى بات يظاننا
أنت جنية من عالم بعسدت	منه اللقأت حتى ضن حوماننا
أم أنت انسيه تهفو بشائرها	على السنين وتلقى الناس تحناننا

(١) كانت قد ألفت بمصر لجنة من الشعراء لانتقاء ملحمة تكتب عن الرسول

صلى الله عليه وسلم — لتكون نشيدا تنشد أم كلثوم ، وقد وقع اختيار اللجنة على النشيد المباشر — نجم أحمد — من الملحمة المربية الإسلامية التى كتبها الدكتور زكى المحاسنى وقد وافقت أم كلثوم على انشاء هذا النشيد — فكتب اليها المحاسنى هذه القصيدة وهى طويلة ونشرت

فى الاديب — عدد — اكتوبر ١٩٦٨ •

أطربت عالما حتى لقد نزلت في كل أذن نجاوى منك مكانا
ووافقت في الشرق مثل الشمس مشرقة وكوكب الشرق قد سموك اعلانا
ورحت للغرب فاهتاجت مسامره لكى نرى نجمك الوهاج مرانا .. الخ

وقد صور المحاسنى فى كثير من اخوانياته مذهب الادبى ، وطريقته الفنية ، التى حملت سمته ، وترجمت عن شخصيته ، كما عبر فيه احيانا عن وطنيته العميقة ، وايمانه القومى الراسخ .

فمن قصيدة له الى — الشاعر فؤاد النشنى (١) انبثت من أعماقه هذه الممانى :

قل ماتشاقى الشعر وانسج به قوافيا واسكب ندى خميره
ماقيمة الاشعار ان صاغها النـ ظام فى المحبوك من صخره
حاول بتجديدك أمثلة لعلها تصلح من أموره
" فؤاد " ياخفاق فى شعره ناقوس حب دق فى صدره
من بعد شوقى ما أتى شاعر فمن يرد الفن فى قدره ؟
كبت والعرب يجيشونهم — حريا تدك الخصم فى غدره
فيا الاله الكون حقق لهم فوزا عظيما بجل فى نذره

ومن قصائده الاخوانية ، تلك التى أعداها الى " الصديق القديم " المستشرق العظيم — جاك بيرك بكلية فرانسة ، بجامعة السوربون " (٢)

(١) مجلة الاديب عدد يوليو ١٩٦٧ .

(٢) مجلة الاديب عدد مارس ١٩٧٢ .

ومن أبياتها قوله :

أفديك يا جاكى وانى لك الحاكى	وقيدنى المهورى لديك بأشراك
تظل ضفاف النيل ترعى لقائنا	على رفرف الذكرى بأذكارساك
نذرنا لاسفار نداوى سطورها	شبابا وعمرافى وسيلة هلاك
اذبنا سراج البرق فوق متونها	وراحت حواشيها لمين بفتاك
نؤلف كتبنا من سوانح عقلنا	قرائعنا فيها ترمى بدممك
وخاضت بنا الاقدار فى خوض ممرك	فياليت أنا ما أبهنا لممراك
وماذا أفدنا بعد طول تجلدد	سوى حسد الحساد فى درب أشواك
ايبكى على ما فات من حول قسوة	تهاوت لدينا عند موئلنا الباكي ؟
اليك سلام الود " والسين " هادر	وفابردى للحب فيك بنسراك
فياعين " برك " يا تحية أنسنا	عليك سلام الله رف بممراك

وقد عبر الشاعر فى هذه الاخوانية ، عن ثقافته وتأثره بالمستشرقين ،
فيما نفع من ثقافتهم ومنهجهم ، كما ترجم عما يؤرقه من حسد الحاسدين
ووشى الواشين ، وأشاد فيها بنبع ثقافته ، وعظيم أعماله الادبية ، ومنها
فن الملاحم .

ومن هنا تكمن القيمة الفنية والادبية ، لهذا الفرض الشعري
الذى مازج فيه المحاسنى بين عاطفة الولاء والوفاء لاهوانه ، وبين
عواطف القومية ، والنزعات الادبية والانسانية الاخرى ،

ثالثا - التجارب الوصفية - ومن الموضوعات التي حفل بها
الشعر الغنائى عند المحاسنى الموضوعات الوصفية ، التي تعكس
انطباع الشاعر ، ازاء مشهد من مشاهد الطبيعة ، وتصور انعكاس
صداها في وجدانه وأحاسيسه .

ولقد ترنم الشعراء كثيرا بوصف ما يشاهدونه ، في الحياة فأكثروا
من وصف أريج الازهار ، وتفتح البراعم ، وخير المياه ، والحيوان
الطيور ، في فصل الربيع مثلا ، كما وصفوا ما وقمت أعينهم عليه من
صحراوات وجبال وبحار وأنهار ، وغير ذلك من عناصر الطبيعة ، حتى
اقتزج الشعراء الرومانسيون في الطبيعة وسورها شخوصا تعقل
وتشعر وترضى وتغضب وتشقى وتسمد (١) .

وأكثروا من شعر الطبيعة الممير عن هذه المبادئ وتلك الاحاسيس .

ولقد كان للمحاسنى جولات ورحلات ، طويلة في بلاد الشرق
والغرب ، اتاحت له الاطلاع على كثير من روائع الآثار ، وعجائب الديار ،
كما مكنته من مشاهدة بعض الكائنات الطبيعية التي انفعل بها حسه
وتحرك لها خاطره وجاش بها وجدانه في شعر وصفى جميل ، بهت تأماته
وانطباعاته .

(١) انظر : جماعة أبولو للدكتور / عبدالمزیز الدسوقي ، وانظر : الرومانتيكية

للدكتور / محمد غنيمى هلال ، - جولة في الشعر العربي المعاصر -

لابراهيم المريش . ومعالم النقد الادبى للدكتور عبد الرحمن عثمان

ع ١٨٧ وما بعدها .

وهو وان لم يسلك فيه ماسلكه الرومانتيكيون ، الذين مازجوا
بين الطبيعة ومشاهدها وبين ذواتهم ، ولكنه على أى حال يسلكه
فى عداد الوصفين من الشعراء ، الذين عبروا بالصورة الادبيّة
عن تجاوبهم ازاء هذه المشاهدات .

ومن نماذج شعره فى هذا الغرض قصيدة له فى وصف -
بحيرة جنيف بسويسرا - (١) بدأها بقوله :

ديار الصفا والانس برالمجاهل تملك قلبا من مقيم وراجل

ومنها :

أنتك والايام تهجر زهرتى	فأظلمتها عند الريح المواعيل
أنا النقى هامت فى البلاد شريدة	تود لنا الاحباب دون عوائل
فرائى على رف النسيم بروضه	ازاهيرها تصفى لشدو البابل
وغيد اماليد كهيئة خلقها	نسيج الهوى فى مشيها المتمايل
يبادلها العشاق تقبيل واله	بخير رقيب فى ظلال الخمايل
وقفت على "ليمان" يضحك بحرها	وقد أهدقت فيه صفوف المنازل
امراة جن نمن الافق وجهها	كأسطورة أوفت على سحر بابل
أم القوم فى زهو النعيم بسورق	يطوفون فيها بين شاد وهما زل
ومظفرة للماء يعلو وثوبها	الى الجو وسط البحر ابداع هائل
اراك عمود الماء يسكب فيضه	على نفسه كالمستحم بوابل

وخلتك * سيرين * البحار تبدلت زلالا وأرخت شعرها في الفأشال
وشلال أنغام يردد لحنه حضارة انسان سما في التكامل

وهو لا يكفي بهذا الوصف المجرد الذي جسد فيه النانورة في
تصوير حي بديع الظلال والاشكال ، بين القسمات والالوان ، ولكنه
عمد كذلك الى تصوير أثر البحيرة في نفسه ، وأعماقه وروحه مبینا
ما بینها وبين نفسه من مشابه ، على هذا الشكل :

رأيتك من قرب ورقرت صبوتى عليك وقد نولتني خير نائل
فأشسرت برد الروح فيك علم الظما ومنيت نفسي منك في حلوا المائل
فيا ليتني أطوى الشهور مجادرا لرباك انضوا لهم عن ضعف كاهل
وثبت كمرى حين لم يبلغ المدى فماد كسيرا في الوغى المتواصل
تشابه فينا الصبر والكرو والمنسى كالانا على الآمال غير مزاييل
ولا بد في درك الموالى من المنا فلا تقطعى عنا وسيلة آمل... الخ

ومن تجاربه الوصفية التي مزجها بتأملاته وخطراته الذاتية
الوجدانية — قصيدته النجوم (١) — التي يقول في مطلعها :

حار طرفى والنجم يعرض نفسه يتلالى على مطاف الدجنىه
أعيون تطاح الأرض هديبا رف فيها الفتون بمشقه
كان نهر الوجود ظمان حتى شرب الليل فتنة بعد فتنة

ومن أبياتها :

يخفق النجم مثل قلب ولكن مارماه الاسى ولا ذاق حزنه

يا مبال الأرواح والسحر والشعر خفاها الى حاك صمدننه
(١) نقلا عن مجلة قافلة لزيت السمودية.

ياحناني الذي تأيت وغسيت	قبرك الريح بعد تسكاب منزله
أنت كالنجم خالد تتسراى	سفراتى عليك مهما يضعنسه
ايه ياليل يانداه الاغانى	ياستارا أرى الدارارى نسجنه
سبقتنى الأعراب تلقاك هديا	فوق قفر والنوق فى الليل سرنه
أنا ضيعت فى بواديك حبسى	وبواديك وحدهن عرفنسه
ربما حار فى السماء كتجم	لا يرنى على المجرة لونه
زهرى فى الساء لاح وفى الصبح	فياليتنى أطاول غصنسه

وله فى هذا الفرض قصائد من الوزن الخفيف - حفلت بها مجلة الأديب - منها فى وصف - الالم المظلم (١) - قوله من تصيدة طويلة تحمل المنوان السابق :

مطلق قيده الحكم	جار فى الحب واحتكم
شمره نجمة السدى	حير الشهب فى الظلم
من قوافيه نميمة	أنفشت خالى الرمم
كت فى الدهر مثله	راديانى من المدم
منبتى فى سفوحه	وهو يختال فى القمم
يا منونا راتهمسه	خلف جفن من الشمم
غلغل النفس لحنسه	فى ضياع من الشيمم

(١) اسم لديوان شمرى - لألبير أديب - مجلة الأديب مجلد ١٩٦٥

عذب قيثاره شـدا حزنا يقدح الحـمم
كان حينا على الهـمم وهو أسمى من الهـمم
جاذبتنى حروفـه وهى فى موئل الذـمم
نسل المجد عـزه فى عزيز من الأـمم
يا عظيما مؤالـما ولقد يعظم الأـمم
عقريا خلقت لا تدح الشعر والقلـمم

رابعاً : القومية والوطنية :
=====

فجرت الاحداث القومية والوطنية (١) ، التى مر بها الوطن
المصرى فى حياة المحاسنى - بركان شاعريته وأثارت حماسه فترجمها
شعر ابلغا ، حمل مشاعره القومية والوطنية ، وصور عواطفه التى
جاشت بحب الوطن ، والدفاع عنه .

وقد بين فى هذا الشعر القومى ، أهمية النضال وحمل السلاح
فى مواجهة الاحتلال ومقاومة الاستعمار ، الذى فرد أطنابه على ربوع
الوطن المصرى من محيطه الى خليجه ، واستحث فيه أبناء الوطن على
شحن الهمم ، وشحن النفوس ، بطاقات قوية من البأس والعتاد وقوة
العزيمة ، حتى يتأتى لاشمهم النصر ، وليكن لهم فى ماضيهم المريق ،
وتاريخ كفاحهم الماضى ، خير الهام ، وأقوى رباط ، يصل الحاضر

(١) انظر هذا الاحداث فى الفصل الاول من فصول الرسالة .

بالماضى ، ويمهد لبناء مستقبل مشرق ينعم به الابناء ، بميدا عن
غل الاستعمار وشبحه الرهيب .

كما أن فى شعره القومى كذلك اشادة ببطولات الفايدين ممن
دخضوا أعداء العروبة والاسلام فى شتى عصور التاريخ ، وردوا كيدهم
فى نحورهم حتى ولوا صاغرين .

ولقد صورت قصيدته - فتاة الجزائر^(١) - هذه المعانى كلها ،
ولنستمع اليه يصورها فى بيان رصين ، وشاعرية متدفقة : يقول :

أيا جارتا فى ربي المغرب	حنانا لهجرك فى المطلب
تبئين من فوق حد السلاح	وما نمت فى مصرك الغيهب
أبصر زندا على مقبض	يدير الرصاص على الأجنبي
تحرى وأين أساوسه	غداة القدا والردى الطيب
وفى العين لا كحل ولا للنحور	بريق من الفاتن المذهب
هى الحرب من أجل حريسة	ولم يك فى الحرب من ملعب
أبابة الجزائر عما غدد	ستحيون فى الشرف الأرحب
فما نيل حق لدى غاشم	بخير الدما والفنا الملهب

(١) مجلة الأنبياء - عدد ١٠ - فبراير ١٩٦١ .

ولقد أشاد في هذه القصيدة ، بصمود السوريين أمام وطأة المحتل
الفرنسي الذي تعرضت له سورية ، حيث قذفها الفرنسيون بجحيم لهيبهم
وشنوا عليها غاراتهم الوحشية المدمرة ، ولكن شمع سوريا البطل صمد
أمام هذه المبادئ • التي ألت به حتى ظفر بحريته واستقلاله •

يقول المحاسني :

سلكنا المبادئ من قبلكم وقدفنا من الجاحم الصيب
وحين تطيف بنا الذكريات نفى على سائح المشرب

ثم يستنكر المحاسني في هذه القصيدة في اياه وشم أن تنال
أمة الضيم ، أو أن تسام الخسف ، ولها ماض عريق في البطولة والفلاح
يحفظها من اليأس ويعصمها من الخضوع والاستسلام ، لجبروت الاستعمار
وشبح الاحتلال •

أمتنا بمد فتح الدهور	تهان وتحيا على محطسب ؟
يساجلنا الغرب حرب المنون	نقلت يداه لذي الحسب
لقينا بزنتة في حربهم	هجوماً وقد راغ في المهرب
فتلك الثغور روت بأسنا	لدى سيف دولتنا المهرب (١)
وحط الفرنجة في شطنا	جموع الغزاة ولم نرعب
فراع على القدس أشلائهم	يموجون بالموت في موكب (٢)

(١) في هذا البيت اشارت الى حروب سيف الدولتخ البيزنطيين وانتصارهم عليهم
في معارك الثغور •

(٢) اشارت الى حروب الصليبيين ، ونصرهم عليهم بقيادة صالح الدين
الايوبي •

وفى بورسعيد أذيقوا الشنار فأبوا بعاقبة الاخيـب (١)

فتاة الوغى اعصى بالخطوب فانك نسل الفتى اليمرى
أبنت الجزائر درب النضال يتيه بأبطاله فاتمبى
وأوراس تزحم فى الخالدات جبين النجوم فالترهبى
لملحمة العرب صيفى الشيد ومن غس دم الشهدا اكبى
وفى غمرات الفداء اذكـرى الاهك واعتصم بالنبى •

ولم تقتصر تجارب المحاسنى القومية على شمر الوطنية والنضال
الذى يذكى النفوس المناضلة ، ويمد الابطال المقاتلة بغيض شـمورى
قوى ، ولفحة بطولية حارة ، ويحث على الاستبسال والصمود فى
منازلة العدو ومقارعة الخصم كما هو الشأن فى هذا اللون من الشعر (٢)
وانما كانت له تجارب قومية ، مبعثها الاعتزاز بأجداد الوطن
المربى كله ، وبالتراث القومى لهذا الوطن •

واذا كان شمراء المربية فى مصر ، قد تغنوا بسورية ونهر بردى وحضارة
الامويين فيها ، كما فعل شوقى وغيره (٣) .

(١) اشارتالى المدوان الثلاثى الفادر على مدينة بورسعيد الباسلة ١٩٥٦

ثم هزيمته امام المقاومة الشجاعة التى ابدتها المصريين •

(٢) انظر - شمراء الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ، وخمسة من شمراء الوطنية
فى مصر للقيف من الكتاب •

(٣) اشارت الى ديوان شوقى فى شعره القومى ، وانظر نفاذ من هذا اللون

فى كتاب الامتيازات الوطنية فى الادب المصرى ، الفدائى بورسعيد
محمد حسين •

وانظر قبلة القومى فى كتابى : الفدائى المصرى ، الفدائى المصرى

فان المحاسنى قد تفتى فى شعره بمصر وخضارتها وآثارها
وتراثها الفرعونى ، الذى يشهد بمقامتها ، ويشيد بدلائل الفن
والمضارة فيها .

وذلك فى قصيدته الرائعة عن — النيل — ، التى تدل على تغفل
الروح القومى فى نفس المحاسنى ، الشاعر العربى الاسلامى الاصيل •

ومن أبيات هذه القصيدة قوله :

يا عروسا فى ودها أطلسى	هى أسى من الخلود وأغلى
حلف الدهر مبدعا لبهاها	أنه لم يمد ليدها مثالا
يصبح الصبح بالمحاسن عينيها	وفيض الجفون قد كان كحالا
هل رأيت الأهداب ضفة نهر	تتلاقى قتما الشطوطا
أفتدى الأزرق المحدث فى الاف	ق عميرا جرى وأترع نهلا
أيها اللحظ من عميق التواريخ	مخ تطلعت والزمان تجلى
وكتاب الآباد يبرز فيه الحبر	ف قد شمع بالنجوم مطسلا

ومنها قوله :

وأطلت على صباى غوان	ناشرات الشمور تهتز دلا
بقدود هيف وسمرة وجوه	وفتون يجتاح جزءا وكلا
يا صبايا فرعون كتتن فى الصر	ح عرايا والرقى يخلب فتلا
فرمى الساحر البديخ هواكن	على النيل وهو أطرى وأحلى

فطلمتن في النخيل ندايا	غانيات تنفحن عطرا وظلا
تتمرين كل صبح ومسى	بمرايا من الطبيعة تجلسي
وعلى مسبح النسيم حبيب	ظامي* عب من حماك وظلا
ووفاء للنيل كانت رعا بيب	لا عماق حبه تتدلسي
فاغى بالخير كل عام فسودت	كل حسناء عنده تتسلي
وراء* " الشوقي " مثل النجاشي	فتفنى في نهله وأغلا
باركته دنيا السروية والاسـ	لام فازداد عزة وأغلا* الخ

وفي شعر المحاسني القوي ، يبلغ اعتزازه بتراث العرب ومجدهم وتاريخهم البطولي مبلغه ، وفي أندلسياته ، التي يكن فيها الاندلس ومدنه ، وشعر على فقدائها وخروجها من أيدي العرب والمسلمين ، مما يؤكد هذه النزعة ويقوى ذلك الانحساس عند المحاسني الشاعر القومي .

(١)

ومن نماذج ذلك في شعره قوله في قصيدته — غرناطة —

خذني لتهدأ أعصابي الى نزه	في صدر (غرناطة) تحلوا لجنب
الى قصور بناها العرب واخرقة	ماست بها غانيات بين أسراب
واعطف على جنة (الحمراء) ملهقي	بالشمر تنفحن وحيما يتسكاب
صحن الاسود يصب الماء منهما	أشداقها فيه من معسول وهاب

يا من عرفت (ابن عباد) ونكتته هذا جزاء الذي يعنى بكذاب
تلك التصور غدت أنفوان متحفة الى الحضارة قد منت بأصلا ب
أهلوك أعراقهم تسرى بمثل دمنى فلست عندهم من قوم أغراب
فاشرب لذكر بلاد كان ساكنها قومى وارفع يدا فيها بأخساب
(غرناطة) يامحيا السحر فى بلد جنات عدن به حفت بأغساب
عليك منى سلام الشام طاب به نفح الرياحين من جنات طيباب

خامسا - النزعة التأملية : وتبدو فى شعر المحاسنى بعض
النزعات التأملية التى تصور فلسفته فى الحياة ونظراته اليها ، وهى
فلسفة الايمان بالواقع ، وضرورة الشقاء من أجل الحياة ، والمعنى
الدلّوب لتحقيق المعيش الحرة الكريم ، بمعنى أنه لم يعلن تبرمه
ونيقته من الدنيا ، كما أعلنه قوتومرد صريح شاعره الاثير ، أبو العلاء
المصرى ، الذى تشام من الحياة ، ويرى من الوجود وأنف من الناس
راضى بالمجتمع ، فاعزله ، وعاش وحيدا فى عزله ، وراح ينتقد
مجتمعه بكل فئاته ومظاهره ، بعد أن غلب عليه الزهد وتأفف من
من المعيش ، ومن الشراء من تشام من الدنيا وأنف من واقعها
المر ، وتمرد عليه ، بالتهالك على الشراب ، والافراق فى المنكر هروبا
من مسئوليات الحياة وهموم الدنيا ، كما فعل الخيام مثلا (١) .

(١) طالع المحاسنى هذا المعنى فى كتابه - أبو العلاء ناقد المجتمع .

ولقد عبر المحاسنى عن هذه المعانى فى قصيدة له تسدور
حول هذا الفرض بعنوان — دنيانا (١) — على هذا الشكل :

سمدت لأنى جئت فى هذه الدنيا	كأنى عرفت العمر من قبل أن أحيأ
ألم أن فى طى التراب غداً	لاصلى فى نمل تقادم فى الهلكى
سلكت سبيلى فى الهواء مرقساً	وفى عاصف منه تعصف واستعلى
وفى الماء فى أبح الفيوم وربما	بمستنقع أوردت كدرت الحسرى
فما انعكس الخيام فى برج خاطرى	يوسوس فى فكرى بحيرته المكسرى
ولا كان لى عند المعرى وسيلة	لأليس فيها الزهد لبسته الكسرى
تنممت فى الدنيا نسيم معيشتى	كبت نما يهفى الحياة ولو يشقى
أرى منا الأرض التى جاد بطنها	بمولودها عاشت لتشمله أحنى
ألم يكفنا أنا ندور بجوهنا	مدى المام كالأطياف فى الأفق الاعلى
تطل علينا فى الليالى نجومها	غوا مزبلاً لحاظ فى دلفها الاجلى
فمن حقنا فى الميش بوس ونمصه	ومن دأبنا أن نستطيب وأن نأسى
وما قيمة اللذات ان لم يكن لهما	كؤوس من الاحزان تملؤها نجوى الخ

وفى شعر المحاسنى صور من الآلام الإنسانية ، التى ينتصر
عليها الإنسان بصموده وتفاؤله ومواقفه .

وقد عبر عن هذه المعانى فى قصيدته — المام الجديد — بمثل قوله :

حملتنى الى الحياة رياح	سافيات المصير بالاقصوام
يا أحبائى أين منى وجوه	عودتنى تحنانها بابتسام
أيها المام هل حسرت قناعا	لأرى الوجه منك خلف اللثام (١)

كما أنه عبر عن تعلقه بالعيش وحب الحياة فى قوله من قصيدة — ندى
وهدى (٢) وهما طفلتان لابنته " ذكاء " .

أتيت الى الدنيا لأهوى أحبتى	سأشربها حتى الثمالة فى دنى
وأحتل الآلام حتى اذا بسدت	ملذة يوم بت ألى التتمنى
كما هى دنيانا فخذ بقبولها	تخفف شقاء أو تنل راحة الأمن
ولا تحرفى جنبك حزنا ولوعة	فان قصار العمر هدهد بالحصن
سادسا : وفى شعر المحاسنى الفنائى كثير من التجارب الوجدانية	
الذاتية والجماعية غير ما ذكرت ، ولا أزم أنى أتيت عليها كلها ،	
وانما عرفت بأبرزها فى شعره وكلها تترجم عن وجدان عميق وعاطفة	
مشبوبة ، وشاعرية خصبة .	

(١) المام الجديد ، ص ٨٧ .
(٢) المام الجديد ، ص ٨٧ .

ويوم أن يشهر ديوانه مطبوعا جامعا لهذه الأغراض كلها
يمكن للدارس أن يصنف أغراضه ومساويه أكثر دقة ، وأشمل منهجاء ،
ويقول فيه كلمته الأخيرة ، وحسبي أننى اقتطعت من رايى شعره
هذه الباقات ، المعبرة عن خصوصية الملكة وتدفق الشاعرية •

بـ الشعر الملحى : كان الدكتور زكى المحاسنى - كما ورد فى
مقدمة الملحمة العربية - أول من قدم رسالة للحصول على درجة
الدكتوراه فى العصر الحديث عن موضوع " شعر الحرب فى أدب العرب "
وقد ضمن تلك الرسالة تمهيدا طويلا عن شعر الملاح وأهميته
فى آداب الامم ، قديمها وحديثها فى الشرق والغرب (١) •

وورد فى مقدمته للملحمة المذكورة قوله : " وقد تبين لى أن
أمتنا العربية ماتزال محرومة من ملحمتها الكبرى ، التى تجمع تراثها
فى مجد الحرب والفكر وحياة الشعر العربى الذى لا يفنى ، وعرفت
أن فى هذا الشعر قصائد اذا ضم بعضها الى بعض جاءت أناشيد
فى ملحمة العروبة المنشودة •

وان شعر أبى الطيب المتنبى فى سيف الدولة وحده ، اذا أضيف
الى ما قال أبو تمام والبحرئى فى أبى سميد الشمرى بحروبهم مع
البيزنطيين كان ذلك قائمة من الملحمة العربية ، غير أن وضع
الملحمة العربية الكاملة يضيف مجد العروبة الى امجاد ذوات الملاح • • •

(١) انظر - شعر الحرب فى أدب العرب ، وانظر كذلك محاضراته عن - أدب
الملاح والملحمة العربية - ط • بالازهر •

الى أن يقول : " فما كان أجدرنى أن أعمل الملحمة المصرية
المرصودة ، وهأنذا أبدأ اليوم كتابة مقدّمها ، وأسأل الله أن يمين
فى اتمام أناشيدها ، فتكون دعوتى اليها انجازا ، وأعمالى من أجلها
حفاظا وهو الموفق ونعم النصير " (١) .

وفهم من كلام المحاسنى السابق أنه عمد الى كتابة أمجادنا السالفة
لا الماصرة بأسلوب ملحمى ، وبذلك يكون قد وفق الى تحقيق غايتين
نبيلتين هما :

(أ) احياء مجد الاسلام وتراثه ومقومات شخصيته الفذة الفريدة ، فى
عصر نحن فيه - أحوج ما نكون الى استلهم أمجاده ، وبطولاته
ومبادئه ومثلته .

(ب) ملء هذا الفراغ الذى منى به شعرنا العربى فى شتى عصوره
بمعنى المساهمة فى تأليف الملحمة المصرية الاسلامية ، التى
تسلكتنا فى عداد الامم ذوات الرقى الحضارى والفنى ، ممن تفنوا
بأمجاد أمهم وبطولاتها ومثلها فى شعر ملحمى ، وبذلك ننأى
عن القصور وعطل الخيال الذى طاب لكثير من المستشرقين
ومن تبعهم من الشرقيين أن يرموا به الشعر العربى فى شتى
عصوره (٢) .

(١) من المقدمة النثرية التى كتبها صدرها بها أناشيد ، الملحمة - نشرت
فى مجلة تافلة الزيت السعودية .
(٢) انظر مقدمة بلاغه العرب لآحمد ضيف ، ومحاضرات فى الشعر للدكتور
ابراهيم أبو الخشب .

وما ينبغي التنويه به هنا أن الدكتور المحاسنى قد طلع علينا
بمفهوم جديد — نظرية وتطبيقا — لأدب الملحمة وشعر الملاحم .
فبينما عرفها النقاد بأنها — أوالملحمة — " قصة بطولة تحكى
شعرا ، تحتوى على أفعال عجيبة أو على حوادث خارقة للمادة ، وفيها
يتجاوز الوصف مع الحوار وصور الشخصيات والخطب " ، ولم تزدهر
إلا فى عهود الشعوب الفطرية حين كان الناس يخلطون بين
الخيال والحقيقة ، وبين الحكاية والتاريخ ، بل كانوا يهتمون بمغامرات
الخيال أكثر مما يهتمون بالواقع " (١) . الخ .

نرى المحاسنى ينظر إلى الملحمة على أنها فن أدبى ينبغى
أن يقترب من الواقع ويبعد عن تهاويل الخيال وغرائب الاسطورة يقول:
" .. لأن كانت الاساطير تهاويل فى الخيال وخواريق فى الحدثان
فى شروط الملاحم القديمة والملاحم الخربية ، فانى لا أرى هذا
جديرا بالمحمة المصرية المتيدة ، فان عصرنا الحاضر لم يعد أهلا
للأساطير ، وديننا الحنيف قضى عليها منذ أقدم العصور ، ونهضتنا
المصرية الراهنة ملأت بالحقائق التى لا مكان للخرافة فيها " (٢) .

كما يرى أن المفاهيم الجديدة ، ينبغى ألا تقتصر البطولة على
مصطلح الام القديمة واللاحقة فى قصورها على مواقف القتال ومشاهد

والدكتور عبد القادر عيسى / دكتور محمد عيسى هاشم - ودراستات فى الأدب
القديم - خفايا

والدكتور محمد عبد الحليم عبد الحليم - دكتور محمد عبد الحليم عبد الحليم

المبارك ، فأصبح الهال غير متصور وغيره على الرجل المحارب والمرأة
المناضلة ، بل صار وصفا لكل جلد وكفاح في دنيا المعاني التي
لا تجد أغوارها ، فالصابر الصبار بطل ، والدارس الذي أفنى عمره
بين المحابر والمنابر بطل ، والمقيم على الود في تبدل الزمان
بطل ، والشاعر الذي خلف ديوانا ترويه العصور بطل ، والمالسم
الذي خلده العلم بطل ، وكل موقف من مواقف الإنسانية إذا دعا
له الثبات لاخذ الحق بطولة (١) .

وهذا الرأي وضعه المحاسنى على الشعراء ، الذين حالت تقاليد
الملحمة وشروطها دون بلوغهم شأوا فيها ، كما فتح المجال لكثير
من الدارسين ، الذين راقهم رأيهم في فن الملاحم فأخذوا بـ
وتبعوه فيه ، وذلك كما كان من الدكتور سعد الدين الجيزاوى ففى
قوله : " نستطيع أن نطلق لفظ ملحمة على كل قصيدة كبرى أو مجموعة
من القصائد تكون موضوعية ذات طابع واحد في وصف الممارك والبدائل
وتصوير المجتمع ، ثم ليكون وصفها بحسب طبيعة موضوعها ، فنقول
مثلا ملحمة عربية اسلامية ٠٠ الخ " (٢)

وتحن نرى فيما ذهب اليه كل من المحاسنى والجيزاوى ، بأن
الملحمة يمكن أن تتحقق في مجموعة من القصائد في موضوع واحد

(١) أدب الملاحم والملحمة العربية د . زكى المحاسنى ص ١٠٤ .

(٢) الملحمة في الشعر العربي ص ٢٨ - ٣٤ .

كوصف الحروب والمعارك مثلا — نرى أن في مثل هذا الحكم اخلالا بشرط من أخس شروط الملحمة ، كما فهمها النقاد قديما وحديثا وكما ينبغي لها أن تكون ، من نتاج شاعر واحد أضفى المسمى الحرب التي تدور ملحمة حولها فيضا من فلسفته الذاتية ، وفلسفة جيله وأمه ، كما تتضح في معتقدات عصره ، بل وأساطيره — وخرافاته (١) .

ومهما يكن من أمر هذه النظرة النقدية الجديدة بشأن شاعر الملحمة ، كما فهمه المحاسنى وآزره أو خالفه فيها عدد من الكتاب والنقاد (٢) ،

فانه يعد رائدا من رواد هذا الفن في تاريخ أدبنا العربي المعاصر ، بل وربما في تاريخ أدبنا على امتداد عصوره .

ولقد والى المحاسنى نشر أناشيد ملحمة العربية في مجلة — قافلة الزيت — التي انفردت بهذا اللون من تراثه الادبى .

وقدم لهذه الاناشيد بمقدمة شعرية ، أراد أن يثبت فيها أن الملحمة العربية على عكس ملحقات الامم الاخرى ، فهي ملحمة حقيقية تاريخية بطلها الانسان العربي ، الذي عاش من عهد عاد ، والذي ما يزال يعيش حتى ايامنا هذه كريما حرا ابيا ، أسهم في صنع حضارة الانسان بفكره وفنه على حد سواء .

(١) انظر في ذلك بحثا متعا بعنوان — الدكتور زكى المحاسنى — شاعر الملحمة العربية — في مجلة قافلة الزيت عدد — صفر ١٣٩٧ هـ — يناير / فبراير ١٩٧٧ م .

(٢) ممن رأى رأى المحاسنى الدكتور طه حسين انظر — الملحمة في الشعر العربي للجيزاوى هاشم ص ٣٤ . ومن خالفه في رأيه الاستاذ المقسّد انظر — تحية وذكرى ص ١٦٤ / ١٦٥ .

وقد تتابعت أناشيد الملحمة على هذا النحو :

النشيد الاول - يوم ذى قار - وقد تضمن وصفا تصويريا مفصلا ،
لتلك المعركة بين الفرس والعرب في خمسمائة هـ . كما تناول فيها
أيام الجاهلية كحرب دأص والنبراء ، وفروسيات العرب . الخ .

النشيد الثانى - " حاتم الطائى " صور فيه ما يعادل البطل الأسطورى
فى ملاحم الامم الاخرى ، كحقيقة ماتت الدنيا العربية آنذاك ، وما زالت
حتى غدا حاتم مثلاً فى الكرم ، ولا يقتصر النشيد على جود حاتم ،
وكرمه ، بل يأتى على بطولاته فى الوعى والنزال وعلى خلقه
النبيل وشيمه العربية الاصيله .

وانما خص المحاسنى - حاتما الطائى " بنشيد كامل من
أناشيد ملحمة العربية ، لأن تاريخ العرب آنذاك كان صفحة
ناصحة من الزم والنزال ، كما أن فى ذلك دليلا ، على أن
المحاسنى قد عشق عروته - جاهليتها واسلمها - ، وازدهسلى
بانتصاراتها وأمجادها ، وشده بأخبارها وأعمالها ، ولذلك
كان لحاتم عنده تلك المكانة .

والنشيد الثالث - نجم أحمد - الذى برج فيه المحاسنى براعة كاملة
من حيث مناسبة الموقف ، فهو كالدنيا التى من حول أمسية
مبتهج لمولد أحمد عليه الصلاة والسلام ، وهو كأصحاب أحمد
مشفق عليه وعلى الدين الوليد من غت الكفر والكافرين ، وهو
منتقم بانتصارات الاسلام ، وكأنه أحد المجاهدين فى بكارى غزوات
المسلمين .

يقول :

لكننى أسمع الجيش على بيا
ب قسطنطينة رهن الدخول
والنشيد الرابع - غزوة بدر - كبرى معارك الرسول - صلى الله عليه وسلم
وفيه تصوير لبطولة الرسول الكريم وشجاعته ، وفدائية أصحابه رضوان
الله عليهم فى مقاومة الكفر ومجالد الكافرين .

والتشيد الخامس - تناول الممارك الكبرى ، التي ألفت المجد الأول
للعرب كمعركة القادسية واليرموك وغيرهما من كبريات الممارك التي
أصلت مجد الاسلام وأرست دعائمه (١) . وكان يوم اليرموك نشيدا
من أفضل مقاطع ملحنته ، ولعل مرد ذلك الى شهرة هذه المعركة ،
كأحدى معارك الاسلام الحاسمة ضد الرومان .

والنشيد السادس - أفرد به كامله لعمري الخطاب الخليفة العادل من بعد
أعلن إسلامه فنصر الله الدين به .

والنشيد السابع - عن علي بن أبي طالب - وفيه يروي سيرة الامام ، كرم الله وجهه ، وخطواته ومآثره ومكافئته .

ولقد كان المحاسنى يستشرف تاريخ الاسلام الحافل ليستوحى أناشيده
الواحد تلو الاخره مستلهم من شخصياته وأيامه مواضع أناشيده ، الا أنه

(١) انظر في ذلك - مع شاعر الملحمة - الدكتور زكي المحامنى - للاستاذ

پروفیسر سید علی احمد اویسی — بحث ضمنیہ کتاب تحفۃ وز کروی، ص ۶۹ اور ص ۷۰

كان بين الحين والحين ينفخ مجلة قافلة الزيت ، التي استأثرت
بأناشيد ملحمة كما قلت سابقا ، بقصائد كان يصفها بأنها " على
هامش الملحمة العربية " .

ومعظم هذه القصائد كان ينضوي تحت لواء " شعر المناسبات "
كقصيدة — ميلاد الرسول — وقصيدة الحج ، وقصيدة جبال مكة ، وقصيدة
— اللغة العربية — وغيرها — (١)

بيد أن هذه القصائد لم تمثل بينه وبين متابعة مادة الملحمة
الاساسية .

وكما كان المحاسني يستلهم الماضي وأماجده في إنشاء ملحمة ،
فانه كذلك أطل على الحاضر بأحداثه ومشكلاته وقضاياها ، على أمل أن
تسنع له الفرصة لصوغ أناشيد ملحمة وطنية قومية كبرى ، تسجل مآثر
البطولة والتضحية ، وتصور تاريخ الفداء والكفاح ، الذي أبداه المرب
في سبيل الظفر بحريتهم واستقلالهم .

ولقد جأر المحاسني بالدعوة الى مثل ذلك قائلا : " .. أما الملحمة
الحديثة التي تصور بطولة الحرب على تفاوت الاصوار والديار للخصلاي
من استعمار طويل ، فان قصصها الدامية ، وروائع وثباتها ، ستؤخذ
من حياة المناضلين وفداء الشهداء ، واقتحام الممارك من الرجال والنساء
والاطفال في كل أرض عربية — جدير بالتخليد في ملحمة منتظرة .

(١) عن مجلة قافلة الزيت عدد صفر ١٣٩٧ هـ / يناير وفبراير ١٩٧٧ م .

هذه الملحمة ستصور أناشيدها وقصيدها الثورة المصرية في مصر ،
وفى سورية ، وسائر ديار العربية ، والنكبة الكبرى التى وقعت فى
فلسطين المنصوبة ، وعدوان الغرب الاتيم على بورسعيد ، وكيف
انهزم المدوفارتد مدحورا (١) .

وربما لو ولد له فى عمره لاستشرف هذه الموضوعات القومية ، ..
واستوحى منها مادة خصبه تؤلف ملحمة عربية معاصرة ، ولكن لسم
يمهله القضاء حتى يحقق هذه الفاية ، التى نصب من نفسه داعية
لها فترة من الزمان .

ومهما يكن الامر فان المحاسنى قد حاول صادقا أن يكون شاعر
الملحمة المصرية ، وسواء أتمها أم لم يفعل ، فانه بحق شاعر فحل ،
وعلى أمل أن ترى ملحمة النور فى مجموعة منسقة منشورة تحت عنوان
" اليأزة العرب " كما طالب له أن يسميها (٢) .

وننقل عن مجلة قافلة الزيت (٣) — النشيد السابع — من أناشيد
الملحمة المصرية ، التى والى المحاسنى نشرها فى هذه المجلة —

(١) أدب الملاحم والملحمة المصرية ع ١٠٥٩ .

(٢) حكمت حسن فى بحثه عن شاعر الملحمة المصرية — الدكتور زكى
المحاسنى — مجلة قافلة الزيت العدد سالف الذكر .

(٣) مجلة قافلة الزيت عدد صفر ١٣٨٤ حزيران / ١٩٦٤ .

كتمونج لهذا اللون من الشعر ، الذى استمد موضوعاته من تاريخ
الاسلام ، الحافل بالبطولة والامجاد ، ولنرى الى أي حد كان
شاعرنا موفقا فى صياغة وتصوير المعانى الاسلامية الرائعة فى
قالب ملحمى جميل —

وموضوع هذا النشيد — على بن أبى طالب — البطل المبقرى —
الذى شارك فى الدفاع عن صاحب الرسالة مشاركة ذات فاعلية ،
كما نافع عن الاسلام بعزيمة وقادة لا تعرف الملل أو اليأس .

يقول المحاسنى :

هذا الملى وسيد الآف	حفظ المناف لآل محمد مناف
هل عقر والجن مل كهوفها	هتفت به فصفا لسحر شفاف
قالوا تجنبها فراحت ترتضى	بهوى اللقا لموعده ومطاف
صفت له وترنمت بعزيفها	فوق الرمال على ندى الاحفاف
والرمل بحر مائج مسمره	يشوى الجلود بلفحه السفاف
أبنائه هذى المهرنداهما	غنت على مزماره الهفهافاف
أو للصحارى طيف "سيرين" التى	قد ضل "عولس" عند هابسلاف
لكن صوتا من وراء غيوبه	نادى عليا يافى الاشراف
انظر على هام الجبال منائبرا	لمعت بأحمد فى المدى المستاف
فأتى الصبى الى النبی مقديا	وهو الذى فداه فى الاكثاف
رباه والأعوام كانت مرة	دارت بهاشم وانثنت بمجاف
قبس الامانة منه واكسب التقى	واتى قريش بنعمة الايسلاف
واتى البطولة فى مهاد نبهها	فى الحرب يوم تسابق الاحلاف

والجود كان له مناقب دعوة
يا بى الصغير وكان فى اسلامه
عمرت جوانحه بايمان كسما
لا تسأل الاقدار عن انبائه
يا حرب "صفين" تعالى حدثنى
حلف الردى أن يستحر نزاله

وقف المطاعين الذين عرفتهم
فيهم جيوش الشام ترخص حثفها
ايها " معاوية " الحليم ، أبانر
وانى " على " بالمراق معشرا
وعلا الشقاق فلا مقال لحاكم
خرج الخواج والصراخ رواعد
لو يملك النهر الفرات حسيمة
عثمان (نائلة " تصد عداته
اشهر عثمان ، جعلت لهجة
بالدم الملول يصب شيبه
أين الفياك بطاش تمرد
مزن على عصر الخلافة ناصح
يفدو المورخ سائلا تاريخها
لكن بطول واحد فى عصره
جثمت كان مزاجها أسطورة

عرف الصفاة بها هدى الاحناف
يندعو الجبال بعزمه النداف
عمرت رياض الورد بالافواف
فلطالما استتممت على العراف
عرب الملا بطماحن الاسياف
فى الدار عين بكرة وعطاف

يتزاحمون بجوفه القصاف
لملك بمد يده الزجفاف
لاخ يشق أخاه بالارجفاف
يمشى بطحمة مشفق عطاف
الا كتاب الله ذو الانصاف
فى معرك مبراكم الاسداف
لجرو دما من خجلة وكساف
مصورين عليه غير رؤساف
بررت لقتل نى الاخاء جزاف
قد بوركت بتقشف وغصاف
مخ الدمام وفث بالاسفاف
فيها الزمان بدمعه الذراف
متحيرا فى ظاهرا وخفاف
يزهو لديها الصيد بالانصاف
نسجت بأروع حادث وصاف

بمكارم جلت عن الاوصاف
من عقلك الجبار في اسيراف
بات الدهاء لديه غير مـواف
قلب يشع بنوره الشفـواف
فنجأ بها (عمرو) وأنت ممانسى
الا يموتك لسة الاكـواف
فكأنه حجر أطيح بمـواف
صفحا وسترا في حى الالطاف

تشنى عليك بصفاح كـواف
بلحا ظهن سيوفهن غوافسى
نزع السهام وتاه بالاعطاف
أرواحهم للقاءك جد لهـواف
قد عشتها شجعت بطعم كـواف
كان النبي يضمها بشفـواف
لنصوصه برواية ولتـواف
بدم الشهيد ليومه الوقـواف

ستجىء يوم الحشر ذات هـواف
موت الشهادة مثل يوم زفـواف
في طعنة مسمومة بزعمـواف
رفرافة كسارب الاطـواف

أعلى وصفك في البزية شاهـد
ان عشت أصلح فالوضاءة أضرقت
أو كنت رمة قامة فقصيرها
يا آدم الجسد العبيب بصدـره
طرفاك لم يريا مباضع عـورة
أصارع الابطال ولم يدرك الشرى
"هيركول" أنت أما قذفت بفارس
ولك المروءة حيث جل مثـالها

لله "عائشة" توب عـيزة
أرجعتها بفوارس من جنـسها
لتطل من جمل بربه هـودج
أعلم الشجعات آداب الوغى
لهفا أمير المؤمنين لميشـة
ومدينة للعلم أنت رتاجـها
تروى الحديث وأنت أول صامـع
اسكب على الآفاق حمرة لونـها

رسم "المصرى" في ختامك صـورة
لكنها عرس وحسبك في العـلا
يكنى عليك الدهر ذكرى صـور
وتروى أرواح عليك ظوأمـسى

فيهن فاطمة البتول عريضة وصفوف أبطال على الأعـراف
أما الحسين فياشارك مبسم حياك فيه بطرفة الرفاف (١)
ومن نماذج شعره الملحق كذلك هذه الأبيات من قصيدة عنوانها
لفتى (٢) :-

قديت نجواك فيما قلت من كلم والمحر عندك في التبيان والنغم
يا حلوة اللفظ ، يازين اللغات اما كفاك ما حل في ناديك من حكم
حتى سكبت على الاشمار نضرتها فاطلمت زهرها مفتونة الحطم
أو حازها العنف في حسن الوفى فعدت كأن بركانها قد ثار بالحطم
كم شاعر فيك أحياء الزمان بمسا أحياءك وهو رهين الجسم في الرمم
وكم بليغ بنثر منك نال على من الوزارة حتى فار بالشيم
إذا الخيال مضى بالشعر ساقطة فطار في الجوى ينفى حومة النجم
فالنثر كان قرين العقل كاتبه وفارق السجع حتى جل في القيم

(١) ذيلت هذه الأبيات بهذه الكلمات " تنفرد " قافلة الزيت " بنشر الملحمة
المصرية الكبرى التي يكتبها الدكتور زكي المحاسنى منذ سنين بشعره ،
وقد بلغ بها حتى الآن النشيد السابع ، وندعو الله ونحن في أرض الوحي
أن يمد له في غيره ، ليتم هذه الملحمة الفريدة ، التي ينتظرها العالم
العربي الحديث ويرصدها ، لتكون له بين ملحم الأمم في آدابها
المالية ملحمة المثلى .

(٢) قافلة الزيت عدد جمادى الأولى ١٣٨٨ هـ آب ١٩٦٨ م المجلد
السادس عشر .

جيش رأيت عليه الحرب مائتة	سلاح أبطاله في القول والقلم
تسرى معانيه في الليل المبهم على	ضوء المراح على خيل من الدهم
وفي النهار له شمس اذا طلعت	تغار شمس السما منها على اسم
أم اللغات بجرس اللفظ ناغمة	سمعت فيك لحونا فغن في الرخم
قرآنك الاعظم استقصى هواي فما	في الأرض من شامخ دانا في المظم
لو الجبال لها اذن فتسمعه	لساقت حمدها في نطقها بفهم
يا ليتني كنت في ركب الرسول فتى	أسمى لاسمعه في جملة الحشم
يتلو الكتاب بترتيل وصحبته	قيمون به يفدون به بدم
أعب من فيضة الايات سابعية	وأغمر الوجه في نور من الظلم
أم البيان ومنت الخلد يا لغتي	جف اللسان وفيك الفيض كالديسم
وقد عدت عصة نكراء مزعمها	في جدة الشمر لم تنجب سوى المقم
فأجدبت في قريض ظل وازنسه	وعاش باخلة في موئل الكسم
أرى حياتي على رفد السماء شدت	ملاحا أنا فيها صاحب السلم
يا (أمي) لن تنالي الفوز في طلب	الا بصونك قد راضد في الحسم
الله أعطاك في المراء منطقيها	لكن تكوني بها في هامة الامسم

ولقد أحدث هذا اللون للشعري دواهاثلا في محيط الشعر المرقى
 المعاصر ، وتجاوزت مع أناشيده الملحمة أذواق النقاد والادباء والشعراء
 وكتبوا معبرين عن اعجابهم وغبطتهم بهذا الفتح الجديد ، الذي كان من
 المحاسن - شاعر الملحمة العربية -

وبين يدي عديد من المقالات التي أشادت بهذا المصطلح
الأدبي الفريد .

منها مقالة للكاتب الأديب الاستاذ / نظير زيتون^(١) - طلى
هيئة رسالة بعث بها الى المحاسنى - استهلها بقوله : " عزيزى
الشاعر المبدع الدكتور زكى المحاسنى .

انتهيت الساعة من قراءة نشيدك السادس " عربى الخطاب "
الذى سبقته خمسة أناشيد فى الملحمة العربية ، وهى الرائعة التى
فتحت بها أوسع الفتوحات .

وحسبك أنك نفتحت الضاد بأذكى النفحات ، وكشفت للمجد العربى
عن كنوز مبعثرات ، نائحات فى أحضان الظلمات وغيابة المنسيات ،
فصقلتها ولك فى الابداع آيات ، ونظمها ولك فى العبقرية وضائعات
..... الخ .

ومنها قوله " وفى ملحمتك العربية يا عزيزى الدكتور زكى ، نفسس
من هذه الانفاس النبوية ، ونفحة من هذه النفحات المساوية ، وما أجدرك
بمجد هذا أن تتابع علك الأديب العظيم ، وتسد شفرة واسعة فسى
خزائنها العربية ، بما أوتيت من براعة والصمية ، وعزم وأريحية .. الخ

كما أشادت بملاحمه مجلة قافلة الزيت فى بحوث ومقالات عديدة يضيئ
المقام عن ذكرها أو التنويه بها يجمعها ، وحسبى ما ذكرته منها سابقا .

(١) مجلة الأديب عدد مارس ١٩٦٥ . وله رسالتا أخرى حول هذا المعنى

فى مجلة الأديب عدد فبراير ١٩٦٧ .

كما أشاد بملاحمه وأدبه وبحوثه غير واحد من أدباء المصروية وكتاب
المصروية وشعرائها ، في مقالات وبحوث بعضها كتاب — تحية وذكرى * .

جـ — شعر الاسطورة :

ومن الموضوعات التي حفل بها المحاسنى في شعره تلك الاساطير
اليونانية التي استلهمها في شعره وصاغ منها بعض التجارب ، التي
ترمز الى معنى من معانى الحب والفن والجمال .

وانتظم من مجموع قصائده الاسطورية كتيب بلغ اثنتين وتسمي —
صفحة من القطع الصغير عنوانه — أساطير ملهمة (١) —

صدره بمقدمة في علم الاساطير وفنها عبر العصور ، وأثر هذه
الاساطير على الفكر الانساني والشمور الذي ركب في النساء والرجال
حيث كانت سير الاساطير رياحين على الادب الغربي وبخاصة الادب
الفرنسية ، ويتجلى ذلك في الادب الكلاسيكي الذي كان مرآة وفية للاساطير
الاغريقية ، حتى جاء الادب الرومانتيقي فالتزم الاخيلة والحوادث ، من
بين أيدي الاساطير التي كان أشماعها في الحياة الانسانية منبر للقلوب
والحقول على السواء (٢) .

(١) ط . دار المعارف بمصر ١٩٢١ .

(٢) أساطير ملهمة ص ١٤ ، ١٥ .

وكشف المحاسنى فى هذه المقدمة عن بعض أساطير المسرب
فى جاهليتهم ، ومنها أسطورة - الشحران * ، التى كتبها شمرا .
ولقد قدمته مجلة الاديب الى القراء قائلة - وقد ضم كساب -
أساطير ملهمة - قصائد كتبها المحاسنى بلسان الاساطير الافريقية
أضفى عليها فلسفة وتأملات معاصرة .

وهذا حدث جديد فى تاريخ الادب العربى ، منذ تفصيل
سليمان البستاني الكبير الى العربية شمرا ملحمة الالهاده لهوميروس .
والجدير بالذكر أن كثيرا من أدباء العربية المعاصرين ، قد
استلهم الاساطير اليونانية فى بعض أعماله الادبية .

ومنهم الاديب الكاتب الكبير توفيق الحكيم ، فى مسرحيته -
بيجماليون - على نحو ما هو مفصل فى مكانه (٢) .

بيد أن المحاسنى قد تمكن من أن يصوغ هذه الاساطير
الافريقية القديمة شمرا ينضج بالفكر والخيال . وقد سكب عليها
ثأملاته وانطباعاته .

(١) مجلة الاديب مجلد ١٩٢١ .

(٢) انظر - الادب المقارن للدكتور محمد طهسى هلال ص ٢٨٨ وما بعدها .

والادب المقارن للدكتور حسن جاد - ودراسات فى الادب المقارن

وهذا في باب الشعر يمد فتحاً جديداً ، لان مثل هذا الاتجاه

قليل في شعر العرب - فيما نعلم - .

ومن نماذج هذا اللون نقتطف هذه الابيات .

أ - من قصيدة الشعريين وهي أسطورة عربية قديمة :

يقول المحاسنى :

أيها الحب أنت أحلى الأمانى	كن بلا شقوة ولا حرمان
من راحيتك الطيبة فاحسنت	وتملت بالاخضر الريسان
وبكفك نمت ناعمات	تبعت الروح في مدى الالحان
وتر القلب خدنه وتر المـ	كلا الساجعين ذو تخـ
يا أساطير يعرب حديثنا	عن مجالك سالف الأزمان
قيل كنت الهوى وشجو عواذيه	وكت السفير عند الحسان
في سماء الاعراب أسكنت للوحى	وبك السلموان في الأحزان
وعلى القفر قد دلت الحيسارى	حيث ضاعت قوافل الركبان
في مهاد الصحراء عند ندى الوا	حات شخصان في الوفا دائبان
يملآن النفوس حبا وطهـ	لهما اسم من شمره الشعريان
كن بنتين يريان وللانـ	م ودحان لدى الرعيان
يأكلان القديد والماء نـ	ويلدان نهلة الظمـ
فجافت تلك الرمال فلانبت	يفيث الأغنام في نيسان
وهبوب الرياح يسفرومحـ	في الصحارى معالم البنيان

أين ضاعت تلك الخيلة يا وبي — ح الليالى والسامر المرسان
 شئت شملها السنون التوالى . وعراها الزمان بالحدثان
 غير هذى الشمري وتلك — وما كان من الود فى نبيل الممانى
 علقت فى الظلام فوقهما الانب — ح جم أنوارها وهن روانسى
 مشفقات عليهما تبتفسى — عند الفوانى صنمة الاحسان
 خالق الشمريين ، فاجعل لقانا — بهما عندنا مع الاقصران (١) الخ

ب — ومن نماذج الاساطير اليونانية — بان وأفروديت (٢) —

وبان فى اساطير اليونان الاله الفابات والازهار ، كان يحسب
 أفروديت ربة الريح ، وكان ذاقرنين ولحية كثيفة ورجلين كرجل التيس •

وقد نظم المحاسنى هذه الاسطورة شعرا على هذا الشكل :

"بان" المخازل لما اعتزق رنائه — ناغته لحيته تصفى لشكسواء
 ومن الارض الملقاه كان يمسسه — سا من الجبن راغت فيه مرساء
 على الريح له جنات منطلق — قيثاره يملأ الدنيا بنجسواء
 طافت مزاميره فى لف غابته — تدل بالحب والريحان من تاهوا
 قد صب كاهنه عطر المسوح له — وبالشرايين يوم العيد فسداد

(١) أساطير ملهمة عن ٢٢ وما بعدها •

(٢) نفس المصدر عن ٢٥ وما بعدها •

هو الطبيعة في ما وفي زهر
فحل كما وصف الاعراب فحلهم
مرت بناظره غداً سابيصة
جنية فزعت من هول ضمتهم
راحت تشن فصاحت باللحون هوى
على البراعم أن تبقى مفلقة
وما الريح سوى انفاس عاشقة
يا أفرديت ، ابعثي الأرواح دافقة
وفي نسيم تهز العطف رياه
لكنما الروح بالاحساس رواه
ترعى الخوائل فاستفوت خطاياها
فأبدلت قصبات تحت ينها
حتى غدت بدعة مزمار مفساه
ما لم يجئها ربيع هب مرعاه
قد عطرت بهوى الانسان دنياه
عند الريح لنبيع منك مفداه . الخ

ج - ومن ناذجها كذلك - عرائس الشعر (١) -

وقد قدمها بقوله : منذ كان الشعر تصور الشعراء طهمة ،
فالاغريق تصوروها الإلهام في شكل امرأة فاتنة ، تهبط بفلاتها
المجنحة على الشعراء ، وقد سموها هذه الطهات عرائس ، وزعمن
بينهن وحى الآداب والفنون في القرائح .

كن تسع طهات أوحين شعر الحب والحماسة والرياء في : الهام
الرواية والتشثيل والرقص وإيحاء الشعر في الحب والحرب ، منهن
كاليوب وثاليا وهما أشهر الطهات .

أما " أورمة " فموسيقى أسطوري ساحر وأمه من الطهات .

(١) أساطير طهمة ص ٣٥ وما بعدها .

ولقد نظم المحاسنى هذه الاسطورة شعرا على هذا النحو :

عرائس الشمر ميلى فى الهوى ميلى	راج الحبيب بضامى وتقبيلى
لا تستوى حمرة الالهام عانيه	الا لسافح أدمار الاكالهـلـل
خلقت من عقل * جوبيتير* واشتوكت	بالقلب * موزين* مفتان التماثيل
هن الالهات يبعثن الفنون شذى	سحريفوح على كون التهاويل
أقمن فى عزة* البرناس ^(١) ممكـة	من الشمر لابداع وتجييل

فرمز أشمارها سبق الجياد السى	منايع النجم فى شوق وتعليـل
وهز قيثارها ايماءة طفـرت	منها اللحن نديات التراتيل
أما الرواية فى مجلى مسارحها	فهندهم لها آيات تمثيل
والرقص تقليب أقدام مرفرفـة	والاغنيات ابتهاج التهايل

(تالى) قديمك أوجدت القدا لنسا	فى شمر حربى سامى بالبهايل
فى كل منظومة أوريت نخوتها	حماسة وفخار اللقاويل
صوت السلاح على ناديك هازجـه	من الاناشيد فى غمد ومملول

وقد ختمها بقوله :

هذى المرائى ان تاهت بنعمتها	ففى الرجال لها أسباب مأسول
لولا فتى الشمس* أبولون* يلهمها	لطوحت فنها فى كل مملول

(١) البرناس : جبل الالهام ومنه سمى حى بيارىس tant patnasse

والكتاب فوق ذلك مملوء بالاساطير اليونانية ، التي نظمها
المحاسنى شعرا على النمط السابق .

منها — ديانا الالهة الصيد — هـ — هيركول بين الحسام والهيام —
و — النعميات الثلاث — هـ — سيزيف —
و — مرآة فينوس — هـ — نرجسس —
و — أبولون — هـ — بينيلوب زوجة عوليس —
و — آريس رب الحروب — هـ — حسان طرواده . . . الخ

وكلها أساطير ومعتقدات يونانية قديمة ، كانت مددا والهاما
للمحاسنى ، حيث فجرت ينابيع شاعريته ، وألهته فن الاسطوري
الشمسية ، كما انها تحل في جوهرها مدى افادة المحاسنى
وتأثره بالتراث اليونانى القديم ، الممثل في تلك الافكار الاسطورية .

وقد صاغها في قالب عرس الديباجة ، مشرق البيان ، وتيسب
الايقاع والموسيقى .

ولقد حفيت دار المعارف بصدر بهذه القصائد التي ضمها
كتاب — أساطير ملهمه — ، وقدمتها الى القراء قائلة :

” ان الدكتور المحاسنى عانى قسمة الاساطير بعد أن تنبها من
أقدم العصور وقفا على مدلولاتها وتطورها ، حتى توصل الى أن
يضم مياسم أدبه على الهامها الغائد (١) ”

(١) نقلا عن مجلة الاديب مجلد ١٩٧١ .

السمات الفنية لشعر المحاسنى — دراسة نقدية =====

المحاسنى شاعر أصيل ، وأديب ضليح ، وباحث مقتدر مافسى
ذلك شك ، ويمكنك أن تتمثل أثر هذه المواهب كلها فى شعره .

فهو قد حافظ على ديباجة القصيدة المربية فى عصور رقيها
ونفجها حفاظا قويا ، يسلكه فى عداد شعراء المدرسة الكلاسيكية
العميقة ، التى جمعت بين جزالة القديم ورعاية أسلوبه ، ومتانة بناؤه .
طرافة الجديد ومناصرتة وربط الشعر ببيئته التى فيها ولد ، وعلسى
دروبها نشأ ، وكان ثمرة من ثمار محانة صاحبه وترجمته العميقة
عن شعوره بالذات واحساسه بالحياة .

وشعراء هذه المدرسة محافظون من حيث المادة ، إذ كانوا يترسمون
فى شعرهم هذا المثل الذى تميز به البارودى — باعث الشعر المربى
القديم — مثل الاحتفاظ بجزالة الأسلوب ورعائته ، والمحافظة على شكل
القصيدة القديمة وبنائها الفنى .

أما بعد ذلك فهم يفرضون ثقافتهم وعصورهم على شعرهم وما ينظمون
منه فهى طبقة كانت تلائم ملامحة شديدة بين القديم والجديد ، بين
الأسلوب المربى وبين الثقافة وروح العصر (١) .

(١) انظر: الادب العربى المعاصر فى عصره ، شوقى ضيف ص ١٠ وما بعدها .

ولقد قاد هذه المدرسة في مصر جماعة من الشعراء ، الذين أصلوا المدرسة التي وضع البارودي أساسها ، وتمكنوا من أن يخرجوا بالشعر من نطاق أغراضه الضيقة ومبانيه الفارغة ، وكانت مرحلتهم هذه مرحلة في التجديد لاغنى عنها للانتقال إلى التجديد الفني بمفهومه الصحيح كما ذهب إلى ذلك الأستاذ العقاد في بعض كتاباته (١) .

ولقد ذكرت في صدر هذا البحث (٢) مدى تأثير الشعر فسي سورية ، بنتاج هؤلاء الشعراء في مصر ، حيث راح الشعراء السوريون يقلبون صفحات هذه النماذج المشرقة ، مما كونها من اقتناع ، ويهدمون على غرارها في تأثير وأعجاب (٣) .

ولقد كان المحاسني على رأس هؤلاء الشعراء المعاصرين السوريين الذين تأثروا بشعر أمير الشعراء - شوقي - ، ونسجوا قصائدهم على مذهبهم ولم يلبسوا إلا أكون مغاليا إذا قلت :
ان في ثقافة المحاسني وطبيعة شعره مشابهة تجمعهم بأمير الشعراء ، وتربطه أوثق الارتباط بغيره ، وإن ضي كلاهما بحظة الذي قسم له في الحياة الفنية المعاصرة .

(١) انظر : دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية ص ٣٧ .

(٢) انظر : الحياة الأدبية في عصر المحاسني المجلد الثالث من الفصل الأول

(٣) انظر : الأدب المعاصر في سورية لسامي الكيال ص ١٠ .

فالمحاسنى جمع بين : الثقافة المصرية القديمة والثقافة الفرنسية

التي بدت في شعره وفي بحوثه ودراساته •

وكذلك كان شوقى الذى جمع بين الثقافتين معا ، وواءم بينهما

فى اعتدال (١) وقد طوف شوقى بالافاق ونفى الى اسبانيا واقتسام

فيها فترة من حياته ، وشغف بآثار العرب وحضارتهم الفاجرة فى ربيع

— فردوسهم المفقود — وترجم هذا الاحساس شعرا ، وتعد — اندلسياته —

من أروع فنه الشعرى •

وكذلك فعل المحاسنى ، الذى أتاحت له أسفاره وتنقلاته ، أن

يطلع على كثير من الآثار والمشاهد ، ثم انه كان شغوفا الى اسبانيا

ولغيتها عديد من أصدقاء الفن والفكر والشعر ، كما صاغ اندلسياته

الرائعة ، التى تغنى فيها بمجد العرب وحضارتهم الداهية فى الاندلس

وقصائده عن — أشبيلية وغرناطة — من أروع فنه وأبهى درره •

والمحاسنى فوق ذلك قد عبر عن تقديره واعجابه بأبهر الشعراء

شعرا ونثرا • حتى أنه ذهب الى القول بأن القوافى قد دفنت بعد شوقى •

يقول من قصيدة يمت بها الى عديقه الشاعر — فؤاد الخشن :

• فؤاد • يا خفاق فى شعره ناقوس حبدق فى صدره

من بعد شوقى ما أتى شاعر فمن يرد بالفن فى قـدره ؟

(١) انظر حافظ وشوقى للدكتور طه حسين •

(٢) مجلة الاديب عدد يوليو (١٩٦٢) •

كما ترجم هذا الاحساس نشرا في قوله بصدد حديثه عن وجوب
العناية والتوفر على دراسة الشعر القديم والحديث مما :
... من الخير لنا أن نجتمع بين الفضلين ، فننشر ما انطوى
من آثار الاقدمين مع ما حضر من بدائع المحدثين .

وبعضى قائلا : لمصدر الى الان في ديار العرب كتاب شامل فنى
دراسة آثار شوقي - وهو أعظم شاعر معاصر - (١) ... الخ .

ولم نقصد من وراء ذلك الى أن المحاسنى قد بلغ في الشعر المعاصر
ما بلغ اليه شوقي ، فلقد مضى شوقي بآثاره الشعرية في هذا العصر ، وكان
له فيه آثار متازة وعالها التاريخ الادبى المعاصر ، ورصدها له .

وانما قصدت فقط الى القول بأن المحاسنى في شعره ، يعد امتدادا
لشعراء هذه المدرسة التى أوجزنا خصائصها فيما سبق ، وان تفرد بميزة
وخصائص جديدة ، تسلكه في عداد المجددين في بعض الفنون الشعرية
ولمحل أبرزها غايته الشديدة بأدب الملحمة وشعر الملاحم ، كما رأينا .

ويمكننا بعد هذا البيان الوجيز ، أن نستنهط السمات الفنية
لشعر المحاسنى ، معتمدين في ذلك على شعره ونماذجه المتنوعة فيما يأتى :

أ - البناء الفنى - تتميز القصيدة عند المحاسنى ببناء فنى رتيب ،
لم تتزحزح عنه قيد أنملة ، ونصنى أن قصائده قد صبت أنكارها ..

(١) مجلة الاديب عدد يناير ١٩٥١ .

ومعانيها في قالب الشكل القديم ، الذي عرفه الشعراء المشرقيين ،
والذي يقوم على وحدة الوزن ووحدة القافية ، مع الالتزام بهما في
القصيدة كلها ، مهما طالت أبياتها .

وتلك ميزة من مزايا الشعر في هذا العصر الذي تبلدت فيه
القوافي وقصرت المواهب ، ونضب معين الثقافة اللغوية ، التي تعين
الشاعر بالمفردات ، وتسعف بالالفاظ المعبرة عن خلجات الحس
وأغوار الشعور مهما تعددت .

وقد كان من آثار ذلك هروب عدد من الشعراء من الالتزام
بالوزن والقياس ، والقافية الموحدة ، وراحوا ييمثلون شعرهم فـسـاد
أشكال وأنماط جديدة (١) - منها القالب المقطعي والموشح والموسم
والجسد ... الخ . وكلها تنأى عن التقاليد الفنية المعقدة ، التي
سار عليها الشعر في أزهى عصوره ، ولم يفتق عن الترجمة اللامعة
الصادقة عن ذوات الشعراء ووجداناتهم ومشكلات أمتهم وقضايا
مجتمعاتهم .

ولقد حافظ المحاسني على هذا النسق الفني في شعره ، المسمى
أوردنا عددا من نماذجه في البحث السابق ، وبلغ من غايته بهيمنة
القالب ومخاطبته على أصوله وقواعده ، أنه صاغ أناشيد ملحمته الحميرية
الكبرى على نسقه ، وإن كانت طليمة الملحمية وطريقة بنائها في أسلوب اللام

(١) انظر في ذلك : البناء الفني للقصيدة العربية - خفاجي .

الآخرى لا تتقيد بهذا التقليد الفني الدقيق . حتى ذهب ببعض
الدارسين إلى أن من أسباب خلو الشعر العربي من الملاحم هو
هذا القيد الذي تليه طبيعة الشعر العربي من تقيد به بوحدة الوزن
والقافية .

يقول الدكتور إبراهيم أبو الخشب في هذا الصدد : * أن قيود
الوزن والقافية - عندهم - تحول بينهم وبين طول النفس إلى هذا الحد
الذي يجعلهم يسايرون به أمثال الإلهة والاولديسا ، بخلاف الشعر
الغربي الذي ينطلق على سجيته ، كأنه هذا اللون المسمى بالشعر
الحر ، أو الشعر المرسل * (١)

ب- الوحدة الفنية - تعني هذا الوحدة فيما يرى النقاد ، وحدة
الموضوع ووحدة الشاعر التي يثيرها الموضوع ، وما يستلزم ذلك من
ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا ، حتى تنتهي
إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور ، على أن تكون أجزاء القصيدة
كالهيئة الحية ، لكل جزء وظيفته فيها ، وهي بعضها إلى بعضها
من طريق التسلسل في التفكير والشاعر (٢) .

(١) محاضرات في الشعر ص ٥ .

(٢) النقد الأدبي الحديث ص ٤٠١ د . محمد غنيم هلال - ولقد أطلق

عليها اسم - الوحدة العضوية .

ولقد كانت هذه الوحدة ماثرا لخصومات ومناقشات عنيفة بين النقاد والشعراء المعاصرين ، كما أن مفهومها وتحديداتها كانا ماثرا خلط ولبس عند بعضهم (١) ما يضيق المقام عن ذكره في هذه المجالة .

ولقد حققت هذه الوحدة في شعر المحاسنى بكل ألوانه تحققات فنيا ملموسا ، حيث يعد في قصيده عن تنائر الافكار والهماني دون ترابط أو انسجام وصب افكاره ومعانيه في دفقات شمورية منسجمة ، وتلاحق حصى مؤلفه يصب فيه على الدارس أن يقدم بيتا أو يؤوله — الاحتفاظ بأصل التفسير الشعوري والفكري .

كما أنه واثم بين الصور التي جسدت الافكار وشخصت الهماني مواءمة شديدة ، ونسق بين هذه العناصر جميعا — الماطفة والفكر والخيال والصورة والموسيقى واللفظ — وفدت القصيدة عنده بنية حية وكائنا متكاملة ، حتى ولو عد الرشي من الرمز في الترجمة عن بعض مواطنه .

ويمكنك أن تتأمل ذلك في قوله من قصيدة له غنائية عنوانها —
الصوت الحزين (٢) —

من وراء الوجود أسمع صوتا يملأ كالنادب المحزون

(١) انظر في ذلك الديوان للمقاد والمازني — في نقد المقاد شعر شوقي وانظر — اتجاهات وآراء في النقد الحديث في مبحث الواحد والعضوية — د — محمد ناهيل .
وانظر كذلك جوليقي الشعر العربي المعاصر ص ٧٢ وما بعده — إبراهيم المصطفى .

(٢) مجلة الادب العربي ، سنة ١٩٦٢ وهي رمزية .

قلت يا صوت فبك رنة دمـج
أترى أنت من صدأى وحزنسى
وترى لا يحزن أجد أوسـج
ضج وجدى ولست أهدى سبيلا
مثل دممى وعرة كشجونسى
قد تمثلت لى فهجت ظنونسى
فقيثارتى تبكى حنينسى
لشكاة فهل يدلول رنينسى

سأل الليل عن هيامى وسهدى
وتخفت بقصتى ذاك ولـ
بهواها من عهد هاد سلالـ
مثل بحر أمواجه تتلاقسـ
حير الروح جرحها فبكاهـ
نورها فى الورى يشع كالهبـ
فأجاب الصباح طلح جفونسى
عذبتنى وجن فيها جنونسى
تمثت جياشة فى القسـرون
فى شطوط منثورة فى الميـون
كل قلب على منار القسـرون
م نوى يسرى بسكب هتـون

أين غابت ؟ ولحنها عندليب
كيف نامت على الثرى مثل سكـرى
شمرها كان بالصفائر يسـرى
وبك ياربح هل هببت عليها
لا ورب الملى فليس لها مسـوت
محمود الموصىء أبهى من الصـب
لبوة هممت وأسد شراهـ
تتوارى الذئاب خوف لظاهـ
أيها الصوت عد الينا طروبـا

سح وأحلى من فائقات وعيـ
ملء أرض الكناة ملء المـرى
فى شتيت من الوهاد الميـين
لست أرضاك فى القداء الحزـين

وإذا عرفنا الحديث عن موضوع هذه القصيدة الرامزة رمزا موضوعيا
لعمل الشاعر هدف من ورائه الى معنى نهيل وقيمة مثلى ، تتمثل في
التفنى بالحرية والانطلاق ، أو المجد والمثل العليا ، مما ينشده
شاعر على شاكلة المحاسنى .

نرى أن الوحدة الفنية قد تحققت فيها على شكل يرضى دعامة
الوحدة في العمل الادبي ، والذهاب به مذهبها فنيا قوامه ترابط
الافكار وتآلف الصور على نحو ما ذكرت .

ج - الاسلوب والصياغة - امتازت القصيدة في شعر المحاسنى
بسلامة اللفظ ، ودقتها والبعد بها عن الاسفاف والرككة ، أو
الاغراب والتقمير ، مع التدقيق في انتقاء الالفاظ الشاعرة ، التي تشبع
بالمعنى ، وتوحى بالاحساس الرهيف والشعور العميق .

كما أتت صياغته قوية ونسجه متين ، وتراكيبه بصيدة عن التكلف ،
أو الخروج على ما يطبعه طبعه الادبي ، وذوقه النقدي السليم .

وذلك في مواضع شديدة بين معاني شعره وأسلوب التعبير عنهما
في تقاوت وجيز تلميح طبيعة الغرض ، ونوعية التجربة .

فأسلوبه رقيق منسج كالجدول الساري والنسمة الوديمة وذلك في
موضع تصوير الماطفة الجياشة بمعاني الحب والخل مثل قوله :

فی قصیدتہ - الاذن تمسّق (۱) :

سمعتها في رقيم اللحن ترويه
خصاصة تترك الالباب شاردة
السمع هب كعجنون يلاحقها
ولا الخواطر في جنح الخيال لها
على الاثير تلاوين تلاعبه
وسكب السحر يفرها وتفرسه
في جوف ليل تناجينا غوايبه
يهيم في الافق لا الانظار تأنيه
وسيلة للهوى تحنو فترويه
فتبصر الاذن ما الافكار تخفيه

فهل على لدى المحبوب من جرح
صوفية الفن لآحد يفيد هــ
(سيرين) نحوك أذن شوق مسممها
فوغنة اللفظ ترحال النشيد الى
لو قلت آه لآلج النجم من طرب
ان بت أهوى كالما فح من فيـه
فى شطحها فرق لا السبح ينجيـه
(كمولس) أنا والاقدار تمنىـه
دنيا التهاويل حين الصوت يحييه
بفخر الحاظاة حلوا تناغيـه

وهو قوى جزل فخم فى موضع الفخر والتحدى ، والترجمة عن كوامن الثورة
النفسية الدفينة ، التى فجر بركانها عنده ، الاستثمار الاوربي الذى
قبع على ظهر وطنه فى هذا القرن .

وذلك كقوله في قصيدته - فتاة الجزائر (٢) :-

(١) مجلة الاديب عدد ديسمبر ١٩٦٨ •

(۲) مجلۃ الادیب عدد فربریر ۱۹۶۹ء

أبصر زندا على مقبض يدير الرصاص على الاجنوس
 تمرى وأين أساوره غداة القدا والردى الطيب
 وفى العين لا كحل ولا للنحور بريق من الفاتن المذهب
 هى الحرب من أجل حريسة ولم يك فى الحرب من لمصب
 أباة الجزائر عما غسدت حثيون فى الشرف الارحيب
 فما نيل حق لدى غاشم بغير الدما والفنا الطهب . الخ

د - التجربة والماطفة - الشاعر الحق هو الذى تتضح فى
 نفسه تجربته ويقف على أجزائها بكفه ويرتبها ترتيبا ، قبل
 أن يفكر فى الكتابة ، والتجربة الشعرية تعنى : الصورة الكاملة
 النفسية أو الكونية ، التى يصورها الشاعر ، حين يفكر فى أمر من الأمور
 تفكيراً ينب عن عميق شعوره واحساسه .

وفيهما يرجع الشاعر الى اقتناع ذاتي ، وأخلاص فني ، لا الى مجرد
 مهارته فى صياغة القول ، ليهبت بالحقائق أو يجازى شعور الآخرين
 ليغال رضاهم (١) .

ويمكن للنقاد الحصيف والدأوس المتذوق أن يبقا على مسدى
 الصدق أو الزيف الفني ، الذى اتسمت به النصوص الشعرية ،
 التى ترجم عنها المخاسن فى تجربة شعرية معينة ، سواء كانت

(١) النقد الادبي الحديث د . محمد فتحي هلال ع ٣٩٠ .
 واتجاهات وآراء فى النقد الحديث د . محمد ناييل .

تمهيرا من حالة من حالات نفس الشاعر ، أم كانت عن موقف انساني
عام تمثله وعبر عنه .

ونذكر في شعر المحاسني أثرا قويا لصدق التجربة وقوتها
وحرارة الماطقة والبهمة بها عن التكلف أو الاصطناع والتلفيق .
فهو لم يقل الشعر من أجل الحصول على كسب يرضيه أو تلصق
اليه نفسه .

وانا أرسله تمهيرا عن احساسه وتصويرا لاعتقاداته وإخلاصا لفنه
بمعنى أنه لم يحمل شعره مالا تحص به نفسه وتعيش به عواطفه ،
كما أنه لم يجار في شعره مشاعر غيره ، حتى يمد به عن الصدق
الفني ، الذي هو سبيل الجمال في الفنون جميعا .
وانا ترجم عن ذاته وكفى .

كما صور في شعره ما جاشت به مشاعره أو توهجه خياله ، أو نهض
له وجسداً له ، وذلك في شكل غنائي منوع التجارب موزع المعاني بين
الربا والفضل والوصف والوفاء المثل في اخوانياته ، وفي الترجمة
عن مشاعر الوطنية والقومية على نحو ما تمثلنا بشانجه المديدة في هذه
الاغراض كلها .

كذلك ترجم عن مشاعره الإسلامية في قالب ملحمي جميل ، كان
شديد التحسن له والإيمان به ، والدعوة اليه .

ومن ثم اتسم شعره بقوة الماطقة وحرارتها ، وصدق التجربة
وعقها .

ويندر أن تشتت في شعره على ضرب من التلقيق ، أو زيف من الفن مما يتعثر فيه أحيانا أدعاء الشعر من قنهم بريق الشهرة الزائفة التي لا تقوم على أساس أو تنافح عن دعوة أو تدفع عن عقيدة مما يصك اسماعنا ، ويصدم أذواقنا في كثير من الأحيان •

هـ — الصورة الأدبية — ما لا وراء فيمان الشعراء يتفاوتون فسي درجة التعبير عن المعنى أو الترجمة عن الفرض ، تبعاً لتفاوتهم في جودة التصوير الذي يجسم المعنى ويشخصه ، ويبرزه ماثلاً أمام القارئ المتذوق يجد فيه ذاته ومجتمعه والكون من حوله •

وسبيل ذلك هو الخيال المفتن الضبيب ، الذي يدرك العلائق بين الأشياء أدراكاً ذكياً بعيداً عن الاغراب والغموض ، أو التيهوم — والتحويل ، الذي يحجب الرؤية الشعرية ويكسوها ضباباً كثيفاً كما يعتمد إلى ذلك جماعة المذهب الرمزي (١) وأشباع الشعر الجديد (٢) الذين غضت معانيهم ، وتاهت مضامينهم وسط ركام وحشود من •• الالفاظ الغائمة والصور الغريبة والمبارات المنفلقة •

ولقد وقف المحاسنى من هؤلاء ، وأولئك موقف الناقد الالمعسى الحصيف الذي يدرك وثيقة الشعر وأهميته في الترجمة عن ذات منشئه ترجمة أمينة دقيقة ، عادها الوضع والابانة والتأثير والامتساع ،

(١) انظر الرمزية والادب العربي الحديث — انطون غطاس كرم •

(٢) انظر — اتجاهات الشعر الحر — حسن توفيق •
والشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى •

وله في ذلك آراء جميلة احتوتها مقالاته النقدية ، التي كان ينشرها
في مجلة الاديب كما سنرى .

كما ترجم عنها في بعض دراساته الادبية على نحو ما أسلفنا (١)

وعند التطبيق نقول : ان المحاسن قد احتفل في شعره
بالصورة احتفالا ملحوظا وكانت سبيله في ذلك واضحة تمام الخسوح
فلم يغرب في تشييل ولم يعمد في استعارة ولم يجسم مالا سبيل
الى تجسيه ، شأن الشعراء المعاصرين الذين غالوا في ذلك
غلوا شديدا ، حتى نجهم بهم النقد ، ويرى نقاد المعتدلون (٢)

وانما أتت صوره في شعره مشرقة صافية ، بينة القسرات ، بارزة
المعالم على طريقة الملبوعين من الشعراء كالبحتري وابن زيدون فسي
القديم وشوقي وحافظ من المعاصرين .

وعلى الرغم من تعدد روافد ثقافته واطلاعه على مذاهب
الاوربيين وطرق تصويرهم في شعرهم نراه لم يفش عروته وخصائص
أدبها ومقومات فنها ، وتلك محمودة من مخامده وميزة من مزاياه .

ويمكننا أن نطلع القارئ على جانب من صوره التي حملت هذا
الطابع في هذه الابيات :

(١) انظر كتابه نظرات في أدبنا المعاصر وانظر فصول من الثقافة المعاصرة

(٢) انظر نقد طه حسين لشعر علي محمود طه في كتاب حديث الاربعة ج ٣

يا من شففتنا به والليل ممتكسر لا يدرك الحب الا في معانيه
يكرس الرقص تغنيا ويمزج به بالوصف حتى يكاد الحس يديسه
على أصابع رجل خفق هفهفه ترف كالطير في أحلى مجاليه
بيض التجرد مكحولات أجفنها يمد شيطانها حتى تلاقيه
تترفع الساق نحو الرأس لاجسه وتسفع الشعر في سكب ترويه (١)

فانظر الى هذا الصورتا الكلية ، التي صور فيها من فتن بها وتمشقتها
فؤاده ، ثم تأمل خيوط هذه الصورتا لالها وكيف تأزرت الالوان والاشكال
والحركات والسكنات على تأليفها ونسج خيوطها ثم تأمل مرة ثانية
هذه الصور الجزئية المثلة في بعض التشابه القويمة والكنائيات اللطيفة
التي تماوت في ابراز الصورة الكلية حتى غدت " نابلوها " حيا ممبرا
عن اعجاب الشاعر بجمال الانثى الذي زانه الدل والقيه ، والسحر
والفتنة ، وأكسبه جمالا آخر فوق جماله الاصلى .

و - الموسيقى الشعرية - موسيقى الشعر عند المحاسنى تنبع من
رافدين هما : الموسيقى الخفية ، وقوامها : تناسق الصور وتآلف
الافكار ، وتتابع وقع الكلمات ، وتآخي المبارات ، والمواءمة بين هذه
المناصر كلها في اقتدار .
والموسيقى الواضحة ويعتمد على عنصرين هما - وحدة الوزن -
ووحدة القافية .

(١) من قصيدة - الاذن تمشق مجلة الاديب عدد ديسمبر ١٩٦٨ .

بيد أن المحاسنى قد نوع فى أنفامه ، وصنف موسيقاه ، ولكنه
التنوع الذى جاء على سنن العرب ، ولم ينسلخ عنه أبداً .

فلقد نظم على بحور الشعر المعروفة — البسيط والمديد —
والرمل — والطويل والخييف والكامل الوافر وغيرها ، وجاءت معظم
قصائده على هذه البحور .

ولكنه أحياناً كان ينظم على مجزوء البحور ، حينما يحيل السى
الخفة وسرعة الحركة ، ويأتى بمعانى شعره فى دقات منسجمة كسل
دفقة تستوعبها وحدتان موسيقيتان على هذا الشكل :

عيناها نهما حكمة	وبراة وصيرة
سلكا سبيلك فى الدنسى	درب النهى يا غسادة
" سهرين " أنت على المدى	غنيت لحن غوايصة
كنا جميعا " عولسا "	نسرى البحار لفاية . . . (١)

وهذه القصيدة من مجزوء البحر الكامل وهى على هذا الوزن :

متفاعلن / متفاعطن	متفاعلن / متفاعطن
ومثل قوله فى قصيدة أخرى :	
لأجلك افتدى حليما	وأنت فوقها الذهبيا (٢)
بشمرى كل عجيصة	تنافس ما علا أريسا
وما سميت الشهبيا	" لو لم تطلع الشهبيا . . الخ

(١) من قصيدة مهداة الى " البير أديب " بعنوان " عيناها " .
(٢) من قصيدة مهداة الى سامى الكيالى مجلة الاديب مجلد ١٧١ (١٠)

وهى من مجزوء البحر الوافر ووزنها هكذا : —

مفاعلتن / مفاعلتن مفاعلتن / مفاعلتن

وله قصائد أخرى سلك فيها هذا النظم الخفيف • ولكنها لم تخرج عن نطاق التقاليد الفنية المعقدة • التى التزم بها الاقدمون من المحافظين على دياجاة القصيدة العربية • ومن تأثروهم من المحدثين والمعاصرين •

وينبغى أن ننوه هنا بالمذهب الادبى الذى التزم به المحاسنى فى نقده وشعره • وهو مذهب المحافظين من شعراء المدرسة الكلاسيكية الجديدة الذين أنفوا من تنويع الموسيقى • وبرموا من الخروج على رسومها وأصولها ورأوا أن الشعر لا ينبغى أن يتسم بسمة الفن اذا خلا من الوزن والقافية • فليس شعرا عندهم ما خلا من وحدة الوزن ورتابة القافية •

ز — المحاسنى بين القديم والجديد — لقد جمع شعر المحاسنى بين ميزة القديم وطرافة الجديد فيما ترى •

نفيه من القديم

- ١ — جزالة الالفاظ ومناقبها •
- ٢ — قوة الاساليب وروعها •
- ٣ — بلاغة التصوير والتفنن فى الاخيلة •
- ٤ — وحدة الوزن ووحدة القافية •

وفيه من الجديد

- ١- وحدة الموضوع
- ٢- الجودة والابتكار
- ٣- تحقق الوحدة الفنية
- ٤- صدق التجربة الشعرية
- ٥- فرض ثقافة عصره على شعره
- ٦- التأثير ببعض المذاهب والأفكار الأوروبية

ح - شاعرية المحاسنى فى ميزان النقد

حظى شعر شاعرنا بأعجاب النقاد والادباء والكتاب ، وترجموا عن
اعجابهم فى كلمات وجيزة لا تخلو من موضوعية وسداد رأى .
ومن هذه الآراء :

- ١- يقول الدكتور محسن جمال الدين : " ليس فى شعر المحاسنى
وعظ الواعظين ولا فى قوله تدليس المدلسين ، ولا فى خياله
جنوح المنهزمين ، ولا فى كلماته بمودة المستضعفين " (١)
- ٢- ويقول الاستاذ أنور الجندى : " نحن بازاء رجل مشمسوب
الماطفة صادق الوجدان ، يعيش على مشاعره وأشواقه الروحية ،
فهو شاعر بكل معنى الكلمة حتى ولو كتب النثر ، أو ألف
فى الدراسات العقلية ... الخ " (٢) .

(١) تحية وذكرى ص ٤٧ .

(٢) تحية وذكرى

٣- ويقول الاستاذ حسنى كتمان عن شعر المحاسنى وشاعريته :
" كان المحاسنى يرحمه الله من أخصب شعراء البلاد قريحة
وانتاجا ، يرتجل الشعر أحيانا ، ويقول على الموهبة
والبدئية ... الخ " (١) .

ومثل هذه الآراء فى شعر المحاسنى كثير يضيّق المقام عن
ذكره أو التنويه به فى هذه المجالة .

ونحيل القارئ الى كتاب " تحية وذكرى " الذى غص
بالبحوث التى أشادت بمبقرية المحاسنى وتعدد مواهبه .
كما حفلت مجلة الاديب البيروتية ومجلة قافلة الزيت السعودية
بمقالات فريدة ، وفصول جديدة ، تتروجم كلها عن اعجاب كتاب
المروية وأدبائها ونقادها بشاعرية المحاسنى وشعره ، الذى حافظ
فيه على تقاليد الشعر العربى فى أزهى عصوره ، وجدد فيه
التجديد المعتدل ، الذى ترتبه طبيعة آدابنا ، ولا تلقطه
أعرافه وتقاليده .

الفصل الثاني

أدب المحاسنى النثرى

تكلمت فى وصف الحياة الأدبية فى سورية - فى عصر المحاسنى -
عن الفنون الأدبية التى لقيت رواجاً وديوعاً بين الأدباء ، وكانت
ثمرة من ثمار المزج الثقافى والتأثر الأدبى بتلك الفنون الأدبية ،
التي راجت فى مصر ومنها أدب المقالة والقصة بكل ألوانها .

حيث كان السوريون مولعين بتقليد اخوانهم فى مصر فى كسل
ما برعوا فيه ، كما أنهم تتلمذوا على أدب الرواد المصريين ، وأخذوا
منهم ما سبقوا به الأمة العربية فى مستهل عصر النهضة الأدبية
الفتية فى هذا القرن . على ما هو مفصل فى موضعه من هذا البحث .^(١)

ولقد كان من أسباب النهضة التى نهضها الأدب العربى
فى هذه المرحلة ، تعدد الصحف والمجلات ، التى غنت بشؤون
الأدب واتسعت لحمل بنات أفكار الأدباء والترجمة عن مواطنهم ففى
أعمال أدبية قصيرة ، لا تضيق بها الصحف ، ولا تمجز عن محتواها
المجلات .

وقد طفق عديد من الكتاب والأدباء العرب يتجهون ههنا
الاتجاه الجديد فى معالجة القضايا الوطنية والقومية والاجتماعية والأدبية

(١) انظر ذلك مفصلاً فى المبحث الثالث من الفصل الأول فى الرسالة .

وينشرون أفكارهم في مقالات وبحوث وفصول تصور انطباعهم ازاء مشكلات
أشهر وقضايا مجتمعاتهم .

ومن ثم نشط أدب المقالة بكل أركانها - نشاطا ملحوظا -
وقويت آثاره ، وتعددت منازعه وتباينت اتجاهاته (١) .

وكان المحاسنى طوال حياته الادبية الحافلة بالفكر والفن
والشعر والبحث ، دهورا على الاتصال بالصحف والمجلات العربية ،
يغذيها بفكره ، ويدفع اليها ببحوثه ومقالاته المحيطة القضية فنى
الادب والنقد والثقافة .

وربما ساعدته أسفاره وتنقلاته بين أرجاء الوطن العربي ، بحكم
أعماله ووظائفه التى أشرت اليها فيما سبق (٢) على نشر ما كان يسمع
به بيانه أو تجود به قريحته .

يقول عنه نقولا يوسف فى هذا العدد : " وفى خلال
اقامة المحاسنى بالقاهرة مسئولو ثقافيا ومراقبا لدراسة الطللاب ،
ثم بعد عودته للعمل بدمشق وبيروت ، ثم فى مكة المكرمة أستاذ
ومحاضرا وباحثا ، دأب على كتابة المقالات والدراسات والقصائد الشعرية
فى شتى صحف الاقطار العربية ومجلاتها وخاصة مجلة الاديب منذ نشأتها (٣) .

(١) انظر : أدب المقالة الصحفية للدكتور عبداللّاه حمزة والفنون الادبية
واعلمها لانيس القدسي .

(٢) أنظر : حياة المحاسنى - فى هذا البحث .

(٣) تحية وذكرى ص ٨٢ .

كما تقول المستشرق الألمانية - آن ماري شميل - أستاذة

الدراسات العربية والإسلامية في جامعة بون •

• كان الدكتور زكي المحاسني من الاصدقاء الذين عرفناهم في آثارهم دون التقاء ، وقد بدأ التعارف للمرة الاولى عندما كان يرسل المقالات القيمة لمجلتنا " فكروفن " كما نستمتع بها ونعتزل بنشرها ، اذ كانت تكشف عن نفس حساسة وثقافة موسوعية ، وعقل متفتح للبحث العميق • (١)

ومن بين المجلات والمصحف ، التي كان المحاسني يفتديها بأدبه وفنه

١- مجلة الاديب - وهي مجلة لبنانية تصدر ببيروت وأنشأها الكاتب الاديب البير أديب - ، وقد لعبت دورا بارزا في التعريف بالادب العربي لدى عالم الاستشراق والمحافل الجامعية الدولية •

ولقد اتصل بها المحاسني منذ صدورها في سنة ١٩٤٢ ، وظل يوافيها بمقالاته وبحوثه وشعره ، حتى لقرينه ، وفارق دنياه •

كما أنه كان محرر بابا ثابتا فيها لفترة طويلة تحت عنوان - مكتبة الاديب - يصرف فيه بأبزر الكتب الادبية والنقدية والمفاهيمية والفكرية ، ويبين قيمة الكتاب وأهميته ، ويسجل ملحوظاته عليه ، في أمانة ودقة وموضوعية •

(١) تحية وذكرى ص ١٣٥ •

ولقد عولت كثيرا على هذه المجلة في دراستي لشعير المحاسنى وأدبه وأخباره ، وتمدد صدرا رئيسيا لمن يتصدى لمثل هذا العمل الذى قمت به ، كما أنها ضمت كثيرا من آثار الادباء والشعراء المعاصرين في الوطن العربي كله . ولا تزال تتحف القراء بأعدادها حتى وقتنا هذا .

٢- مجلة الحديث السورية - وهى مجلة أدبية كان يصددها الأستاذ الاديب - سامى الكيالى - بحلب ، وقد اتصل بها المحاسنى منذ صدورهما ، وكان يفنديها بأدبه - شعرا ونثرا - وقد عملت على توثيق الاواصر وتقوية الروابط بين الادبيين السوريين - المحاسنى والكيالى -

وقد أشاد المحاسنى في شعره بهذه المجلة الغراء ، وذلك في قصيدة اخوانية له أرسلها الى صديقه الكيالى - ومنها قوله :

مجلتك (الحديث) غدت لنا البستان والطريقا
نفرد فوق دوختها ونحيى منك فوق ريسى (١)

٣- مجلة الرسالة - مجلة لبنانية - كان يصددها الكاتب الاديب - جان كعيد -

٤- مجلة الرحمة - وهى مجلة لبنانية كان يشرف عليها - الشيخ شفيق ضاهر ، ثم صدرت بعد ذلك باسم " اصداء " ورأس تحريرها الأستاذ - جان كعيد - وعن علاقة المحاسنى بهاتين المجلتين اللبنانيتين ، يقول رئيس تحريرهما - جان كعيد - " تعود صداقتى للمحاسنى الى العام ١٩٥٦ ، يوم كنت رئيسا لتحرير مجلة " الرسالة " .

(١) مجلة الاديب مجلد سنة ١٩٧١ وانظر التعريف بهذه المجلة وتيمتها في كتاب - فصول من الثقافة المعاصرة .

وكانت هذه المجلة تحتزم اصدار عدد خاص عن احوال اعلام
من ادبائنا الراحلين ، فوجهت رسائل الى نخبة من الكتاب والنقاد
في العالم العربي للمساهمة في هذا المجهود ، فأتتني الاجوبة
قليلة ، - وكانت المجلة حديثة العهد ، وغير معروفة في النطاق
العربي الواسع ، وبينها جواب تطافح لهجته نهلا وكرا - من
الدكتور زكي المحاسني .

كانت هذه الالتفاتة ، من العلامة والاديب الكبير مشجعة
لي كثيرا ، فكنت اليه ثانية شاكرا موقنه ، ثم تواصلت بيني وبينه
الرسائل ، وبدأ يكتب لمجلتي بانتظام ويشارك في كل عدد من
الاعداد الخاصة التي اصدرتها بعدئذ (١) . اما موضوع هذه
الرسائل فقد وصفها الكاتب بقوله :

” في رسائله كان المحاسني يتناول شؤون الادب والفكر
ويبدى آراءه في الادباء وآثارهم ، ويروي ذكريات من حياته وعلاقاته
بالاعلام الادب والفكر في مصر والعالم العربي ، وتصوره لحقيقة
بعضهم وأخلاقهم ، وقد عرفهم في حياتهم وآثارهم ” .

— مجلة قافلة الزيت — مجلة سعودية — تعنى بشؤون الفكر
والادب والثقافة كان المحاسني ينشر فيها أدبه ، ويزينها بشعره
وقد استأثرت بنشر شعره الملحي ، الذي تحدثت عنه فيما سبق .

(١) من البحث الذي كتبه جان كيمد عن المحاسني وضعه كتاب — تحية

وذكرى ص ٩٧ وما بعدها .

ولقد عولت على بعض أعدادها في دراسة هذا اللون من
أدب المحاسنى .

٦- السياسة الاسبوعية ، وهى صحيفة مصرية كانت تصدر في مصر
اسبوعية ، وقد اتصل بها المحاسنى في صدر شبابه ومستهل
حياته الادبية ، ونشرت له بعض الاعمال الادبية المترجمة
عن الادب الفرنسى (١) .

٧- الى مجلات سعودية كثيرة : كمجلة الحج والتضامن
الاسلامى ، ورابطة العالم الاسلامى وسواها .

وغير هذا المجلات كثير ، مما اتخذه المحاسنى بأدبه ، وغذاء
برائح فكره ، وغزير شقافته ولست بصدد احصائها كلها في هذا
المقام ، وانما قصدت فقط الى التعرف بعمقها والتنويه بالجهد الادبى
الذى بذله ادبنا في مثل هذا اللون الادبى .

موضوعات مقالاته :

يبدو في مقالات المحاسنى ، التى كان يعد بها المجلات السابقة
غلبة الطابع الادبى عليها ، سواء كانت مقالات انشائية أو وصفية .
وقد يكون من المسير استقصاء هذا المقالات التى تناثرت فى
بطون الصحف والمجلات ، أو حفظت أصولها فى مكتبته وخزائن أصحابه

(١) انظر مقالة الاستاذ طاهر التامى فى كتاب تحقيق ذكرى ص ١

كما حكى عن ذلك أحد أصدقائه قائلا : " واننى لاخبر نفسى من
اكثر أصدقائه علما بهذه الناحية من نواحي أدبه ، نظرا للمجموعة
الكبيرة من الرسائل ، التى أملكها منه وهى حصيلة ستة عشر عاما
من الصلابة والصداقة .

وأنا مستعد لوضع هذه المجموعة بتصرف أسرته ، اذا ما اعزمت
جمع رسائله " (١) .

ومع ذلك فبين يدي مجموعة من مقالات المحاسنى ، التى تمثل
أدبه النثرى وسماته الفنية ، وخصائصه ، أضفها أمام القارئ كمؤنح
لتمثل أدب هذا الكاتب الفذ ، الذى أثرى الأدب بنحوسه
ومقالاته ، كما اتحفه بمؤلفاته وشعره .

ويمكن تصنيف هذه المقالات على هذا الشكل
=====

١ - المقالة الانشائية : وهى التى يصور فيها الكاتب خاطره
وانطباعاته ازاء مشهد من مشاهد الحياة اليومية ، كما يرسم
فيها صورة معبرة عما يخلج فى نفسه من ذكريات ، أو يمتثل
فيها من أحداث .

وعلى قدر براعة الكاتب ، ورهافة احساسه ، وعق مشاعره
وغزارة ثقافته وتعدد وسائل بيانه يكون الحدق والمهارة فى تجويد
المقالة وأناقته ، وفنها وهندستها .

(١) جان كيمد - فى مقالته عن المحاسنى ص ٩٩ المرجع السابق .

ولقد برع في هذا اللون من الادب عدد من الكتاب العرب ،
وصار لكل منهم مذهب ينتمي اليه ، وطريقة يعترف بها (١) .

وللمحاسني في ذلك تراث قيم ، ينبغي أن يحتفل به ، وأن
يجمع في كتاب ، حتى يمكن تصنيفه وتنسيقه ، ودراسته دراسة مستوعبة
تكشف عن أصالته وعمقه ، وغزارة ثقافته وتعدد روافدها .

ومن هذه المقالات الجديدة - مقالة بعنوان - الليالي الشامية (٢)
صور فيها المحاسني لياالي الشام بقوله : " لكل مدينة ليال خالسات
فالليالي الموسكوية والليالي الباريسية وليالي الاندلس ، هجئات بيضاء ،
جلابيبهن ، ثياب الانوار .

لكم لاحت فيهن شمس ولا تضيئ النهار وطلعت في سمواتها
أقمار ولا كالقمر الفض الموسوم على عارضيه بالكلف . .

" هكذا فلدمشق وهو أسطورة الشرق ليال مألقة ساطعات
انها الاسمار على سفوح " قاسيون " من مهب الصالحية الى وهاد

(١) انظر في ذلك - الفنون الادبية وأعلامها لأنيس القدسي ،

وانظر في أدب المقالة دراسات في الادب العربي الحديث

د . خفاجي .

(٢) مجلة الاديب - عدد كانون الثاني ١٩٤٣ .

الحواكير ، لتبدأ عند هجمات الحرفى السيف اللاهيب ،
ويزدحم بها السرى فى الليالى القمر ، وصفحة البدر التم ، وهاجمة
بنشير اللجين ، ترمى على رؤوس السارين فى الدرب ، أو الجائحين
على الارض جماعات وأزواجا ، ولقد تنهادى سمات عاطرة تجسسى
من بطحاء " المزة " فتهمز ورق اشجر من بساتين " أرض الوائسى "
حتى جنائن " الربوة " ويبقى السامرون فى حديث يساقطونه ، أو صمت
يتداولونه وغنا ، المذيع يصل اليهم من بعيد ، حتى يتصوم قطع
من الليل ، أو هزيع ، فتسكن طامسات باعة السوس عن التصفيسق
وتتسلل الشخوص وقد انجرت عليها الظلال الى المأوى ، فاذا خلا
الجهل من الناس ، وتكاثرت السفوح خلت الطبيعة الى نفسها فأتيج
لقاسيون الاشم أن يناعى غوطة الفيحاء ، وأن يصيح بأذان الصمت
الى صوت بردى بين ضفتيه وكأنه سيف من فضة ... الخ .

ومنها - مقالة عنوانها - فى أغلال الذهب (١) - وهى لون - من
النثر الفنى البديع ، أو قطعة من النثر الشعرى الجميل ، فضلا عن
طرافة موضوعها ، وواقعية مغزاها . يقول فيها المحاسنى : " من
ذا الذى يحب أن يسلك نفسه فى غل من الذهب ؟ من هذا المسكين
المفتر مبسمه عن السرور ، الخائف فؤاده ، بالجهور فى يده قيد ، سلاسله
وهاجة وعقده . براقه ، تظن اذا اصطفت حلقاتها بطنين الدنانير .

وحين تطلعها الشمس يتلأل لها برق المسجد الابيض
سأرائى مهما أناد كصاخر فى فى الوادى ، ولو جلت البلاد أنفوس

(١) مجلة الاديب عدد آذار سنة ١٩٤٣ .

أوجه العباد ، أدعهم الى هذه القيود ، لآثروا عليها اللحود
ولاشجوا عنى غاضبين ، أو اريدت سحناتهم غاضبين .

ولرب سامع فيهم بخيل لو أدركهم أحد أصعب لنافسه في الرهان
وبذه في الشوط ولا فحم نقاد الواغليين ، وأسكت لوأم الطفيليين
فقال : أنا زعيم بهذا القيد الذهبي على أن يصير لي ملكا ، هاك
يدي ورجلي ، وهاك عنقي فقيد ثم قيد ، على أن يكون القيد في حوزتي
كألى ، ليأخذني على هذا الطابع الخشوم خوف واشفاق ، فقد
تحمل من كالمى ظواهره وماغاض الى لبابه .

لقد كنت أريد بأغلال الذهب مشاكل من دنيانا نحس
أنفسنا فيها موثقين بالاصفاد أيدينا الى أعناقنا قد ربطت ، وأرجلنا
لا تحير مشية ولا تقدر على خطوة .

كأننا في هذه المشاكل الدنيوية في حجرات من السجون
ضئيلة ، لها طاق صغير ، نثبت فيه قضبان الحديد ، أظلم
جوفه وضاق بابه ، وعليه حارس مرسل الشاربين متهمج الناظرين
يطرق بالمفتاح على داف الباب بين حين وحين ، أناسى مقام
رقبه انسان هو قيد محكم من الذهب .

ليس المواهل والقياصرة والصلاطيين في قيود مذهبة ، يرسفون
فيها وهى غوال ثقال ، ثم ألم يرد في الدهر خير الملوك الذين
رغبوا عن هذا القيد ، فأثروا من أجله البمد عن العرش .

هذه الاغلال كثيرة في الدنيا ، ما أحسب انسانا خلا من واحد منها ، لقد عاش عنها راضيا ، وبها قانعا ودعا الناس الى مثلها ، وفي نفسه منها لوعة ، وحلقه غصة ... الخ .

ومنها مقالة له بعنوان - على أرياض الجاهلية ^(١) -

صور فيها عظمة العرب في جاهليتهم ، كما تناول فيها بساطة العرب في عيشهم وأيامهم وأخبارهم وحضارتهم المثلة فيما خلفوه من أدب وشعر .

كما تناولت مقالاته الانشائية عددا من الاعلام النابهين ذوى الفكر والثقافة فحلل شخصياتهم تحليلا أدبيا رائقا ، كما عرف بمكانتهم وأشاد بتراثهم .

وقد غصت مجلة الاديب بهذه المقالات .

ومنها : مقالة بعنوان - زوجان اسبانيان ومستشرقان عربيان ^(٢) -

يقول فيها المحاسنى : طرق ساعى البريد بابى وأعطانى رسالة جوية من اسبانيا وفيما كنت أوقح على دفتره بتسلمها كان فكرى منطلقا الى مدريد فى حى " ززل " جوالا متسائلا عند دائرة صديقى زعيم أدباء الاسبان فى القرن العشرين الدكتور (رامون مينا نديزبيدال " رئيس المجمع الادبى والتاريخى بحاضرة بلاده .

(١) الاديب عدد نيسان ١٩٤٣ .

(٢) الاديب عدد ديسمبر ١٩٧١ .

وقد رحت آنثذ أحاور نفسى :

انه توفى منذ عام بعد أن عاش مائة سنة .

لعلها رسالة من كاتب سره .

ولكن ، كل هذا الخيال ذاب ، حين تبينت أن الرسالة من "بوشلونة" ومن الدكتورة "ليونور مارتينز مارتان" وسرعان ما خلدت الى غرفة مكتبى ففتحت عنها ، وإذا هى بخط عربى مبهين وعجالة نقية وفصل خطاب ، وجدتها بقلم هذه الادبية المستشرقة ، تعلمنى فيها بأنها وقفت على أشعار لى وأخبار عنى وقد أنشأت فى دراسة بمقـال بالاسبانية ، فهى ستترسله الى فى كتاب تعدده بلفة قومها .

والذى بحث الى نفسى الرضا أنها كتبت بالعربية عنوان منزلى بدمشق مفصلاً ، فقلت يا لله ! من أين حصلت على عنوانى ، وجعلت أثنى بينى وبين نفسى على شهادتها الادبية ووجدانها الناضج والاهور ونقاها فى التأليف .

.. بادرت مسرعا مستجيبا للمستشرقة الادبية — ليونور —

وأهديت اليها من مكتبى ، واتصلت المراسلة بيننا ، فإذا هى دكتورة فى الفلسفة والادب ، تفيض مع زوجها الاديب الكبير المستشرق بالصربية الدكتور — خوان برنيت جعفر — وتبينت من صورتها أنها شابة حسنة يهنا بها زوجها ، وأن لها ثلاث طفلات كبراهن فى السابعة .

ثم أرسلت الى مجموعة من مؤلفاتها وآثار زوجها ، وبين هذه — الكتب سفر نفيس أنيق الطباعة عنوانه — ليتيرا تورا آرابيا — ، وقصد

عرفت في مراجعة هذه الكتب النفائس ، أن الادبية وزوجها استاذان
للغة العربية وآدابها ، ولل فلسفة الاسلامية بكلية الاداب والفلسفة
بجامعة برشلونة ، وأن زوجها عضو عامل في المجمع الادبي والفلسفي
ببرشلونة .

وكت مريضا فزاد تألمي حين أعلمتني أنها مقبلة على اجراء
جراحة لاستئصال مرازمتها ، فكنت اليها حائقا ، ثائرا على تلك
الحصيات ، اللواتي حللن ضيقان ثقيلان على كبدها الغالية .

وانساب شهران وأنا عليها قلق ، كما كان قلقى على اختسى
"منيرة" التي كانت قد أصيبت بمثل ذلك ، حتى ورد على الكتاب
يحمل الى نفسى السرور بأبلاذ أختى الروحية الاسبانية ، فانتطلسق
لسانى بالحمد لله .

اذ وجدتها وزوجها البليل ، راعيين للغة القرآن في ديسار
الاندلس ، وكأنهما يجددان عهد قرطبة وغرناطة وسائر حواضر
الاندلس في عصور ازدهارها المعروض الخاير " . . . الخ والحق طویل .

ب- المقالة الادبية

ومن أدب المقالة في تراث المحاسنى مجموعة من المقالات
الادبية التي تصور مذهبه في الادب ونظرتة الى قضايا وظواهره
وأشكاله ، وما طرا عليه من تجديد أو ابتكار في هذا العصر .

وتكشف هذه المقالات عن الملمح المحاسنى بتلك القضايا والظواهر الملمحة فريداً ، كما أنها تبين عمق ثقافته وغزارة مادته وتنوع معارفه .

اذ لم يكف المحاسنى فيها بتصوير هذه القضايا والظواهر فى أدب المصرب وحده ، ولكنه تناول فيها بعض الاجناس والقضايا الادبية فى آداب الامم الاخرى - من فرنسية واسبانية وغيرها - كما عرّف بحدود من اعلام الادب الاوربي .

ومن هذه المقالات مقالة بعنوان - العناية بالشعر المعاصر (١) -

منها قوله :

- "وقفت على مجموعة للشعر الفرنسى المعاصر يقع فى كلب خمسة ، ألف بينها جميعا الاستاذ جورج والشن أحد النقاد الذواقين ، وكتب مقدمة ثلاثة منها الشاعر المشهور سوللى برودوم قصرها على شعراء عاشوا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل عشرين هذا .

أما الجران الهاتيان فواحد منها لشعراء الاس والميوم والاخر لشعراء الساعة ، وحين أخذت أنظر فى الطائفة المعاصرة لم أجد المؤلف قد هان عليه الادب فحشر بين هذه الطائفة نفرا من المبتدئين ، اذ كان عنده أن الشعراء فرانسيس كاركوبيركامو وجول رومان من أقدان الشعر الحديث .

(١) مجلة الاديب عدد يناير ١٩٥١ .

وكت أعلم أن كاركورومان من كهنة الادب ، فاذا الاستاذ
والمن يعرضهما في معرض الحدائق المعاصرة والطرافة الاخيرة
في الشعر .

فرحت أذكر شعرنا المعاصر وما صنعنا من أجله ، وذهبت
في العفاوة بهذا الشعر مذهباً لا يتقبله من الكثيرون .

على أن أول ما ينبغي أن يعلمه ناشئة الادب هو هذا الشعر ،
لكن مناهج الدراسة الادبية في مدارس البلاد العربية وجامعاتها
انما تبدأ بشعر الجاهلين الذين يضي بهم امرؤ القيس فسوى
مجاهل الصحراء ، فيتبهم الناشئون الدارسون لشعرهم القديم ،
فيضعون وراءهم في زمال البادية ، كما يضيع ركب ضل الطريق
فهلك عطشا ، وقد طال عجبى لانصراف العرب المعاصرين عن
المنية بشعر العصر ، ويت أحل سبب هذا الانصراف وأطلسه
فوجدته يعود الى نزعة سيئة في أخلاق التأديب الحديث .

وهي كره المشاهد المعروفة والولوع بالبعيد الغريب ولا سبيل الى
وصف هذا التحليل الا باللجوء الى دراسة روح الجماعات لمعرفة
الاسباب فتتكبها طرق الصواب وكيف كان الامر فان هذا يدل على
أن الامة العربية المعاصرة لا تعيش في أدبها الا في جو من الاحلام القديمة
وهذا خطأ وتقصير .

" ومن الخير لنا أن نجتمع بين الفضلين ، فننشر ما انطوى من آثار
الاقدمين مع ما حضر من بدائع المحدثين .

• كنت أتجههم له وأجتوبه ، وقد ساءت علاقتي الادبية
مع بعض أهليه من المدخلين للضميم به على لغتنا وان تكن فليس
صلة فكرية ووشائج أدبية مع المبدعين فيه ، والمريدين للشعر الحديث
محاولات التطور شأن ما يعترض كل أدب في كل زمن .

نظرت في هذا الضرب من القول الشاعر فوجدت كثيره لا يستقيم
له وزن ، فليس يجرى على وحدة وزنية من تفاعيل الخليل بن أحمد
القراهيدي في أبحر الشعر الستة عشر ، التي وضع موازينها وأقيمتها
ولا يعضى مع المجزئات منها ولا المنهوكات ، فحرت بأمره .

انه كلام وكفى بعضه عرى من النظم الموسيقى ، الذي يلزم اللفظ
المربى المنسق ، اذا ضم الى غيره في جملة واحدة تنشأ من كلمتين
أو أكثر ، وبعضه يجرى على تفعيلة أو يشرذم فيتناول تفعيلة ثالثة ،
وقد يلتزم قافية متواترة ، أو يهمل التقفية والروي جميعا .

وسمعت منه ألوانا من شعراء وشاعرات سماط مع الجمهور
أو وحدي لا أنكر أنه دخل الى نفسي وهزني ، ومنه ما ملك اعجابي
لا بنظمه ، فان نظمه ما زال جانيا عندي ، وانا أثر في بعمانيته
العميقة ، وأغواره الشاعرة ، حتى ظننتني أسمع شعرا في الفرنسية
ما أجده في هذه الأغوار والممانى .

كان أقدم من أجاد في هذا الفن صديقي الاستاذ (البيرواديب)
محرر مجلة الاديب البيروتية حين أصدر ديوانه — لمن — ، وأشعار

ديوانه هذا مقولات في النقد والاعجاب ، وكنت أحد دارسيه والقائلين
كلمة كلمة فيه (١) .

ان كلمة واحدة من ديوان " لمن " كانت مشحونة بشعور ومثيرة
لفكر لا تنتهي . وسر الكلمة الواحدة يحتوى مالا حد له من الحوادث
والشاهد والتاريخ .. الخ .

وبعض المحاسنى في هذا المقال الى أن يقول : " كذلك كنت
أشعر وأنا أقرأ في تعمق وانسياب هذا الديوان ، ومن قبل صدوره
بل في زمن أبعد في رجعتي قرأت مقالا لأديب فرنسي معاصر نشره
في جريدة " كرانفوار " التي احتجبت منذ الحرب العالمية الثانية ،
وكان في ذلك الوقت قد شاع شعر النابغة العظيم - بول فاليري -
وخفت الصحف وحشدت الكتب من أجل شرح رائعته النادرة فسمى
قصيدته التي سماها - المقبرة البحرية - فكان ذلك المقال المنيف
نقدا جارحا لأشعراء محدثين من الكهول والشبان أخذوا يقلدون
بول فاليري في تعمية الشعر وسد أبواب المعاني على نفسها ، فقرأ
لهم كلاما لا تفهم فيه معنى لانه لا يقوم على معنى .

(١) للمحاسنى مقالة عن هذا الديوان نشرت في مجلة الاديب
عدد يوليو ١٩٥٢ بعنوان حول - لمن - مجموعة من اشعر الرمزى
المطلق لالبيرو اديب . وانظر نشأة المذهب الرمزى وخصائصه في
كتاب - معالم النقد الادبى للدكتور عبد الرحمن عثمان ص ٢٠ وما بعده .

أما معاني بول فاليرى فكانت مفضوحة من عجم الذهن والانسان المدرك والمصور ، وفياضة بالفلسفة ووراء كل كلمة معنى خاص لا يدرك عليه المعجم لانه فوق المعجم ، بل أقول ان بول فاليرى كان عليه قبل موته أن يولف معجما في لغته خاصا بفردات شعره ٠٠٠ الخ .

وله في هذا الباب مقالة طريفة بعنوان - * طابع الادب السوري (١) الجديد * بث فيها آراء في الادب المصري ، وفي الادب السوري المعاصر ، كما استعرض فيها أطوار التجديد التي ظفر بها الأدب المصري ، لاسيما في عصر النهضة الحديثة ومنها قوله :

" بقي الانصاف للشعر السوري الحديث في طرق معانيه بمسند أن فات كثيره الهاني ، فان لبعض الشعراء وخاصة الذين ظهرتوا في السنين الاخيرة معاني صافية تسمو الى آفاق رفيعة ، وتنزل هذه المعاني في قوالب قديمة أو حديثة فتكسب زينة وجمالا .

وكل هذا قليل اذا قيس بأداب الامم في فترات اليقظة والتحفيز وفي مراس الحوادث والمحن ، وان الكوارث التي أصابت أمنا العربية منذ عشرين عاما حتى الان لكافية ان تكون حوافز لادب موفور الكرامة الخ

ولم يكن الادب المصري وحده مادة لمقالات المحاسني الادبية ولكنه كان يتخذ من الادب الغربي مادة لتلك المقالات التي أخذت هذا الطابع يستجلى فيها بعض الظواهر الادبية أو يفسر بعض القضايا أو يعرف ببعض الشخصيات .

(١) هذه المقالة مشتهة في كتاب - فصول من الثقافة المعاصرة ص ٧٦ - ٨٤ .

ومن نماذج ذلك في أدبه مقالة عنوانها : السويد أرض الشعر —

يقول في بعض فقرها :

" منذ كتبت في الأدب الاغربي (٢) قصيدتي لذكرى الادبيسة
والقاصة السويدية " سلما لاغرلوف " فأهديت هذه القصيدة السي
الصديق كبير أدباء السويد الدكتور الاستاذ " أندريس أوسترلنغ " .
وأنا أحس أن طائفا يعبق بخاطري ، ويدور في خلدي
لأنشق ريا أدب السويد الصافي كنفس أهليه ، كما ينشق — من
نغم شميمه بمطر لا يفنى .

فرحت أجول في أنموذجات من شعر الشعراء السويديين
ونواقر من أدبهم الرقيق في ملفات نقلت من لغتهم الى الفرنسية
وقد حصلت على بعضها بطلب من ناشرها بياريس ، فإذا أنا تلقاء
دنيا سكنت أعالي أوربة الغربية مقترجة بالهجر لا تعرف الحسرة ،
ويتراعى عليها نسيم رخى من جبالها الثلجية ، وإذا هي تشبه
في طيب اقليهما " أولمب الاغريق " المثل على بحر " ايجسه " .
حيث أطلع الفلسفة الهلينية المنيفة وسكب على البيان الانساني
اشعار الفاتنة " صوفى " والفانية " مازيديكا " .

حتى أتى جبار الشعر والملاحم هو ميروس فننى على قيثارة
الابدى ألحان الاساطير في الالياذة والادبيسة .

(١) مجلة الاديب عدد يونيو ١٩٧١ .

(٢) مجلة الاديب عدد نوفمبر ١٩٦٦ .

كذلك وقت ساحة السويد " سلمى لاغولوف " بحقلها النير
وابمعها الرجولى الفياض بالخير والجمال ، ومواهبها فى الادب شعرا
ونثرا وقصة ، تعطى العالم من اقصاه الى أدناه ثمرة سويدية شهية ،
فى مديد عمر ملأته بالعلم والحنان والتقوى ، وأطلعت فيه قصصا لها
ومؤلفات نقلت الى لغات العالم ، حتى استراحت سنة ١٩٣٩ تحت
ظلال جنة من جنات بلادها ، تسمع بروحها تراتيل الثناء عليها فى
صباها وكهولتها وشيوخها الثقية وهى ناضرة النفس مجللة بالمعزة
القومية والوقار الفكرى ، وهبت حياتها العظيمة للوفاء والغدا .

أما كبير أدباء السويد الصديق الدكتور " آندريس أوسترنسغ "
عضو المجمع الادبى السويدى ، فانه من بناء الاجيال السويدية فى
الادب والشعر وفى الفكر والفن ، فى سابق زمانه وحديثه ، وقد نقل
الى الفرنسية المؤلف جان فيكتور بليزان قصائد مختارة من شعراء
السويد فى طليعتهم آندريس أو سترلنغ فى كتاب سماء المختارات أصدره
سنة ١٩٤٧ .

كلما صدرت ببائس مجموعة عام ١٩٦٤ فى مجلة " رومبالسدى "
ضمت الخطبة المجمعة الرائعة التى خطبها " أوسترنسغ " فى المجمع
الادبى السويدى عشية استقباله عضوا فيه ، وقد نقلها الى الفرنسية
الاديب سترومبى .

وانى لا تشهى أن أرى آثار المعلم العظيم أوسترنسغ ،
الذى ولد أواخر القرن الماضى ، وظل حتى اليوم حارسا للأدب ...
وموجهها له فى مطالع أجيال كازاهير لاتغنى .

وفى قرائح تلاميذه ولداته وأصدقائه من كرام شعراء السويد ، فأجدنى
وجها لوجه مع الشاعر المطبوع كارل رينيار جييروا فى قصيدة لـ
يصف فيها استشهاد جندى من الأبال ، وقد ضحك الشرى دمه ،
واقصته جذوره ، فيلمح فى خاطرى شاعرنا العظيم أهتمام الطائسى
حين رثى البطل محمد بن حميد الطوسى قائد الجبهة الشرقية
فى خراسان وما وراء النهر فى المعصر المباسى ، كيف صور دم
هذا البطل الشهيد ، وكيف استحال نجيمه من أحمر قان السى
حلة سندسية خضراء عند قوله :

تردى ثياب الموت حمرا فمادجا لها الليل الا وهى من سلعوس خضر
فيالله ! كيف يلهم مثل هذا المعنى الشاعر السويدي " جييرو " ان
" جييرو " يقول بلسانى فى الشعر المصري (فى قصيدته التى سماها
" الثانى " من مجموعة دوران ص ١٧٠ طبعة أوربية بياريس :

فلا تقدروا وزنى بحوزان عدلكم
ولا تحكوا فيما دهانى بحكمكم
فانى بميد عن أذاة وخيسر
أحسن بانى صرت جبار دهركم
رضمت مقالانى بصبر وقسوة
وقد علمتى كيف أحيا بشدة
ومن جبروت كان قدما ملازمسى
كجنية تسمى لحتفى وغمرسى

أدري دما مقداره في جسمي
دما لمصرى في الجسم تهولني
وكم أنا مهتل بها حيثما سميت
بي القدم العثراء حقا تسونني

أما قصيدة الشاعر الكبير " جييرو " التي سماها " وحدتو غزلة " فيقول
فيها بضمري :

تأتي السنون وتذهب
من فوق غرس الزموني
وامرأة تشي السني
جنبك بالسعد الهني
ومضت بنا أعوامنا
تنهي روايات الحيات
ماذا تريد امرأة
هامت على وجه السني ؟
فاسمع " اذن " قلبي بمنا
تصفي بأذنك فوقني
تجد الوحيد به رمسي
حزنا يهدد حزني
.....

وانني لأجد الرمزية عميقة في شعر " كارل جييرو " الذي
يمش بخطاير مجنحة في آفاق التأمل ، وإذا جاء بالفلسفة فأنمنا

يجود بها سهلة لينة غير معتقة ، ولا تهتم على القلق والحيرة ومراوغة
الاعتقاد ، وهي لا تموزى العقيدة ولا تنس ، الى الاخلاق والاداب .

والمقالة طويلة وبها تحريف ببعض اعلام الشعر السورى ، على
هذا النمط السابق .

وهي تدل على غزارة ثقافة المحاسنى ، وتمدد روافدها ، ان لم
يكف فى مقالاته بتصوير قضايا الادب العربى وظواهره ، وانما تجاوزها
الى الحديث عن الادب الاوربى ، متخذاً من قضايا ، واعلام مادة خصبة
لمقالاته .

ولندعه يصور لنا فى مقالة أخرى جانباً من تاريخ المذاهب
الادبية الاوربية وتأثير أدبنا بها على هذا النحو : " حين هب هوجسو
وجماعة الرومانتيكيين بمذهبهم الذى هدموا بهما الفن الكلاسيكى زلزلوا
الادب فى أوربة ، وأسروا فى لياليه شهبا جديدة أنارت ظلماته ، ثم
أطلعوا كواكبهم المتلألئة .

وحدثت بمعدئذ هزة أقوى ، حين دمر على الرومانتيكيين مذهب
الرمزيين ، فكان بودلير وفيرلين موقدى النار فى ذلك الهشيم ، وشهدت
الاعوام الاولى من عصرنا حفاوة الادب بالرمزية ، ووصم الادب الرومانتيكى
بالفراغ والرنين اللفظى .

لقد أضحت التراثيل الفنية للرمزية تقديساً ، ووجد الدارسون والمحللون
للأدب فى الرمزية تمازج الروح والمقل (١) .

(١) نقلا عن - فصول من الثقافة المعاصرة .

ولقد تحدث المحاسنى عن اهتمامه بأدب الغرب وعنايته
بترجمة بعض روائعه كما فعل بعض أدبائنا الكبار (١) ، قائلا : " ولقد
عرف قرائى فى مجلة الاديب ، التى أكتب فيها منذ ثلاثين عاما فى
دأب مستمر أن قلمى لا يهذى أحدا ، وأننى بنيت أدبى بلبنات من
المودة والحب ، وكانت غيرتى على لغة العرب وشعرها القديم
مصروفة فى العالم العربى والاستشراقى .

و درجت فى كلالى على الشعر العربى أن أوتر ترجمته منظوما
مقفى وموزونا لا تردى فيه .

وكم نفرت من أن أصوغ الشعر الا بلغة الشعر . . الخ " (٢)

جـ - المقالة النقدية

وتتمثل المقالة النقدية فى آثار المحاسنى فى مجموعة المقالات
التي كان يدبجها فى مجلة الاديب تحت عنوان - مكتبة الاديب -
وضمها بعض آرائه فى كتب الادب والنقد والصفات الاخرى ، التى
كانت تنشرها المكتبات الثقافية ودور النشر فى الوطن العربى - على
عهد المحاسنى - .

وتحت يدى طائفة من هذه المقالات النقدية التطبيقية ، التى تدل
على إلمام المحاسنى بثقافة عصره ، كما تصور عمق هذه الثقافة وتعدد نخبها .

(١) انظر على سبيل المثال نماذج من هذه الترجمات فى كتاب - حافظ

وشوقى للدكتور طه حسين .

(٢) مجلتا الاديب - عدد - اكتوبر ١٩٧١ .

وقد سار فيها جميعها على منهج واحد في التنسيق والبناء ،
وفي المرض والتصميم ، فيبدأ بالتصريف بصاحب الاثر ، وعرض
مؤلفه عرضا موجزا يناسب حجم المقالة ، ثم يبدأ ملحوظاته اذا بدرت له .

ومن هذه المقالات واحدة قرط فيها رواية ^(١) — بداية ونهاية —

للكاتب الروائي الكبير الاستاذ نجيب محفوظ . على هذا الشكل

اما الكتاب الذي بين يدي اليوم فهو قصة " بدايت ونهاية "
للاستاذ القصصى نجيب محفوظ ، وهو قاص خير ، لا يكاد ينتهى من كتاب
فيهدمه الى الطبع والنشر ، حتى يشتغل بآخر ، وآخر ماصدر عنه
روايته هذه .

والاستاذ نجيب محفوظ نسيج وحده في القصة ، لم ينسحب
على اذيال غيره ، وخير ما يميز فنه القصصى عنصر المفاجأة ، فما أبرعه
في ساق الطرائف بقصصه ، وهل كان شئ يملك على اعجاب القارئ
اكثر من المفاجأة ؟

وحقا أقول ان هذا الفن في الاغراء أمر عجيب في قصص الاستاذ
نجيب ، ولست مع هذا التقدير له من دالة هذا الضرب الذى يقصد
اليه القاصون قصدا ليخلعوا على آثارهم بوادى الطرافة والملاحه ، وانى
أرى هذا الاغراء وان كان سبيلا الى اعطاء القصة حياة جديدة — هو
ارضاء للقارئ ، وكسب له اكثر من ارضاء الفن وابتغاء لغايته .

(١) مجلة الاديب عدد اكتوبر ١٩٥١ .

ومن فن الاستاذ نجيب محفوظ في قصصه ، أنه طويل الانفاس
يمسك بالسيرة ويرى عين قارئه على عالم كامل ، كما فعل في قصته
هذه الاخيرة وما من مذهب تلخيصها ، فهو يفصل القول ويسهب
في الوصف ويأتى على الدقائق في الافعال والحركات ، فكأنك
ان تقرا له ترى شريطا سينمائيا ، ومن هذا النحو صلت قصته
للاخراج السينمائى . *

وواضح في هذا المقال الروح النقدى الموضوعى الذى اتسم
به المحاسنى ، فهو يذكر المثالب الى جانب المحاسن في العمل
الأدبى ، ولا يطلق القول على عواهنه ولكنه يجنح الى التعميل القنح في
أحكامه ، منبها على ما يرضى الجمهور من التسلية والتممة ، وما يرضى
الفن من الدقة والاحكام والالتزام بالقواعد والتقيد بالاصول -
كما سبق في قوله ، وكما نبه عليه في آخر مقالته على هذا النحو :

" ولست كذلك من دعاة هذه الطريقة الايضاحية - لقد كان بعض
الكتاب في فرانسة يعيبون فكتور هوجو حين وقع في الاستقصاء القصصى ،
فالقارى لا يظالهننا بدقائق الاشياء ، وليس يطبق أن يدخل معنا في
الزوايا فنحن لا نكتب لأنفسنا ، وانما نكتب من أجل غيرنا ، ودليل هذا
أننا نسمى للنشر والطبع ونذل الناس على كتبنا وآثارنا بمقدار ذيووعها "

ومن مزايا قصص نجيب محفوظ فيما يرى المحاسنى : " أنه أوتى
التسلط على الطرافة فليس فنه باليا ، فهو يتناول قصصه من صميم
الحياة ، وفهمه عجيب لروح الالبقات وخاصة الطبقة الدنيا ، ومن هنا

أجده شعبى الفن ، يحس بألم الناس فيصور هذا الالم فى قصصه
ويشعر بفرحة الناس ، فيرسم هذه الفرحة ، ان جاز أن أجمال
الفرحة والالم مما يمكن رسمه وتصويره .

ومن آثاره فى ذلك أيضا مقالة فى نقد كتاب — الزحف على
لغة القرآن — لمؤلفه أحمد عبدالغفور عطار .

وبدأها بقوله : " لقد عرف قرائى وقارئى فى الاديب الاغسر
منذ أكثر من ربع قرن ، أننى منذ كنت أكتب لهم ، أفضى بنفسى على
سجيتها ، فاست أميل الى التصنع عندهم ، ولا أن أبدو مغلطا لديهم .

فهم عشيرة فكرى ومثابة نظرى وموضع ودى ، وانى اليوم أقدم اليهم
كتابا خطيرا ، يهز كيان الادب والفن والفكر ، ليجردها فى هذا الكيان
من زيوف الباطل ودعوة الهدم والانهييار ، ومن بث الشك فى الدرب
الكبير ، الذى ينبغى أن تمشى فيه مواكب المروية فى القرن العشرين
حفيظة على لغة الضاد وهى فى ظليل وارف من حصى القرآن .

هذا الكتاب الخطير هو " الزحف على لغة القرآن " ومؤلفه
الكاتب الكبير الفيلسوف الاسلامى أحمد عبدالغفور عطار .

وبعد أن عرف بالمؤلف ومكانته انتقل الى التنويه بمباحث
الكتاب قائلا —

أما المؤلف " الصلار " فقد بدأ ضاحيا امام خصوم العربية والزاحفين
وبأيديهم معاول التهديم لمجدها الابدى ، وقد تسعوا بالشموبيـة

ودعاة العامة ، وبخضاة اللغة والبيان ، فسامهم بأسمائهم ، ووزاجهم
في ساحة الجدل تارة والقتال تارات ، وكان محاربا وحيدا فتح لنفسه
جبهات عديدة — كما نقول بلغة عصرنا في الكلام على الحرب —

وأظفره اخلاصه للغة العرب وبيان القرآن بنصر مبین ، يدحر
خصوم هذه اللغة السمحة ، التي ملأت المقول وعمرت القلوب ، وأعطت
النفوس أسرار الفصاحة والبلاغة فشقت بها اللسان بالاسحر الحلال
والتمبير الذي يزينه الفكر الالهي والهدايع الرسولية* الخ .

وله في هذا الفن الادبي مقالات عديدة منها غير ما ذكرت — تحت

عنوان — مكتبة الاديب —

- (١) مقالة عن كتاب — الفلكلور الغنائي عند العرب — لنسيب الاختيار .
- (٢) مقالة عن كتاب — أحلام النهار — للدكتور ميشال سليمان .
- (٣) مقالة عن كتاب — صوتي باحثا عند ربی — للدكتور محمد عزيز الحبابي .
- (٤) مقالة عن كتاب — عروبة لبنان — محمد جميل بيهم .
- (٥) مقالة عن كتاب — شروق من الغرب — للدكتور زكي نجيب محمود .
- (٦) مقالة عن كتاب — آداب السلوك — للكاتب السوري المعاصر روجي حبيب .

(١) مجلة الاديب عدد مايو ١٩٦٦ .

(٢) مجلة الاديب عدد فبراير ١٩٦٩ .

(٣) مجلة الاديب عدد مارس ١٩٦٩ .

(٤) مجلة الاديب عدد يوليو ١٩٦٩ .

(٥) مجلة الاديب عدد مايو ١٩٥٢ .

(٦) مجلة الاديب عدد مايو ١٩٥١ .

ولم تكن هذه المقالات مستمدة من كتب اللسان العربي وحده ،
وانما امتد ذوقه النقدي المتمرس الى بعض الآثار المكتوبة باللسان
الغربي ، فترجمها الى اللغة العربية ، ثم أبدى فيها رأيه الحبيب
يدعمه الذوق المثقف والمعرفة الواسعة بمقاييس هذه الآثار ، وذلك
في حكم وجيز لا تضيق بالمقالة ، التي تنبسطها المقاييس الفنية الدقيقة .

(١) ومن آثاره في ذلك دراسته عن — بارانتيز —

وهي مجموعة قصائد بالفرنسية للأنسة هدى البهر أديب تقع في
ثمانين صفحة ، وترجمها المحاسنى الى العربية شعرا ، مع التزامه بسروح
الشعر وجوهره ووزنه وثقافته ،

ثم قال فيه كلمته على هذا النحو :

" وديوان هدى " شعر وجداني بحث يعرج بالافكار والخواطر
المادة المتراوحة بين التأمل والفلسفة التي لا تضنى العقل ، فكانت
أنغام سلسلة مصفاة " .

كما يقول : " والديوان تناسق أنغام ملائكية وصور وتالوين
استلاعت قريحة الشاعرة الموهوبة الأنسة " هدى أديب " أن تسكب
فيها الحياة في أطر سابية ، فكانها من صنع مصور ماهر ، وقد اتخذت
الشاعرة أسماء رمزية لبعض قصائد ها .

(١) — بارانتيز — كلمة فرنسية وترجمتها الى العربية — مقترضة — والمقالة

نشرت في مجلة الاديب عدد ابريل ١٩٦٩ .

كقولها : في فضاء الراحة ، وبصمات في سواد .
ولقد احتوت المقالة على نماذج قصيرة من شعر الديوان منها
قصيدة — ممتنضة — التي جاءت في أواخر الديوان كما يقول المحاسني
ومنها :

في الساعة المتراوحة
الجائفة في الانتظار
في برهة تشـور
وساعة رهمن المشول
والأزاهير هي الأزاهير
هففن في نهار واحد
يصعدن السـرور
ثم اثنين ذاهبات

ثم يقول المحاسني معلقا على قصائد الديوان في جملة منها
" وتسيطر على الديوان في أكثر قصائده كلمات السأم واللال والانتظار
وهذا دليل مكن بأن قلب الشاعرة مملأ بخامره الفجر ، فهو ينتظر
بزوغ الشمس الساطعة في النهار الكبير . . . الخ " .

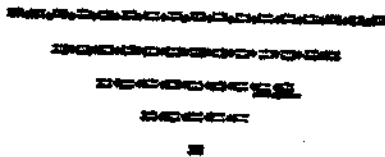
وبعد : فهذا أبرز أدبه النثري ، الذي تمثل في مجموعة المقالات
السابقة التي صنفناها طبقا لما استقام لنا من موضوعاتها وأغراضها .

وهي تكشف عن فكر ثاقب ، ووجدان دافق ، وطبع سليم ،
وذوق متمرس ، كما أنها تعبر عن غزارة الثقافة وتعدد روافدها .

ومن المفيد أن نلمح هنا إلى أن أسلوب هذه المقالات
قد تفاوت بناءً وفناً ، وترسلاً أو تصنيفاً .

فمقالاته الأدبية والنقدية ، قد التزم فيها بالأسلوب العرسل
الخالى في معظمه من الصنعة والبهرج ، أو الزخرف والتزيين ،
لأنه احتشد للموضوع ومعالجته ، مستهدفاً الوصول إلى نتيجة
منطقية ، يقتنع بها العقل ، قبل أن يتأثر بها الوجدان ، ومن
ثم لم يحفل بالصنعة والبديع والخيال والصورة .

أما مقالاته الانشائية ، فلقد بدا فيها الاهتمام بالصقل
والتجويد والتأنق والتصنع ، حتى غدت عنده من أرقى نماذج النشر
الفني الانشائي في الأدب العربي المعاصر (١) .



(١) انظر: السمات الفنية لأدب المقالة في كتاب: الأسلوب للاستاذ
أحمد الشايب .

خاتمة البحث

=====

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله ولي الحمد ، وصدر الالهام والتوفيق .
أحمد ، وأثنى على آلائه ، وأصلى وأسلم على صفوة خلقه وخاتم
أنبيائه . محمد صلى الله عليه وسلم - وعلى أصفائه وأوليائه .

وسعد : فهذا هو بحثي عن (الدكتور زكي المحاسني - حياته
وأدبه * الذي أتشرف بتقديمه الى كلية اللغة العربية - بجامعة
الأزهر للحصول على درجة التخصيص (الماجستير) في الأدب والنقد .

وهذا البحث يسعد بأن الاشراف فيه ، كان الى علم من
أعلام الأدب والنقد في العالم العربي ، وهو الأستاذ الدكتور
حسن جاد - عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف .

وقد سعد صاحب هذا البحث بحسن توجيه أستاذنا الجليل ،
وكريم عنايته وطويل رعايته ، مما أثمر الثمرة المظلمة منه فاستوى
البحث على سوقه ، وكان رسالة علمية منهجية عن حياة هذا الأديب
الكبير والناقد الجليل ، والشاعر الملم ، والباحث النابه ، الدكتور
زكي المحاسني وعن آثاره وأدبه .

■ ■ ■

ولا غنى لي في نهاية هذا البحث ، بأن أؤكد أن هذا
البحث جديد في كل ما تضمنه ، وأنه أول بحث يصدر عن حياة
وأدب المحاسني وأن المعلومات التي تضمنها تكتب لأول مرة .

وأنه قد انتهى الى نتائج حيوية ملموسة لعل من أبرزها مايلي :

١ — كشف هذا البحث عن مدى تأثير الأدب العربي في مصر — شكلا ومضمونا — في أدب السوريين ، الذين تأثروا ونسجوا على غرارهم ، وساروا في ركابه ، وشاركوا بتتاجهم الأدبي شعرا ونثرا في تأصيل النهضة الأدبية المعاصرة ، التي نهضتها الآداب المصرية في مصر وفي غيرها من الاقطار العربية .

٢ — عرف البحث بأديب من أدباء العروة والاسلام في هذا القرن ، ممن شاركوا بأديبهم في خدمة قضايا التراث العربي وكشف النقاب عن روائعه وأعلامه ومذاهبه ، وذلك في بحوثه الادبية الفريدة ، التي وضع فيها الأدباء والشعراء والكتاب العرب في مختلف عصور العربية — موضعهم اللائق الصحيح .

٣ — أبان البحث عن قيمة أدب المحاسني وحججه بين الآداب المعاصرة كما كشف عن روافد ثقافته ، ومنابع مفارقه وهي غزيرة متعددة المناحي ، وان كان أصلها هو الثقافة العربية الاصلية ، التي احتفت بكل جديد يرفدها ويجدد حيويتها ، ويدعم أصالتها دون أن يمسح أصولها ، أو يشوه حقائقها .

٤ — كشف البحث عن تعدد مواهب المحاسني وتنوع ملكاته ، فهو باحث أصيل مقتدر ، وكاتب بليغ ضليع ، وشاعر مدح ملهم ، وقد تمكن من أن يوائم بين هذه الملكات جميعا في قوة ومهارة وبراعة واقتدار .

٥ - اهتدى البحث الى التصريف بشاعرية المحاسنى الخصبه ، التى
حلقت فى كل واد ، وطرقت كل باب من أبواب الشعر وفنونه
فهو شاعر غنائى ذو وجدان فردى وجماعى ، تبدو فى شعره
النزعة الرومانسية والكلاسيكية معا .

كما أنه شاعر من شعراء الملحمة العربية فى هذا القرن ،
عنى فى دراساته الأدبية بأدب الملاحم ، وكشف عن وجوده فى تراث
شعراء العربية الكبار ، كابى تمام والبحترى والمتنبى وأبى فراس الحمدانى
وغيرهم من الشعراء الموهوبين قديما وحديثا ، مخالفا فى ذلك
ما رده بعض المستشرقين ، وتبهم فيه بعض الشرقيين ممن طاب
لهم أن يصرخوا الآداب العربية من هذه الهزة ، وأن يجردوها من
أدب الملاحم الذى ظهر فى تراث اليونان والرومان والهنود والفرس
وعللوا ذلك بقصور الشعراء العرب وضعف تخيلهم ، وضالة حظهم
من الابتكار والخلق ، وقلة معارفهم وثقافتهم ، التى نأت بهم عن
روعة التخيل وتمجيد الأبطال ، والتغنى بالمثل العليا ، وهو
ما يتطلبه هذا اللون من الشعر .

كما أنه نظم فى هذا الفن أناشيد ملحمية قوية ، استمد مادتها
من التراث العربى الاسلامى الخالد ، وعانها فى قالب متين النسيج
رتيب الموسيقى ، حلو النغم .

كذلك استمد بعض موضوعات شعره ، من الاساطير اليونانية
القديمة ، التي تصور معتقدات اليونانيين قديما ، ونظمها شعرا
أسطوريا كما هو مفصل في هذا البحث .

ومعد : فاني أتوجه بالحمد والشكر الى العلى عز وجل ،
وأسأله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم .

كما أتوجه بخالص الشكر الى أستاذي الجليل ، الدكتور
حسن جاد داعيا الله له بالتوفيق الدائم في خدمة الأدب ولغة
العرب

والحمد لله أولا وأخيرا ، والصلاة والسلام على خير أنبيائه ، وصفوة
رسله محمد بن عبد الله ، النبي المرسل الأمين ، صلى الله عليه
وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .

والله الموفق .

خير الدين كم الهاز

٣١ من مايو ١٩٢٨

=====

مراجع البحث ومصادره

أولا - كتب المترجم له المطبوعة

- ١ - أبو العلا ناقد المجتمع دار الفكر العربي القاهرة ١٩٤٥
- ٢ - إبراهيم طوقان شاعر فلسطين دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٢
- ٣ - أحمد أمين نشر معهد الدراسات العربية الماليسية بالقاهرة ١٩٦٣
- ٤ - أدب الملاحم والملحة المصرية محاضرة طبع مطبعة الازهر ١٩٦٢
- ٥ - الأدب الدينى نشر مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٢٠
- ٦ - أساطير ملهمة دار المعارف بمصر ١٩٢١
- ٧ - دراسات فى تاريخ النهضة المصرية المعاصرة بالاشتراك نشر الجامعة العربية القاهرة ١٩٥٨
- ٨ - ديوان الشريف العقيلي - تحقيق وتعليق - دار احياء الكتب المصرية فى مصر مطبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة ١٩٥٥
- ٩ - الشاب الظريف المكتبة العباسية بدمشق ١٩٢٣
- ١٠ - شعر الحرب فى أدب العرب دار المعارف بمصر ١٩٢٠
- ١١ - عبدالوهاب عزام نشر معهد الدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦٨
- ١٢ - فقه اللغة المقارن مكتبة الصفدى بدمشق ١٩٢٢
- ١٣ - فى التراجم والنقد بيسروت ١٩٦٠
- ١٤ - قراءات أدبية مدرسية وتحليلية دمشق ١٩٦٠
- ١٥ - المتنبي دار المعارف بالقاهرة ١٩٢٠
- ١٦ - النواسى - شاعر من عبقر دار الأنوار بيسروت ١٩٢٠
- ١٧ - نظرات فى أدبنا المعاصر سلسلة المكتبة الثقافية بالقاهرة ١٩٦٢

ثانياً - مراجع عامية

- ١٨ - ابن زيدون د. حسن جساد القاهرة ١٩٥٨
- ١٩ - اتجاهات وآراء في النقد الحديث د. محمد نايف القاهرة ١٩٦٣
- ٢٠ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين القاهرة ١٩٦١
- ٢١ - اتجاهات الشعر الحر حسن توفيق المكتبة الثقافية القاهرة ١٩٦٩
- ٢٢ - الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان د. عبدالله حنا بيروت ١٩٥١
- ٢٣ - الأدب القمارن د. محمد غنيم هلال القاهرة ١٩٥٣
- ٢٤ - الأدب القمارن د. حسن جساد القاهرة ١٩٦٧
- ٢٥ - الأدب العربي في المهجر د. حسن جساد القاهرة ١٩٦٤
- ٢٦ - الأدب العربي المعاصر د. شوقي ضيف دار المعارف مصر ١٩٦٦
- ٢٧ - الأدب العربي المعاصر سامي الكيالسي في سورية دار الحديث حلب ١٩٦١
- ٢٨ - الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع أنور الجندي القاهرة ١٩٦٠
- ٢٩ - الأدب العربي الحديث أنور الجندي القاهرة ١٩٦٤
- ٣٠ - أدبنا وأدبنا في المهجر الأمريكية جورج صمدح معهد الدراسات المصرية القاهرة ١٩٦٢

٣١ —	الادب المعاصر في العالم العربي	د. سليمان الاغاني	القاهرة ١٩٦٧
٣٢ —	الادب والصحافة في مصر	د. عبد اللطيف حمزة	القاهرة ١٩٦١
٣٣ —	ادب المقالة الصحفية	د. عبد اللطيف حمزة	القاهرة ١٩٦٣
٣٤ —	الأزهر تاريخه وتطوره	لغيف من علماء الأزهر	نشر وزارة الاوقاف المصرية ١٩٦٥
٣٥ —	الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة	د. محمد كامل النقيس	المكتبة المنيرية القاهرة ١٩٦١
٣٦ —	الاسلام والتجديد في مصر	د. تشارلز آدمس ترجمة عباس محمود	القاهرة ١٩٣٠
٣٧ —	الاسلوب	أحمد الشايب	القاهرة ١٩٦٦
٣٨ —	الامم المظلمة ديوان شعري	أبير أديب	بيروت ١٩٦٨
٣٩ —	بلاغة العرب	د. أحمد ضيف	القاهرة ١٩٢٨
٤٠ —	البناء الفني للقصيدة العربية	د. محمد عبد المنعم خفاجي	القاهرة ١٩٦٣
٤١ —	تاريخ الاستاذ الامام ٣ أجزاء	محمد رشيد رضا	القاهرة ١٩٢٨
٤٢ —	تاريخ الأدب العربي	حنا الفاخوري	بيروت ١٩٦٠
٤٣ —	تاريخ العرب الحديث والمعاصر	لغيف من المؤرخين	وزارة التربية والتعليم المصرية القاهرة ١٩٧١
٤٤ —	تاريخ العرب الحديث والمعاصر	د. محمد أنيس	القاهرة ١٩٦٥
٤٥ —	تحية وذكري	لغيف من الأدباء والكتاب	دمشق ١٩٧٣

- ٤٦ - التيارات المعاصرة
في النقد الأدبي
د. بدوي طيانة
الانجلو -
الصرية ١٩٦٤
- ٤٧ - الثورة السورية
عبد الرحمن شبندر
دمشق ١٩٤١
- ٤٨ - الثورة العربية
الكبرى
عبد الرحمن شبندر
دمشق ١٩٣٥
- ٤٩ - ثورة المغرب
أحمد داغر
بيروت ١٩٤٩
- ٥٠ - جماعة أبولو وأثرها
في الشعر الحديث
د. عبد العزيز
الدسوقي
القاهرة ١٩٧١
- ٥١ - جولة في الشعر
العربي المعاصر
إبراهيم العريضي
بيروت ١٩٦٣
- ٥٢ - حافظ وشوقي
د. طه حسين
دار المعارف ١٩٣٦
- ٥٣ - حديث الأسماء ج٣
د. طه حسين
دار المعارف ١٩٤١
- ٥٤ - الحركة الأدبية
في حلب
سامي الكيالسي
مطبوعات الحديث
دمشق
- ٥٥ - خمسة من شعراء
الوطنية في مصر
لفيف من الكتاب
والأدباء
القاهرة ١٩٧١
- ٥٦ - دراسات في الأدب
العربي الحديث
ومدارسه
د. خاجسي
القاهرة ١٩٦٦
- ٥٧ - دراسات في المذاهب
الأدبية والاجتماعية
هاس المقصاد
القاهرة بدون
تاريخ
- ٥٨ - دراسات في نقد
الأدب العربي
د. بدوي طيانة
الانجلو والصرية
١٩٦٤
- ٥٩ - دراسات في الأدب
القناري
د. خاجسي
ط. أولى بدون تاريخ
- ٦٠ - الدولة العثمانية في
الشرق العربي
د. محمد أنيس
القاهرة ١٩٦٢

- ٦١ — ديوان شوتسى أحمد شوتسى المكتبة التجارية
القاهرة ١٩٣٠
- ٦٢ — ديوان الزركلى خير الدين الزركلى القاهرة ١٩٣٠
- ٦٣ — الديوان فى الادب والنقد المقاد والمازنسى ط٠ دار الشعب
القاهرة ١٩٧٤
- ٦٤ — رشيد رضا د٠ أحمد الشرباصى المجلس الاعلى
للشئون الاسلامية ١٩٦٨
- ٦٥ — رفاعة رافع الطهطاوى د٠ جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٥٣
- ٦٦ — الرمزى فى الادب العربى الحديث أنطون غطاس كسرم بيروت ١٩٥٩
- ٦٧ — رواد القومية العربية أنور الجنيسدى القاهرة ١٩٦٣
- ٦٨ — الرومانتيكية د٠ محمد غنيمى هلال القاهرة ١٩٤٩
- ٦٩ — زعماء الاصلاح فى العصر الحديث أحمد أميسن لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٩٣٦
- ٧٠ — ساطع الحصرى د٠ محمد عبد الرحمن القاهرة ١٩٦٩
- ٧١ — شعراء الوطنية عبد الرحمن الرافعى النهضة المصرية
١٩٦٠
- ٧٢ — شعراء سورية أحمد الجنيسدى دمشق ١٩٤٩
- ٧٣ — الشعر الحديث فى الاقليم السورى د٠ محمد سامى الدهان القاهرة ١٩٦٠
- ٧٤ — الشعر العربى الحديث فى مأساة د٠ كامل السوافيرى نهضة مصر
١٩٦٨

- ٧٥ — الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث مصطفى عبد اللطيف مطبعة المقتطف ١٩٤٨
- ٧٦ — الصحافة والادب في مصر د. عبد اللطيف حمزة القاهرة ١٩٦١
- ٧٧ — فصول من الثقافة المعاصرة د. محمد عبد المنعم خفاجي القاهرة ١٩٥٩
- ٧٨ — الفنون الأدبية وأعلامها أنيس المقدسي بيروت ١٩٥٥
- ٧٩ — في الادب الحديث ج. ز. أنيس المقدسي القاهرة ١٩٦٤
- ٨٠ — قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة بغداد ١٩٦٤
- ٨١ — القومية العربية والوحد الكبري أنور الجندي القاهرة ١٩٦٣
- ٨٢ — القومية والادب العربي الحديث د. محمد زغلول سلام الاسكندرية سلسلة اقرأ ٦٥
- ٨٣ — محاضرات عن الحركة الادبية في حلب سامي الكيالسي مطبعة الحديث بحلب ١٩٥٣
- ٨٤ — محاضرات في الشعر د. ابراهيم أبو الخشب القاهرة ١٩٧٠
- ٨٥ — محمد عبيد عباس محمود العقاد سلسلة أعمال العرب القاهرة العدد الأول
- ٨٦ — المسرحية ونشأتها في أدبنا العربي عمر الدسوقي مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٦١
- ٨٧ — معالم النقد الادبي د. عبد الرحمن حسان القاهرة ١٩٦٦

- ٨٨ - الملحمة العربية د. سعد الدين الجيزاوى ضمن سلسلة
المكتبة الثقافية
بالقاهرة
- ٨٩ - الملحمة فى الشعر د. سعد الدين الجيزاوى
المصرية
- ٩٠ - من الأدب المعاصر سامى الكياللى مطبعة الحديثة
بحلب ١٩٥٨
- ٩١ - النقد الأدبى الحديث د. محمد غنيمى هلال الانجلو المصرية
١٩٦٣
- ٩٢ - الهلال الذهبى محمد كرد عللى القاهرة ١٩٤٢
- ثالثا - الدوريات
=====
- ٩٣ - مجلة الاديب اللبنانية سلسلة أعداد مدونة فى هامش صفحات البحث
- ٩٤ - مجلة لرحمة اللبنانية
- ٩٥ - مجلة الرسالة المصرية
- ٩٦ - مجلة الثقافة المصرية
- ٩٧ - مجلة السياسة الاسبوعية المصرية
- ٩٨ - مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق
- ٩٩ - مجلة قافلة الزيت السعودى
- ١٠٠ - مجلة رابطة العالم الاسلامى مكة المكرمة
- ١٠١ - مجلة التضامن الاسلامى مكة المكرمة
- ١٠٢ - جريدة كوكب الشرق عدد ١٨/١/١٩٢٦

هذا وقد آثرت ذكرها جملة دون استعراض أعداد كل منها على حدة ،
وهى تربو على ستين عددا ، مدونة فى هامش الصفحات .

<u>الموضوع</u>	<u>رقم الصفحة</u>
تمهيد	أ - ج
<u>الباب الاول</u>	
المحاسنى فى عصره	١ - ١٣٥
<u>الفصل الاول</u>	
عصر المحاسنى	
الحياة السياسية والقومية	١ - ٣٠
الحياة الفكرية والثقافية	٣٠ - ٥٠
الحياة الادبية	٥٠ - ٧٠
<u>الفصل الثانى</u>	
نهاية المحاسنى	٧١ - ٩١
تأثيره وتأثيره	٩٢ - ١٢٣
وظائف المحاسنى وأعماله	١٢٤ - ١٢٥
المحاسنى فى رأى معاصريه	١٢٥ - ١٣٥
<u>الباب الثانى</u>	
<u>آثاره الادبية</u>	
تمهيد	١٣٦ - ٢٤٤
<u>الفصل الاول</u>	
بحوثه الجامعية	١٣٦ - ١٣٨
أبو العلاء ناقد المجتمع	١٣٩ - ١٤١
شعر الحرب فى أدب المسرب	١٤١ - ١٥٨
	١٥٨ - ١٧٩

رقم الصفحة

الموضوع

الفصل الثاني

دراساته الادبية

- | | |
|-----------|---------------------------|
| ١٨٠ - ١٩٥ | ١- أبو نواس شاعر من عبقري |
| ١٣٦ - ٢٠٧ | ٢- المتنبي |
| ٢٠٨ - ٢١٦ | ٣- الأدب الديني |
| ٢١٦ - ٢٢١ | ٤- نظرات في أدبنا المعاصر |

الفصل الثالث

التراجم الادبية

- | | |
|-----------|--------------------|
| ٢٢٢ - ٢٤٤ | ١- أحمد أمين |
| ٢٢٢ - ٢٣٤ | ٢- عبد الوهاب عزام |
| ٢٣٥ - ٢٤٤ | |

٢٤٥ - ٣٥٠

الباب الثالث

أدب المحاسني

الفصل الاول

- | | |
|-----------|--------------------------------|
| ٢٤٥ - ٣١٨ | شعر المحاسني |
| ٢٤٩ - ٢٥١ | أغراض شعره |
| ٢٥١ - ٢٧٨ | شعره الفناوي |
| ٢٧٨ - ٢٩٢ | شعره الملحني |
| ٢٩٣ - ٢٩٩ | شعر الأسطوري |
| ٣٠٠ - ٣١٧ | السمات الفنية لشعر المحاسني |
| ٣١٧ - ٣١٨ | شاعرية المحاسني في ميزان النقد |

الفصل الثاني

- | | |
|-----------|---|
| ٣١٩ | أدب المحاسني النثري |
| ٣١٩ - ٣٢١ | تصنيفه |
| ٣٢١ - ٣٢٤ | أبرز المجلات والصحف التي كتب فيها
المحاسني |

<u>الموضوع</u>	<u>رقم الصفحة</u>
موضوعات مقالاته	٣٢٤ - ٣٢٥
أ - المقالة الانشائية	٣٢٥ - ٣٣١
ب - المقالة الادبية	٣٣١ - ٣٤٣
ج - المقالة النقدية	٣٤٣ - ٣٥٠
<hr/>	
خاتمة البحث وأبرز نتائجها	٣٥١ - ٣٥٤
مراجع البحث ومصادر	٣٥٥ - ٣٦١
فهرست الموضوعات	٣٦٢ - ٣٦٤
